محمد عبد الحميد الحمد

الديانة اليزيدية بين الإسلام والمانوية



الكتـاب : الديانـة اليزيديـة بـين الإسـلام والمانويـة

المؤلـف : محمـد عبـد الحميـد الحمـد

الطبعة الأولى 2002 م

الناشر : **الأوائل** للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية

سورية . دمشق . الإدارة : ص.ب 3397 . التوزيع : ص.ب 10181

تلفاكس : 00963 11 2248255

جـــوال : 00963 93 411550 · 00963 93 418181

البـريد الإلكتـــرونـــــي : E- mail : alawael@scs-net.org

موقع الدار على الإنترنت : www.daralawael.com





محمد عبد الحميد الحمد

الديانة اليزيدية بين الإسلام والمانوية

اسم الكتاب: الديانة اليزيديّة بين الإسلام والمانويّة

اسم المؤلف: محمد عبد الحميد الحمد

للحصول على نسخ من هذا الكتاب يمكن الاتصال بالمؤلف

الرقة - هاتف: ٢٤٣٥٤٤ - ٠٢٢

موافقة الطباعة صادرة عن مديرية الرقابة في وزارة الاعلام

رقم: ٥٠٥٠٠ تاريخ: ٢٠٠١/٥/٣

اخراج: هالة فطوم

تصميم الغلاف: جمال سعيد



المدخل: بنية الكتاب ومنهجه.

الباب الأول: علاقة المانويّة بالمسيحيّة والإسلام

الفصل الأول: تأثر ماني بتعاليم المسيحيّة

الفصل الثاني: المانويّة قبل ظهور الإسلام

الفصل الثالث: أهم الشخصيات المانويّة الإسلاميّة

الباب الثاني: الإسلام واليزيديّة

الفصل الأول: التأسيس (الطريقة العدويّة)

الفصل الثاني: التحوّل (الحلوليّة ووحدة الوجود)

الفصل الثالث: الهجرة (تكوّن المذهب اليزيدي)

الباب الثالث: اليزيديّة (تاريخ وعقيدة)

الفصل الأول: من أسرار ورموز اليزيديّة.

الفصل الثاني: أهم الطقوس والاعياد.

الفصل الثالث: وقائع وشخصيات تاريخيّة

المدخل ـ بنية الكتاب ومنهجه

ـ أقوال شائعة عن اليزيديّة
ـ من هم اليزيدون
ـ علاقتهم بالمانويّة
ـ ماذا يقول اليزيديون عن انفسهم؟
ـ ماذا قال عنهم الباحثون العرب والأجانب؟
ـ عرض أبواب الكتاب الثلاثة

أقوال شائعة

سمعت باليزيديّة لأول مرة في خريف عام ١٩٦١ عندما اجتمعت وبعض المعلمين الحديثي الخدمة، في أحد فنادق الحسكة، وأخذنا بتبادل الأحاديث عن همومنا ومتاعبنا، وعندما جاء دور صديقنا الأستاذ مطانيوس شنوّر قال: أشكر الرب، جاء تعييني في قرية قرب صفيّة ـ القريبة من الحسكة ـ وأهل القرية أكراد وهم محبون للغريب، وفي الأسبوع الماضي أردت ردَّ جميلهم فحملت لهم طرفة (عدل خس). وعندما أنزل معاون الباص عدل الخس في ساحة القرية، اجتمع الأهالي حولي وكثر هرجهم، وإذا به يصل على عجل، وقبل أن يتكلم قلت: «ما في شيء من واجبكم أنتم مفضّلون....» وإذا به يقول: «احمل العدل على ظهرك واتبعني! فحملته حتى الوادي البعيد عن القرية، ورميت العدل وعدنا، وفي الطريق قال المختار: «يا أستاذ نحن يزيديّة، نحرِّم أكل الخس، ولأنك انسان طيِّب تجهل ذلك سامحناك».

أنهى صديقنا كلامه، فتعجبنا، وسألنا عن معنى اليزيديّة! ومن هم اليزيديون؟ وما هو دينهم؟

فلم نظفر بجواب. وعدت إلى القرية التي أعلّم فيها «تل نصري» وهي قرية أهلها مسيحيون (آشوريون) سألتهم عن (اليزيديّة) وإذا بهم يعرفونهم قبل نزوحهم إلى سورية عام ١٩٣٤ من لواء الموصل.

قال الرجل المسن ايشو قندو، وهو ضابط سابق بالجيش الانكليزي، اليزيديّة، أكراد ولكنهم ليسوا بمسلمين وإن كانت أسماءهم إسلامية، لم أرهم يصلون، ولكن لهم صوم كصومنا أحياناً، ويغلب على لباسهم اللون الأبيض لأنهم يحرِّمون اللون الأزرق أو الأخضر ويحرِّمون أكل الخس والملفوف والباميا والسمك، ولا يتزوجون إلا من بعضهم ومن طبقات اجتماعية معينة عندهم، وفي فصلي الربيع والخريف يحملون تمثال من النحاس على صورة ديك أو حمامة يطلقون عليه (طاووس ملك) وهو رمز لمعبودهم، وأظنه الشيطان، ورغم كل ذلك فاليزيديّة قوم شجعان كرماء، وأعطاني كتاباً بالانكليزية فيه ذكرهم. جاء في الكتاب: إن اليزيديّة، قوم أكراد، وهم ليسوا بمسلمين، يقدسون الشيخ عدي بن مسافر الأموي، المدفون في عين سفني، وفي غرفة القبر مكتوبة

آية الكرسي، ورغم ذلك يعتبرهم المسلمون الأكراد مارقون، أمّا اليزيديّة فإنهم يعتبرون أنفسهم من نسل آدم وبقية البشر من نسل آدم وحواء، ويؤمن أفراد الطائفة بكائن سام يطلقون عليه (يزدان) ومنه اشتق اسمهم، ولهم آلهة سبعة أو لهم طاووس ملك الذي يطوف به القوالون في القرى اليزيديّة وهم ينشدون بالعربية والكردية(١).

وسمعت من رجل كردي يُدعى أبو شيخ موس قال: إن اليزيدي إذا سافر وغاب عن منزله فرشت زوجته فراشه، وإذا عاد، وصادف رجل دين منهم ينام في فراشه، فلا يغضب.

ولكن مثل هذه الأقوال التي ترميهم بالمعاصي نفاها عنهم العالم الأثري أوستن هنري لايارد، ووصفهم بالعفة وربط ديانتهم بالمانويّة وهم يحرمون الزنا، والنساء والرجال يسجدون للشمس، رأهم أثناء تجواله في قراهم، ووصف قبر الشيخ عدي بن مسافر، والكتابات القرآنية داخل مرقده وهم مع ذلك يدَّعون أنهم ليسوا بمسلمين(٢).

بدأت الكتابة تتوالى عن اليزيديّة منذ بداية القرن العشرين، كتب عنهم قيصر صادر «إن اليزيديّة مشتقة من كلمة (ايزد) الفارسية التي معناها جدير بالعبادة، وهي تطلق على الملائكة التي تتوسط بين الله والبشر، وفي اعتقادهم أنهم من اتباع الملائكة»(٣).

كان حكمه هذا عائماً، لم يقرنه بدين معين، ولكن جان سبيرو حددهم عندما قال «إنهم قد صدروا عن الدين المانوي، ويعتقدون أن عقيدتهم تلاشت بالأرباب الستة، ويظهرون بوضوح الإله بصورة طاووس ملك الذي خلق كل شيء»(٤).

إذن الدين اليزيدي هو من نتاج الديانة المانويّة، وإلى هذا ذهب الباحث جورج حبيب عندما قال «إن الدين اليزيدي منحدر من جذور جداً بعيدة، تكاد تبلغ العهود السومرية على أن هذا الدين لم يعرف بهذا الاسم، إلا في فترة متأخرة نسبياً(٥). ثم ربطهم بالديانة الميثرائية مبدياً بعض البراهين التي استمدها من كتاب الأمير اليزيدي اسماعيل جول الذي وصف قومه «وكانوا يسمون «ازدان» أي ملة الإزدان(٦)، ويتابع جورج حبيب قوله.. ويرسم اليزيديّة علامة الصليب المثرائي (+) على ما يشترونه من حاجات وأدوات منزلية على سبيل التيمّن والبركة، ويخلص إلى القول.. إن تطابق عيد يزيد وعيد ميلاد مثيرا في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول، كما يشعل كلا الفريقين النيران ليلة العيد احتفاء بذلك(٧).

واليزيديّة لا علاقة لهم بالديانة الزرادشتية بل هم مانويون يقدسون الشمس ويقبلون الأرض التي تشرق عليها الشمس شريطة أن لا يراه أحد من خارج الاثنوس اليزيدي. ورأى المستشرق الألماني ماكس هورتن Max Horten في ذلك انتصار على مبدأ الثنوية الفارسية القديمة وبالنسبة لهم فإن طاووس ملك لا يمثل مبدأ الشر الزرادشتي، بل على العكس من ذلك فهو انكار له، فهم عبدة الشمس، وإلههم إله النور(٨).

كان المانويّة يتركزون في شمال العراق في منطقة حدياب، ذكرهم ثيودور بن الكيواني المسيحي عندما قال: كان بطاي عبداً لاذ بتلاميذ ماني فجمع بعض خطبهم في عهد الملك الفارسي فيزور الذي حرّم ممارسة الديانة المانويّة فغيّر بطاي اسمه وسمّى نفسه (يزداني) ورسم الصليب على كتفه الأيسر وتبعه جمع غفير من الناس وقالوا ببدعة «أن الصليب سر الحد بين أبي العظمة (إله النور) وجيا الارض السفلى»(٩). وفي رسالة أرسلها مطران السريان في الموصل إلى كريكور ماكستروس جاثليق الأرمن (المتوفى ١٠٥٨م) قال: «هنا اناس يعبدون الشمس، والذين خدعهم مجوس الفرس، ويعرفون باسم الشمسية في هذه الربوع، وهم يسمون أنفسهم نصارى وأنت لا تجهل سيرتهم الشريرة المفضوحة»(١٠)؟

وهؤلاء الأكراد الشمسية يعرفون بالتيراهيّة، قال عنهم مطران الموصل سليمان الصايغ وكانوا على دين المانويّة، ولم يكونوا على دين الزرادشتية، واتبعوا طريقة الشيخ عدي بن مسافر وانضموا إلى لوائه»(١١). وهؤلاء الشمسية كانوا كثيرين حول الموصل وماردين وديار بكر قال عنهم المؤرخ الأرمني توماس ميدوز بتسي Thomas Medzopetsi، «إن هؤلاء الشميين كثيرون في تلك البلاد بعناية شيطانيّة، وفي القرن الخامس عشر الميلادي دمّر تيمورلنك مدينتهم وأربعة وأربعين من قراهم حول الموصل» ولكنهم طبقاً لما قال عنهم الرحالة الدانمركي كريستن نيبور (١٧٣٣ - ١٨١٥)، وقد حافظوا على دينهم الذي كان موجوداً في هذه الديار قبل الإسلام والنصرانية ولم ينضموا إليهم إلا في القرن الخامس عشر بعد أن هددوا بالموت(١٢). قال عنهم علي بن محمد بن عبد الله الفخري (المتوفى ٨٤٢هـ/١٤٣٩). «وسماهم البابليين الذين يعبدون الشمس، وقد بشروا بأن الذي قتل وصلب لم يكن المسيح وإنما شبّه لهم، وأن المسيح خلق قبل العالم، وأنه نفسه خالق الأشياء،»(١٣) وأن اتباع هذه الفرقة كانوا في سورية واليمن والعراق، وهذا هو رأي المانويّة الذين دخلوا في طريقة الشيخ عدي بن مسافر، وأضفوا عليه ما جاء في تعاليمهم عن السيد المسيح.

ماذا يقول اليزيديون عن أنفسهم؟.

يقول المثل العربي «أهل مكة أدرى بشعابها». ومعنى هذا أن اليزيديّة أعلم الناس وأكثرهم دراية بدينهم، ولكن الكتابات التي خلّفوها لا تشير إلى مثل ذلك، فهم يكتفون بترديد أن دينهم قديم، لا يعرفون متى وكيف ظهر؟ وفي ظني أن سبب ذلك هو غياب القراءة والكتابة وهو يتوّارثون طقوسهم وتعاليمهم شفاها، وتنتقل من الأباء إلى الأبناء مقولة أن دينهم أفضل الأديان، وأن كتبهم المقدسة (الجلوة ومصحف رش) تضم أفضل المعارف الإنسانية، روى لي أحدهم، قال: عندما عدت من أوربا بعد إنهاء دراستي، استقبلني أهلي بالترحاب وكان أخي الأكبر هو الشيخ المتنفّذ

وصاحب العلم الرباني في الديانة اليزيدية، قال محدثاً الحضور إن كتابنا (مصحف رش) مخزن العلم الإلهي، وقد أخذ الغرب علومهم ومخترعاتهم منه، والتف إليّ قائلاً أليس كذلك؟ فهززت رأسي بالإيجاب، ثم تابع حديثه، وإن دين ملة يزيد، هو أفضل الأديان عند الله، ولنا علامة أو آية على ذلك، عندما دعا الله شيخنا عدي، وأصحابه إليه، ركبوا خيولهم وصعدوا، إلى السماء الدنيا، وتذكروا أنه لا توجد لديهم علوفة فأرسلوا شيخا أبو بكر ليجلب لهم التبن، وأثناء عودته مسرعاً، تناثرت في طريقه شظايا التبن وصار هذا الطريق منذ ذلك التاريخ يُدعى درب التبانة (ريا كاكيشا) وهي المجرة، خلقها الله إكراماً للشيخ عدي وأتباعه، أليس كذلك ياأخي؟

قال: صديقي اليزيدي: قلت له لا يا أخي تخنتها، فضربني بعصا كانت بالقرب منه، وهذه آثارها، وأشار إلى رأسه، هذه هي حال العوام، إلا أن الباحثين من اليزيدية ليسوا بأفضل حال. يقول الباحث اليزيدي هوشنك بروكا عن الشيخ عدي بن مسافر الأموي، وهو شخصية تاريخية معروفة «بالرغم من إقرارنا بالدور الكبير الذي لعبه الشيخ عدي بن مسافر في مسيرة هذه الديانة باعتباره واحداً من مبشريها وحاملاً لرايتها في مرحلة أساسية من مراحل تطورها رغم ذلك فإن الايزيدية لم تظهر بظهور هذا الشيخ الزاهد كما يُدَّعى أو يعتقد، فهي سابقة عليه بل تعود إلى ما قبل الميلاد بقرون عديدية»(١٤) ودعم قوله برأي الباحث اليزيدي لوفريه نبو الذي قال أن كلمة (ايزيدي) وجدت بالخط المسماري في العهد السومري، وهي تعني الروح الخيرة أو الذي يمشي على الطريق الصحيح(١٥) هذا الرأي ناقشته مع الباحث المذكور عام ١٩٨٧ بحضور الدكتورة ايفا شترومنغر التي نفت وجود هذا الاسم في الألواح المسمارية، وإن وجدت فهي لا تعني أنه كانت هناك شيعة دينية تعرف بهذا الاسم.

أمّا الباحث اليزيدي درويش حسو الذي يرى أن يزدان اتصل بطاووس ملك وهداه إلى الديانة الأزداهية، والتي سميت بالزرادشتية، هو نفسه الذي اتصل بالشيخ ادي (الشيخ عدي) في القرن السادس الهجري وجعله رسولاً لرعاية اليزيديين وإعادة إحياء الدين وتجديده ويمثل عند اليزيدية على هيئة حمامة جالسة على العرش(١٦).

إن معظم الباحثين الأكراد واليزيديين منهم خصوصاً، يحالون ربط الديانة اليزيدية بالديانة الزرادشتية أو الديانات الشرقية القديمة، وإبعادها قدر الإمكان عن أصولها الديانة الإسلامية، وذلك إما عن جهل لجهلهم بالتاريخ الإسلامي، أو عن قصد، فهم لا يملكون مخطوطات عن ديانتهم التي تحرّم القراءة والكتابة، ولذلك عندما يعرضون تعاليمهم التي يغلب عليها طابع الخرافة، تراهم يضفون عليها اسم (ميثيولوجيا) وعندما يتكلمون عن يزيد بن معاوية يجعلونه نزل من السماء، وحارب الحسين بن علي وقتله، واستمر في الأرض لمدة ثلاثمائة عام وجمع الكتب عن ظهر الأرض وحرّم على أتباعه القراءة والكتابة وحصرها في أولاد الشيخ حسن بن عدي في القرن (السابع الهجري) وحسب كتابهم المقدس (مصحف رش) فأمراء اليزيدية هم أحفاد

شابور الأول وشابور الثاني وهم ملوك ساسانية زرادشتيون، وفي مكان آخر هم من نسل نبوخذ نصر الأشوري.

جاء في كتاب اليزيديون والديانة اليزيدية للباحث الكردي شاكر فتاح، «اعتقد أن تسمية اليزيدية جاءت إمّا من جدهم الكبير (يزدان Yzdan) أو أنهم أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية لأنهم عبدة الله، وأن تسميتهم لا تعود إلى اسم يزيد بن معاوية البتة»(١٧). ومن آثار الديانة المانويّة في الدين اليزيدي ابتعاد اليزيديين عن ارتداء الملابس الملّونة وعدم الاهتمام بالمأكل والمشرب، إذ يقضون حياة أشبه بحياة المتصوفة القاسية لينالوا السعادة بعد الممات»(١٨) وجاء في هامش ص١٧ من الكتاب المذكور لعلها للمترجم «حتى لو كان هدف الشيخ عدي بن مسافر نشر الإسلام بين أكراد هكاري، إلا أنه لم يحقق ذلك بسبب رفضهم تلك الأفكار فتراهم يحتمون بالكهوف والجبال مع كل غزو إسلامي للمنطقة ليظلوا متمسكين بأفكارهم ومعتقداتهم الدينية، وأمّا تقدير أكراد جبال داسن (الجبال الواقعة شرق الموصل) لهذا الشيخ لا يعني بالضرورة الانقياد وراء معتقداته الدينية والموضوع محل بحث وتحليل دقيقين»(١٩).

كل هدف الباحثين الاكراد هو إبعاد المذهب اليزيدي عن دوحة الإسلام والعرب. ويصدق عليهم قول أمير الشعراء أحمد شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم ... كلقيط عيَّ في الناس انتسابا

أو كمغلوب على ذاكرة ... يشتكي من جهله انقضابا

ماذا قال الباحثون العرب عن اليزيديين؟

في اعتقادي أن أفضل الباحثين في تاريخ المذهب اليزيدي، هم الباحثون العرب الذين استخدموا المصادر التاريخية، ولم يعتمدوا على الظنون، بل قام بعضهم بمعايشة اليزيدية كما فعل السيد عبد الرزاق الحسني، والسيد صدّيق الدملوجي والسيد سعيد الديوجي والدكتور خلف الجراد، والدكتور سامي سعيد الأحمد، الذي قام بدراسة ميدانية زار قرى اليزيدية في الشيخان وسنجار سنة ١٩٦٨ ووصف طقوسهم وعاداتهم قال «قد رأيت بأم عيني عام ١٩٦٨ خروج جموع اليزيديّة في قرية بعشيقة في الصباح لإداء التعبد (صلاة الشروق) مع قضاء الحاجة. حيث تخرج النساء أولاً ثم من بعدهن يذهب الرجال ويقبّلون أثناء السجود الأرض، أمام الشمس ثم يتلون دعاء لا أعرفه»(٢٠).

وهذا الدعاء يذكره لنا السيد عبد الرزاق الحسني كمايلي: آمين، آمين، تبارك الدين الله أحسن الخالقين، بهمة شمس الدين. وناصر الدين. وسجادين (شه شمس) وقوة الدين وقديم البان

وسلطان شيخ عدي رئيس الأولين والآخرين، أعطنا الخير ونجنا من الشر، حق الحمد لله رب العالمين»(٢١). يبدو أن هذا النص هو اختصار وتحريف لدعاء الشروق الذي ذكره الباحث سعيد الديوجي: بسم الله يزدان العلي العظيم الرحيم الكريم.

اللهم، كنت ولم أكن، إنك رحيم، وإني مذنب، أنت الحق، وأنا العبد، إنك قديم باق، ليس لك قامة، وإنك الأعلى وليس لك صوت ولكن تتكلم، وإنك موجود في كل الأمكنة، إنك خالق العالم، تفعل ما تريد.

اللهم، لك نصلي، إنك تسلب الأرواح من الأجساد، وتأخذ العقل من الراس وقت النوم وتعلم السر وما أخفى.

اللهم، أنت الإله وأنت الملك، وأنت أعلم العلماء، وسلطان السلاطين، ليس لك نوم ولا أكل ولا صوت لك وليس لك بيت مخصوص، وأنت محجوب لا تدركك الأبصار وأنت حاضر جميع الأمكنة، وأنت صاحب الجود والعطايا، ولا تتصف بالظلم، تستحق المدح والثناء، لا يعلم أحد كنهك، وأنت المميت والمحيي، ملك الفقراء والأغنياء.

اللهم، إنك مالك العرش والكرسي، خالق النون والسمك.

اللهم، بحق اسمك أصلح أحوال العباد اليزيديين المشرقين والمغربين»(٢٢). وهذا دعاء صوفي إسلامي صرف.

دونك صورة لعالم دين يزيدي يعرضها لنا الدكتور سامي سعيد الأحمد، وهو نموذج لليزيدي المثقف صاحب الدراية والخبرة كما يدعيها هو، وقد كتب رسالتين في أوقات مختلفة وكان التناقض والكذب فيها واضحاً، قال: «جاء في المصحف اليزيدي الذي يدعيه صديقنا اليزيدي ما نصه: الملاك سالم هو أحد أسماء الله للرحمة، ظهر في يزد المقام الشرقي أصدق من عرف بالإيمان وقوله الله واحد لا ثاني له أبداً، هو طاووس الأمراء، ظهر في الأرض ونحن عرفناه باسم (ملكي ميران) وعلمنا شيئاً من الخفايا سيظهر الابن ثم روح القدس نبي آخر الزمان، وقد ظهر الملك سالم سنة ٢٠٢٠ ق.م ظهر في يزد، وكانت عبادة الشمسانية قد انتشرت في الأرض، وقد هاجر قسم إلى اليمن وأسموهم بالأزد نسبة إلى يزد الشمساني وآخرون إلى الهند والفيليبيين والصين وجيكوسلوفاكيا والأرجنتين»، ويعلق الدكتور سامي على رسالة صديقة اليزيدي (الكذب واضح في هذا النص، والتلفيق ظاهر فالأرجنتين اكتشفت عام ١٥٤٠م، وكيف يؤرخ الملاك سالم بتاريخ قبل الميلاد السيد المسيح بقرون كثيرة، والملك سالم هو باني مدينة القدس»(٢٣).

وفي الرسالة الثانية يذكر له صديقه اليزيدي «وقد ختن إبراهيم الخليل في حضن الملاك سالم وكان ذلك في يوم ٨ آذار عام ١٩٩٠ ق.م وهذا اليوم عيد لكل المؤمنين»(٢٤) والكذب واضح في هذا النص أيضاً كالنص السابق، وهذا هو شأن معظم الباحثين اليزيديين، الذين يوردون معلومات قائمة على التخمين، وهم كثيرو الادعاءات وبأن لديهم أسرار يخفونها مثل خزنة الرحمن في قرية

باعذرى وبيت الجلوّة في بعشيقة ومركز الدراسات اليزيدية في عين سفني، وفي هذه المراكز تكمن المعلومات الصحيحة عن الدين اليزيدي، وعندما كتب الأستاذ هاشم البنا كتابه عن اليزيدية وعرضه على الشيخ الروحاني سعيد الشيخ خضر ووقع صحيفة جاء فيها «فأجرينا عليه التصحيحات الكثيرة لإزالة الشوائب والأدران التي ألصقها بهم بعض الكتاب من ذوي النوايا غير الحميدة، لذا فقد صار كتابه هذا أقرب إلى الحقيقة من ديانتنا اليزيدية»(٢٥).

ما هي التصحيحات التي أضافها؟ إنه لم يضف شيئاً وإنما أزال ما يتهم به اليزيديون، ولم يزد عما جاء في كتابات الباحث عباس العزاوي أو صديق الدملوجي، واليزيديون حين يكتبون عن شخصية محوريّة كشخصية الشيخ عدي بن مسافر، يجعلونه رجل زرادشتي. وقد ردّ عليهم الدكتور محمد التونجي قائلاً: «وقد قارنا معتقداتهم بالديانة الزرادشتية التي درسناها دراسة عميقة أيام كنا في إيران والهند فوجدنا الشبه ضعيف جداً بينهما، ولعل صلتهم بالإسلام أدنى من صلتهم بالزرادشتية اللهم إلا في مسألة الثنوية (المانوية) ومسألة التناسخ ولا يجوز لنا أن نعدهم زرادشتيين لعدم اعتقادهم بالنار المطهرّة والمقدسة»(٢٦). وأغلب من دخل اليزيديّة كانوا يدينون بالمانويّة أو الثنويّة فغلب ذاك العنصر العجمي على العنصر العربي بعد أن كانت ديانتهم تقرب من الديانة الإسلامية في عقائدها وشعائرها، ابتعدت عنها واقتربت من الديانة المانويّة»(٢٧).

وفي اعتقادي أن أفضل من أبدى رأياً حصيفاً عن اليزيدية وتاريخهم هو العلامة أحمد تيمور باشا، قال عنهم: اليزيديّة طائفة من الأكراد يسكنون في جهات الموصل وسنجار وحلب، وهم من أغرب الطوائف المبتدعة بدعة يدينون بعبادة الشيطان ويقولون بالتناسخ، ولهم في كتم نحلتهم والاحتفاظ بأسرارهم مبالغة شديدة.(٢٨). ولم يكن لهذه الطائفة وجود قبل الشيخ عدي بن مسافر الذي اشتهر بالزهد، وأسس الطريقة العدوية، وفي زمن الشيخ حسن بن عدي (والشيخ محمد بن موسى بن أحمد الاربلي) زادوا أشياء باطلة نظماً ونثراً وغلوا في الشيخ عدي وفي يزيد بن معاوية بأشياء مخالفة، وأدخلوا ما اقتضته مصلحتهم ووافق هواهم، ومازالوا ينقصون ويزيدون فيه قرناً بعد قرن حتى أُخرجوا من جملة الإسلام»(٢٩) من هذا المنظور درست المذهب اليزيدي في تحولاته وسيرورته التاريخية.

عرض أبواب الكتاب

اتبعت المنهج الوصفي في دراستي للمذهب اليزيدي. اعتبرته ظاهرة ثقافية، تطوّرت خلال مجتمع له خصائص معينة، غابت فيه القراءة والكتابة، وساده النقل الشفوّي مما أضفى على المذهب طابع التخبط وعدم الاتساق. وسميت الكتاب (الديانة اليزيديّة بين الإسلام والمانويّة).

وقمت بتحليل البنى الأساسية للديانة المانويّة وتأثرها بالديانة المسيحية، وتأثيرها بحياة العرب القبلية قبل ظهور الإسلام. وقسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأول: علاقة الديانة المانويّة بالمسيحية، عالجت في هذا الباب تعاليم ماني، وحياته وأهم الأحداث المعاصرة له، ومدى تأثره بصابئة حران وأخذه منهم مبدأ الثنوية والقول بإلهين إله الخير أو النور وإله الظلمة أو القرين، وكانت علاقتهما علاقة تعاون وامتزاج وليست علاقة تنافر وصراع كما هو الحال في الديانة الزرادشتية الصراع بين إله الخير أهورامزدا وإله الشر أهرمان، وبيّنت مدى تأثر ماني بتعاليم المسيح، وادعاء ماني أنه (البرقليطس) الذي أرسله المسيح، وبعد انتشار مذهبه في فارس حرّمته الديانة الزرادشتية للتناقض بينهما، حيث كانت المانويّة ديانة زهد وتقشف، بينما كانت الزرادشتيّة ديانة تدعو للأخذ بمباهج الحياة وتحريم الصوم، وكان اتباع ماني يلبسون الثياب البيضاء وعلى عكسهم الزرادشتية يلبس كهنتهم الثياب الزرقاء، ومما تأثر به اتباع ماني نظام الطبقات الثابت في كل من الديانتين الزرادشتية والمانويّة وحصر الزواج فيما بين كل طبقة من طبقاتهم دون الأخرى.

وعندما غضبت الدولة الساسانية على اتباع ماني هربوا من دست ميسان في منطقة البصرة وسكنوا المناطق الجبلية في منطقة حدياب وعاصمتها (اربيل) وأمّا المانويّة في الدولة البيزنطية فقد هاجروا من سورية ومصر إلى الجزيرة العربية طلباً للأمان، وكانوا يتظاهرون بالمسيحيّة، وينكرون نعمة الفداء بقولهم أن السيد المسيح لم يصلب وإنما شبه لهم، وعرفوا في الجزيرة العربية باسم النصارى، وهم ينكرون تجسد الإله لأنه نور وليس كمثله شيء، وأن الخلاص يتم بواسطة الناموس أو الشريعة وبالرياضة الروحية وليس بالإيمان بالسيد المسيح.

وعرضت بعض الشخصيات المانويّة كشخصية سلمان الفارسي، قبل وصوله إلى المدينة ونشره تعاليمه بين العرب وجذبه لهم بزهده وكثرة صيامه وترك لذائذ الدنيا كالنكاح وأكل اللحم وشرب الخمر، وعدم الشره والحرص على اقتناء الأموال. وتعرضت لهم في منطقة الخليج العربي، وفي دست ميسان في تلك المنطقة التي منها نشطت الدعوة المانويّة التي كان من أشرافها يسار والد الحسن البصري وكان الحسن زاهداً عابداً، ترك كتاباً في القدر وآخر سماه (الإخلاص) وقد أثر في المذهب اليزيدي، وقد أطلقوا على الشيخ حسن بن عدي اسم الحسن البصري.

وتعرضت لحياة عبد الله بن المقفع، وأبو عيسى الوراق، وأبو بكر الرازي الطبيب وبيّنت أثر التعاليم المانويّة في فلسفتهم، وتأثير المانويّة أيضاً في الطرق الصوفيّة خصوصاً المذهب العدوي الذي تحوّل في مراحل لاحقة إلى المذهب اليزيدي.

الباب الثاني: درست فيه المذهب اليزيدي، بفكر نقدي متفتح، بيّنت فيه أن هذا المذهب قد نسج من خيوط مختلفة ولكن نتيجة الممارسة الحيّة تكوّن المذهب اليزيدي وكأنه من نسيج ثقافي

متجانس، وعندما نظر إليه الآخرون بذهنية التفكير الإيماني، وإذا بهم يخرجونهم عن حظيرة الإسلام، وأمّا الباحثون المنصفون أمثال عباس الغزاوي الذي قال «ونتاج ما حققته هو أن اليزيديين مسلمون حقيقيون، يعتقدون الإمامة في يزيد، وكونه على حق، وتوارثوا تقاليد وقيم صوفيّة وعادات ممزوجة بتعصب للأمويين، مما أبعد شقة الخلاف بينهم وبين جمهور المسلمين، فأدى إلى تقاليد خاصة أفسدت جوهر إسلاميتهم»(٣٠).

ولكن للباحث اليزيدي هوشنك بروكا رأياً مغايراً قال «إننا نختلف مع هذا الرأي وننفيه نفياً قاطعاً كونه يفتقر إلى أبسط الأدلة التاريخية والايثولوجية ضارباً بأصول البحث العلمي عرض الحائط»(٣١).

هذا الرفض لرأي العزاوي يصدق عليه قول الشاعر العربي (رمتني بدائها وانسلت). إن الباحث المذكور السيد بروكا هو الذي لم يتبع أصول البحث العلمي، فهو حين يتعرض لأصل اليزيديّة يخوض في البحر على غير هدى قائلاً «إن تسمية الايزيدية بإعادتهم إلى يزيد بن معاوية لا تخرج من إطار النظرة الإسلامية الضيقة التي تجهل الحقائق التاريخية والاثنولوجية ولا تذهب بالتاريخ إلى ما قبل الإسلام، لتوهمنا بأن كل التاريخ هو الإسلام، مما يحول دون الوصول إلى النواة الحقيقية لأصل الديانة اليزيديّة»(٣٢).

فما هي النواة الحقيقية لأصل الديانة الايزيدية؟ عند السيد بروكا إنها الثالوث المقدّس المكوّن من (الله ـ طاووس ملك ـ الشيخ عدي) ولكل منهم ذاتاً خاصة ومستقلة أحياناً وأحياناً متحدة في هذا الثالوث، فطاووس ملك يكوّن ذاتاً مستقلة لأن الله خلقه ونصبه رئيساً للملائكة، ويكوّن ذاتاً مع الله، لأن الله خلقه من نوره بل هو اسم من أسماء الله، وتنطبق الصورة ذاتها على الشيخ عدي، فهو يشكل ذاتاً مستقلة، باعتباره كان شيخاً زاهداً كرّس حياته في نشر أفكاره ودعوته بين الايزيديين، كما يشكل ذاتاً متحدة مع (طاووس ملك ـ الله) بتقمصه روحه ثم ينتقل إلى فكرة التثليث في العقيدة الهندية ويقارن بينه وبين الإله براهما من حيث هو موجود وهو فشنو من حيث هو محافظ وهو شيفا من حيث هو مهلك»(٣٣). وهكذا يحوّل شخصية عدي بن مسافر الشخصية التاريخية المعروفة الذي ولد في (بيت فار) في البقّاع عام (٤٨٥هـ/١٠٩١) وتعلم في بلدته ثم انتقل إلى دمشق ليتعلم الفقه وعلوم القرآن والحديث ومبادىء العربية وليلبس الخرقة من يد عقيل المنبجي في دمشق وكتب رسالة صغيرة في اعتقاد أهل السنة والجماعة على غرار رسالة الحسن البصري في القدر، ثم انتقل إلى بغداد ودرس في المدرسة المنصورية وتأثر بالحنابلة في حبهم لمعاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية، ثم رافق الشيخ عبد القادر الكيلاني إلى الحج وتوطدّت عرى الصداقة بينهما، واشتهرت مقولة عبد القادر الكيلاني فيه، لو أن النبوة تنال بالرياضة لنالها عدي بن مسافر، وفي بغداد وجد أن مسألة توحيد ابليس قد أثيرت فأبو يزيد البسطامي يعتبره منزهاً ويقول فيه:

فمـن آدم في البـين ومـن ابليـس لـولاكَ
فتنت الكـل والكـل مـع الفتنـة يهـواكَ

وكان الشيخ أحمد بن محمد الغزالي ممن تعصب لابليس، وشرح كتاب الطواسين للحلاج، وأخذ عدي بشروحه، وهو أن ابليس كان سيد الموحدّين، لأنه ثبت على دعواه، ولم يسجد لآدم رغم تهديد الباري له بالطرد من الجنة، وبذلك ما صحت الدعوى لأحد إلا لأبليس وأحمد غير أن ابليس سقط عن العين، وأحمد كشف له عن العين، وما كان لأهل السماء موحّد قبل ابليس. ولعن حين وصل إلى التفريد، وحين طلب المزيد، قال له اسجد! قال: لا غير قال: عليك لعنتي. قال: لاغير، وأنشد(٣٤).

جحـودي لـك تقديـس وعقلـى فيـك تهويـس
ومـــــــا آدم إلاك ومـن في البـين ابليـس

وقد ذكر عزازيل (ابليس) باسم ملك الدهر، وتعصب عدي بن مسافر لابليس ويزيد، ويبدو أن من أسباب هجرته لبغداد خوفه من الرافضة الذين تعصبوا ضده، فهاجر إلى الموصل وكتب رسالة صغيرة في آداب النفس تضم عشر خصال منها تلاوة القرآن للصلحاء ولزوم ترك المعاصي والترغيب في المجاهدات، وله رسالة أخرى في وصاياه للخيفة، ينصح فيها مريده فايد، نصحه فيها بالابتعاد عمن تظهر له الكرامات إذا لم يوفق بين أعماله وأوامر الشرع، ويزدجر عن نواهيه ولا يوافق أحداً إذا صدرت عنه بدعة خفيفة»(٣٥)، ومع أن المصادر الإسلامية تذكر الشيخ عدي بالصوفي الملتزم بسلوك الجماعة، إلا أنها تذكر له في الوقت نفسه شعراً فيه من الإشارات والرموز التي توحي بأنه يدعّي الألوهية(٣٦) قال:

والبرايا طويتها مـن بعـد نشـر طـىّ فتيـان كهفهـا لـلرقيم
وأبـو مـرة اللعـين عزازيـل أبىّ السجود فكنيتـه بـالرجيم
آمنوا يا عبادي لا تكفـروا بـى إنمـا الكفـر مـن طبـاع اللئيـم
أنا أسـقى الكفـار نـاراً حميمـاً والذين آمنوا بـى مـن التنسـيم

وعندما توفي الشيخ عدي عام (٥٥٧هـ/١١٦٢م) دفن في لاليـش (شمال شرق الموصل) وأصبح قبره مزاراً مقدساً يحج إليه أتباعه في كل عام.

أمّا طاووس ملك، فهذا الرمز مأخوذ من التراث الإسلامي، قال الكسائي: أعطى الله آدم ديكاً ودجاجة، وكان الديك أبيض أفرق، اصفر الرجلين يضرب بجناحيه عند الصلاة ويقول: سبحان من يسبحه كل شيء. وكان معظم الصحابة في عصر الرسول يربون الديكة لتذكيرهم بالصلاة قال عبد الله بن عباس «أحب الطيور إلى ابليس الطاووس وأبغضها إليه الديك، فالشيطان لا يدخل

بيتاً فيه ديك، وقال: قتادة أكثر طيور الجنة الديك، ويذكر القوالون: عندما كان الشيخ عدي ومريده ينشدون وأخذهم الحال صاح المؤذن. فقال الشيخ عدي: أنزلتنا من العرش إلى الفرش، وكان في إنشاده يسمع ديك العرش، وفي الآذان غاب عنه صوت الرحمن علق عباس العزاوي «كان اليزيديّة متصوفون في الأصل، فقد كانوا يحترمون الديك في أول أمرهم تبعاً للشيخ عدي بن مسافر، ثم لما رأوا ما بين الشيطان والطاووس من الارتباط عدلوا عن إكرام الديك»(٣٧) إلى الطاووس.

وعندما يجوب القوالون السنجق (طاووس ملك) يقولون(٣٨):

أصحاب الفهم من ملوك الزمان	كلنا أخوة في الواحد الرحمن
طاووس ملك اسم الله الثاني	اسم الله محبة في كل زمان
بايعت الشيخ حباً بإيماني	ينادي بالحق دعوة شمساني

الباب الثالث، تكلمت فيه عن البنى الأولية للمذهب اليزيدي، وأهم طقوسهم وعن أعيادهم، وعن أهم الشخصيات التاريخية التي خلفت الشيخ عدي بن مسافر وبما أضفوا عليه من هالة التقديس، مفسرين أقواله التي تتفق وأقوال أهل الطريقة، قال ابن تغري بردي، يروى للشيخ عدي بن مسافر كلام على لسان أهل الطريقة في توحيد الله عزّ وجل»(٣٩)، وعنه قال ابن العماد الحنبلي «إلا أن أتباعه يغالون فيه»(٤٠).

وفي البحث التاريخي بيّنت علاقة طاووس ملك بإبليس، وبالشيخ عدي، ولم ألجأ إلى الافتراضات الخيالية وإنما استللت ذلك من التعاليم الإسلامية.

وتعرضت لسيرة الشيخ حسن بن عدي، وناقشت حياته وتعلّمه على يد محيي الدين بن عربي في الموصل سنة (٦١١ هـ١٢١٥م) ودراسته لكتابه الخلوة، الذي كتب على نهجه الشيخ حسن كتابه الجلوة لأرباب الخلوة، ثم رحلته للدراسة في دمشق، ثم عودته إلى الموصل، وإظهاره مبادىء الحلول ووحدة الوجود، حتى قال عنه الذهبي (إن كان هذا طريق الجنة فأين طريق النار)؟ لكثرة الشطحات الصوفية في كتابه الجلوة. ولشعره الصوفي الحلولي، كقوله:

كم قلت لما شربت الراح	لمن لام وفرط السكر يلعب بي
وصرت فرداً بلا ثانٍ أقوم به	وأصبح الكون والأكوان تفخر بي
فإن ظهرت فذات الخال ظاهرة	وإن خفيت فإني غير محتجب
وكل معناي معناها وصورتها	كصورتي وهي تدعى ابنتي

علق محمد بن شاكر الكتبي قائلاً: «وله أدب وشعر وتصانيف في التصوف، وله أتباع يبالغون فيه»(٤١) وصار اليزيديّة يؤلهونه قائلين (شهدي من يك الله، ملك شيخ حسن حبيب الله).

وبالعربية معناه (إني أشهد أن الله واحد، وإن الملك شيخ حسن حبيب الله). واختلف الباحثون: هل أُلِّه في حياته أم بعد موته؟

واجمعو على القول: بعد أن قتله حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ في القلعة سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٧) وظل أتباعه يعتقدون أنه حي يعيش في السماء وإنه سيعود إلى الأرض، وعندما كان اليزيديون يسيرون في طريقهم إلى المشانق عام ١٩٣٥ يهتفون (بحياة يزيد الحي)(٤٢) ويقول القوالون وهم يطوفون بالسناجق في القرى (تعيش دولة خليفة صاحب الزمان مدى الدهر).

قصارى القول:

هذا الكتاب دراسة للمذهب اليزيدي في سيرورته التاريخيّة، بينّت فيه أن هذا المذهب لم يخرج عن عباءة الإسلام، وإن اليزيديّة قوم منزهون لله تعالى وفنّدت كل التهم التي ألحقت بهم من خصومهم خارج (الاثنوس)، كما بينّت أن ما أضافه أبناء الطائفة لا يقل خطراً على المذهب عما أضافه الأعداء، لأنهم كتبوا بدوافع مختلفة منها: أن معظمهم كتبوا من أجل منافع ومصالح دنيوية، وجدوا لها سوقاً رائجة في ألمانيا، فهم يسمّون أبناء طائفتهم من الشعوب المهددة بالانقراض، وبموجب هذا الادعاء ينالون حق اللجوء السياسي والمعونات المالية السخيّة التي تقدم لهم، لهذه الأسباب وغيرها غلفّت دراساتهم بهالة ضبابية جعلت تعاليم وفكر المذهب أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة.

أنجزت الكتاب بعون الله تعالى ومنته.

محمد عبد الحميد الحمد

الرقة ٢٠٠١/٢/١٠

مراجع المدخل:

١) Y. Malek. The British Betrayal of The Assyrian, P.P128-129 NewJersey 1935.

٢) A.H. Layard . Nineva and its Remains Vol I P303 London 1849.

٣) اليزيدية وعقائدهم، مجلة المقتطف مجلد٨٨ ص٣٦١ قيصر صادر القاهرة ١٩٣٦.

٤) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص٢٣. د. سامي سعيد الأحمد، جامعة بغداد ١٩٧١م.

٥) اليزيدية بقايا دين قديم ص٩- ١٠ جورج حبيب، دار البترا ط/٢ بيروت ١٩٩٦م

٦) اليزيدية قديماً وحديثاً اسماعيل جول، المطبعة الأمريكية بيروت ١٩٣٤م.

٧) اليزيدية بقايا دين قديم ص٥٤ ـ ٥٥.

٨) Max Horten, Die Philosphie Des Islam. P127. Munchen 1924.

٩) اليزيدية أو عقيدة ابليس، مجلة المقتطف مجلد ٤٩ ممصطفى نوري باشا القاهرة ١٩١٦.

١٠) الشمسية في التاريخ، مجلة لغة العرب مجلد ٩ ص١٦١ بغداد ١٩٣١م.

١١) تاريخ الموصل جـ١ ص٢٩٩ المطران سليمان الصايغ القاهرة ١٩٢٣م.

١٢) الشمسية في التاريخ مجلد ص١٦١.

١٣) مخطوطة البيان في ذكر فرق أهل الأديان الورقة ٤١ آ، مكتبة لينينغراد.

١٤) دراسات في ميثولوجيا الديانة الإيزيدية ص١٠ هوشنك بروكا ألمانيا ١٩٩٥م.

١٥) المصدر السابق ص٣١.

١٦) الازداهيون اليزيديون ص٥٧ درويش حسو، بون، ألمانيا، ١٩٩٢.

١٧) اليزيديون والديانة اليزيدية ص٢١ شاكر فتاح ترجمة دخيل شمو الحكيم بيروت ١٩٩٧م.

١٨) المصدر السابق ص١٠١.

١٩) المصدر السابق ص١٧.

٢٠) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ٢ ص١٢٢.

٢١) اليزيدية حاضرهم وماضيهم ص٩٠ عبد الرزاق الحسني صيدا ١٩٦٨م.

٢٢) اليزيدية ص١٥٨ سعيد الديوه جي بغداد ١٩٧٣م.

٢٣) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ٢ ص٦١.

٢٤) المصدر السابق ج٢ ص٧٠.

٢٥) اليزيديون، (ملحق بآخر الكتاب،) هاشم البنا بغداد ١٩٦٤م.

٢٦) اليزيديون واقعهم وتاريخهم، ومعتقداتهم ص٦٧ ـ ٦٨ د. محمد التونجي المكتبة الثقافية بيروت ١٩٩٩.

٢٧) المصدر السابق ص٧١.

٢٨) اليزيديّة ومنشأ نحلتهم ص٢٣ أحمد تيمور باشا المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٢هـ.

٢٩) المصدر السابق ص٥٧.

٣٠) تاريخ اليزيديّة وأصل عقيدتهم ص٧ عباس العزاوي المكتبة التجارية بغداد ١٩٣٥م.

٣١) دراسات في ميثولوجيا الديانة الايزيدية ص٩ ـ ١٠.

٣٢) المصدر السابق ص٢١.

٣٣) المصدر السابق ص٥١.

٣٤) كتاب الطواسين للحلاج ص٥٧ تحقيق وشرح لويس ماسينيون باريس ١٩١٣م.

٣٥) تاريخ اليزيديّة واصل عقيدتهم ص٣٤.

٣٦) اليزيديّة ص٩٦ صديق الدملوجي الموصل ١٩٤٩م.

٣٧) مجلة لغة العرب مجلد٩ ص٧٤٩ بغداد ١٩٣١.

٣٨) اليزيديّة أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص١١١.

٣٩) النجوم الزاهرة جـ٥ ص٣٦١ ابن تغري بردي طباعة مصر ١٣٥٠هـ.

٤٠) شذرات الذهب جـ٥ ص٢٣٠ ابن العماد الحنبلي، مصر ١٣٤٦ هـ.

٤١) فوات الوفيات جـ١ ص١٢٣ محمد بن شاكر الكتبي مصر ١٢٩٠هـ.

٤٢) اليزيديّة أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص٦٦.

الباب الأول

المانويّة والمسيحيّة والإسلام

الفصل الأول

ماني وتعاليمه والمسيحيّة

- المدخل للبحث
- حياة ماني وأهم أحداث عصره.
- أهم تعاليم وشعائر المانويّة
- الطبقات التراتبيّة للمانويّة.
- انتشار المذهب المانوي في المجتمع البيزنطي.
- ماني والقديس أوغسطين.

المدخل:

الكون والمجتمع كلاهما يجري في صيرورة مستمرة، والإنسان يعي تلك الصيرورة من خلال إطارها التاريخي، كاستجابته لسؤال الجماعة «كيف ينبغي لنا أن نعيش»؟
وتكون إجابتهم على الأغلب من خلال تطور وعيهم المادي والمعرفي، وتصاغ في لغة ملغزة، مسجوعة، تأخذ شكل الأساطير في صلوات وأدعية يرتلها الكهنة، يومياً أو في الأعياد.
نشأت حول البحر الأبيض المتوسط جماعات كل ما لديهم مشترك، كالأخويات الفيثاغوريّة في حران، وبابل والأخوة الاسينّية حول القدس، وكانت لهم طقوس وألبسة تميزّهم عن غيرهم، وكان لباسهم المفضّل الكتان الأبيض.
وقد ارتبط تطور إنسان هذه المنطقة بخاصتين:

الخاصة الأولى «العدوّى الحضاريّة»:

التي مهما حاولت الجماعة أن تحافظ على سريتها، لا يمكنها أن تكون بمنأى عن الحوار المعرفي الهادىء الذي يتم عن طريق التجارة أو حسن الجوار، وإما عن طريق الحوار العنيف الذي يأخذ شكل الغزو الخارجي والحروب، وكلا الحوارين قد عدّلا سلوك الإنسان تجاه الطبيعة والناس، ولكن ذلك الحوار كان مشروطاً بحضور إله الجماعة الذي تتسع قدرته باتساع حدود الجماعة.

الخاصة الثانية: «خاصة توريث السمات الثقافيّة».

كانت الخاصة الأولى تتولى نقل المعارف الإنسانية عبر المكان، وهذه الخاصة تتولى نقل المعارف البشرية عبر الزمان، فالماضي كله يورث في الحاضر، والحاضر كله سينتقل إلى المستقبل، وبذلك يستمر الماضي في الحاضر، مما يجعل للعالم تاريخاً، ويضفي على المعرفة صفة العالمية، قال العالم الامريكي روبرت أوبنهايمر «إن اتساع أطراف العالم، إنما يستمد خصوبته من ثبات المعرفة، وعدم قابليتها للزوال، فإن ما يعرف مرة، يصبح جزءاً من حياة الإنسان، وعلينا أن لا نصم آذاننا عن أمم عريقة بعيدة المكان عنّا»(١).

مما تقدم، أرى أن «ماني» كان حلقة وصل هامة في الفكر البشري، جمع بين أفكار اخناتون [الملك المصري امنحوتب الرابع ١٣٧٢ ـــ ١٣٥٤ق.م] أول من رمز للإله بقرص الشمس المنير، وجعله منزهاً عن العالم، ودعاه إله النور العظيم، ورمز للشر بالظلمة، كما تمثّل أفكار فيثاغورس

كما عرفها أهل حران، وأفكار برديصان الشاعر الآرامي العظيم (١٥٤ـ ٢٢٢م) في بيئة الرُّها، وأفكار الأسينيين التي انتقلت إلى بابل وطيسفون (المدائن) وكان يعلمها (معلم الحق) في المعبد القصبي (المندى) على شواطىء المياه الجارية، دجلة أو الفرات، وكانوا يرفلون في حللهم الكتانية البيضاء مما جعل الآخرين يطلقون عليهم «ذوي الثياب البيض» حلة ـ حوارة، ولكن ماني خلق فكراً متميزاً لم يزل تأثيره سارياً في حضارتنا المعاصرة، كما كان من قبل ظاهرة فريدة في الثقافة السورية، جديرة بالدراسة لما لها من تأثير في الديانتين المسيحيّة والإسلاميّة.

ولعل ما هو جدير بالتنويه ما قاله أبو الريحان البيروني (٩٧٤ هـ ـ١٠٥١م) في فهرسته لكتب محمد بن زكريا بن يحيى الرازي (المتوفى ٩٢٥) «أثبت لك من كتب أبي بكر ما شاهدته أو عثرت على اسمه من خلالها بإرشاده إليه ودلالته (أي على ماني)، ولولا احترامي لك ما فعلته لما فيه من اكتساب البغضاء من مخالفيه وظنهم أني من شيعته وما يمليه إليه هواه وفرط تعصبه.. في باب الديانة بالإهمال والاعراض والاغفال.. حتى يحمله ذلك على الإرشارد إلى كتب ماني وأصحابه كيداً للأديان والإسلام من بينها، وأنا مع براءتي من اتبّاعه، أني طالعت كتابه في العلم الإلهي وهو ينادي فيه بالدلالة على كتب ماني وخاصة كتابه الموسوم بسفر الأسرّار.. وبقيت فيّ تباريح الشوق نيفاً وأربعين سنة، إلى أن قصدني بخوارزم جندي من همدان يحمل كتباً وجدها من جهة فضل بن سهلان، وفيها مصحف قد اشتمل من كتب ماني على (فرقماطيا وسفر الجبارة، وكنز الأحياء ووضح اليقين والتأسيس والانجيل والشابورقان وعدة رسائل لماني وفي جملتها (طلبتي سفر الأسرار فغشيني له من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الشراب)(الآثار الباقية ص٣٩).

من النص السابق نرى مدى تأثير ماني على المثقفين المسلمين في عصر البيروني، إلا أنه في عصور لاحقة خبا تأثيره حتى لا يكاد يذكر في الحضارة الإسلاميةإلا عند اليزيديّة وارتفع شأنه في الحضارة الغربية خصوصاً في اليونان وأوربا الشرقية عند نحله (البوجاميل) وعند الشاعر الألماني العظيم غوتيه، صاحب رواية فاوست التي ضمنها تعاليم ماني على لسان أشهر دعاته في تونس في القرن الخامس الميلادي القس فاوستوس الذي تصدى له القديس أوغسطين.

واليوم نسمع في الأخبار عن عبادة الشمس وعن أولئك الذين ينتحرون جماعات، إنهم لاشك من أتباع ماني وتعاليمه المضلّلة والهدّامة.

حياة ماني وأهم أحداث عصره:

بدأت دولة الفرثيين بالتفكك إلى دويلات صغيرة عندما قام الامبراطور الروماني (كاراكلا) بحملة خاطفة في أعالي الرافدين، ولكن اغتياله المفاجىء في صيف عام ٢١٦ أعاد لأرطبان ملك الفرثيين بعض القوة التي لم تدم طويلاً عندما استطاع أردشير الساساني احتلال طيسفون (المدائن)

وجعلها عاصمة له سنة ٢٣٠، وقام بحصار مدينة (نصيبين) واحتلها ثم تقدم نحو حران واحتلها سنة (٢٣٧ ـ ٢٣٨) ثم مدينة الحضر وبذلك سيطر على طريق الحرير الكبرى، القادم من الصين والهند عبر الهضبة الإيرانيّة.

بدأت المعابد الزرادشتية تنتشر في أعالي الجزيرة والفرات، وانتشرت المدارس التي تعلم (الآفستا) الكتاب المقدس المنسوب لزرادشت (المتوفي ٥٨٣ ق.م)، وقد نصت تعاليم زرادست على:

ـ الايمان بإله الخير (أهورامزدا) وقرينه إله الشر (أهرمن) رمز الظلمة والجهل وعلى المؤمن الزرادشتي أن يعمل الخير ويقاوم الشر داخل نفسه.

ـ والنفس والروح خالدة، وهي تنعم وتشقى وتنعم بلذائذ الحياة بحرية تامة، وفي الموت تنفصل الروح عن الجسد (الجيفة) التي تترك للعقبان لأكلها، ثم تحمل الروح بعد ثلاثة أيام من الموت لتعبر الصراط وهناك تجري محاكمتها أمام ثلاثة قضاة ونتيجة الحكم تحمل الأرواح الخيرة إلى الجنة بينما الأرواح الشريرة تتردى في نار جهنم، وفي البرزخ تمكث الأرواح التي تعادلت موازينها وتلبث هناك حتى يوم القيامة.

وكانت الديانة الزرادشتية، ديانة حياة، فالعمل شرف للإنسان ومن أشرف الأعمال الزراعة والعناية بالماشية، وحرّم عليهم الصوم لأنه يضعف المؤمن عن العمل، وحثهم على الزواج وأمرهم بالعفة وحرّم الزنا، وحثّ على التعليم، ولكن اشترط على المدارس أن لا تكون قرب الأسواق أو الطرق التجارية، وكانت تعاليمهم الدينية مجموعة أمثال وحكم ثابتة من هنا لم تكن للفرس إنجازات هامة في العلم الإلهي أو فلسفة ماوراء الطبيعة.

وفي ذلك الوقت تراجعت الديانة البابلية القديمة (أصحاب الثياب البيضاء)، وكذلك واجهت الديانة المسيحية القهر والاضطهاد، لأن الدين عند الفرس توأم للدولة. واحتل كهنة المجوس (الجهابذة) المنزلة الأولى تليهم طبقة رجال الحرب وكبار ملاّك الأراضي، وفي المنزلة الثالثة يأتي الكتاب والأطباء والمنجمين وتراجمة الملوك، وفي أسفل الطبقات التجار والحرفيين، وهذه الطبقات الأربعة ثابتة لا يسمح باختراقها إلا بإذن ملكي، ولهم ألبسة يتميزون بها، فللكتاب ألبسة خاصة وكذلك التجار والكهنة.

في هذه الحقبة وضمن تلك المعطيات الثقافية ولد (ماني بن فتق) سنة (٢١٥) وكان والده (فتق بن برزام) من عائلة إشكانية عريقة من مدينة همدان عاصمة إقليم ميديا، وكانت أمه السيدة مريم تنتمي إلى أسرة (جمركانية) من الإمارة الأشكانية التي كانت تحكم البلاد من قبل.

كان والد ماني رجلاً كاهناً صابئياً في (بوته ـ خانة) في مدينة طيسفون منذ عام ٢٠٥ وكان رجلاً صالحاً من المبيضة، وفي أحد الأيام سمع هاتفاً سماوياً يناديه «يا فتق.. لا تأكل لحماً، ولا تشرب خمراً، ولا تنكح بشراً».

كان ماني جنيناً في بطن أمه، تكرر الهاتف ثلاث مرات متتالية، ورأت أم ماني بعد ولادته وهي في حالة اليقظة، كأن أحداً يأخذ ولدها ماني، ويصعد به في الجو، وربما أقام اليوم أو اليومين، ثم يرده إلى حضن أمه»(٢).

هذه الرواية جاءتنا عن مصدر عربي، وهناك رواية سريانية تقول «إن ماني ولد في قرية تدعى (مردنيوس) على نهر كوثى الأعلى من بلاد بابل وقد أكدها ماني في ميمر له «إنني أنا الرسول الشكور، المبعوث من أرض بابل»(٣).

عاش ماني في طفولته بين أصحاب الثياب البيضاء، في بستان للنخيل، كما يتعايش جميع الأخوة، لم يكن ابناً لأحد بل ابن جماعته، وكان يستمع إلى تعاليم معلم الحق (ستابي) «ألم تأت إلى هذا المكان المبارك للتخلص من أدران الدنيا؟ بيد أن جميع جهودنا تضيع سُدى إذا استسلم واحد منّا فقط إلى الغواية الخبيثة، وإذا تمكنت أدران الدنيا من السيطرة على جسده وروحه لأننا نصاب جميعاً بالدنس»(٤).

قال ثيودور برقونية، إن والد ماني حمله إلى نواحي دست ميسان حيث يعيش الصابئة المعروفون بالمغتسلة (حلي ـ حواري) أو ذوي الحلل البيضاء ورباه على ملته». وكان ماني من أصل آرامي يتكلم الأرامية ولأن والديه كانوا ينتمون إلى البلاط الفرثي فهو يعرف اللغة اليونانية لغة الثقافة الفلسفية ولغة الانجيل المقدس، وكان له اتصال ببعض العائلات اليونانية والمسيحية، جاء في إحدى الروايات «إن ماني كان منذ صغره يتكلم بكلام الحكمة، ففي سنة ٢٢٧ أتاه الوحي الأول من ملك جنان النور (أي رب الأرباب) حمله إليه القرين أو التوأم [روح القدس] قائلاً له «اعتزل هذه الملة، ملة أبيك، فلست منهم، وعليك بالعفة، وترك الشهوات، ولم يئن لك الظهور بعد» لأن عمره كان اثنتا عشر سنة.

أما عن الوحي الأول، قال ماني «عندما كان أردشير على وشك التتويج نزل الفارقليط الحي وكلمني وأباح لي السر المحجوب، وعلمني ما كان وما سيكون.

وأما عن الوحي الثاني، قال ماني «وفي سنة ٢٥٤ جاءني الأمر النوراني وقال عليك السلام يا ماني مني ومن الرب الذي أرسلني إليك واختارك لرسالته، يأمرك أن تبشر، ببشرى الحق من قبله وتحتمل في ذلك جهدك».

على أثر مقتل الامبراطور غارديان الثالث (سنة ٢٤٤) على جبهة الفرات قرب دورا أوروبوس عقد الامبراطور شابور (٢٤١ ـ ٢٧٢) معاهدة صلح سنة (٢٥٤) مع الامبراطوريّة الرومانيّة جعلت الحدود الفارسيّة بين مدينتي (نصيبين) في الشمال ومدينة دورا أوروبوس في الجنوب، وجاءه **الوحي الثالث** «ها قد أزفت الساعة لكي تتجلّى لعيون العالم، وتترك بستان النخيل هذا»(٥)، خرج ماني إلى دورا أوروبوس ومارس الرسم هناك وترك لبس الثياب البيض، ولبس سراويل فضفاضة بساقين مصبوغتين بالأصفر المحاكي لون الصدأ والأخضر المحاكي لون الكراث، لكي لا

يثير حفيظة المجوس خصوصاً الموبذان كرتير. قال ابن النديم «ظهر ماني في السنة الثانية من ملك الغالوس الرومي (غاليوس) الذي حكم من سنة ٢٥٣ ـ ٢٦٨»(٦).

ثم خرج ماني إلى مدينة نصيبين والرُّها، ويرى بعض الباحثين أن الدياطسرون وهو ملخص الأناجيل الأربعة قد نسخه ماني أثناء إقامته في الرُّها، وقد وجدت منه ورقة تشتمل على أربعة عشر سطراً مكتوبة بخط جميل يعتقد أنها من كتابة ماني، أيدت ذلك الوثائق القبطية التي اكتشفت في مصر والتي دلت على أن الانجيل الذي اقتبس منه ماني وأتباعه هو الدياطسرون، وكانت اللغة المستعملة هي الآراميّة وباللهجة الرّهاويّة، وإن الانجيل المنسوب إلى ماني باسم الانجيل العظيم أو الانجيل الحي هو صورة مماثلة للدياطسرون في لغته وعدد أسفاره»(٧).

ثقافة ماني العرفانية:

أول مفكر عظيم ظهر على أرض الجليل هو يسوع المسيح كلمة الله المتجسد بن مريم العذراء، الذي دعا إلى سبيل ربه وإلى هدم التصورات الوثنية القديمة، وهو أول شهيد للإيمان أعلى من قيمة الإنسان عندما ضحى بنفسه من أجل تخليص بني البشر من براثن الخطيئة الأولى ونسب نفسه إلى عالم النور، قائلاً «استفيدوا من النور مادام النور معكم» وجعل الإيمان به هو الطريق للتحرر من الخطيئة واتبع ماني خطى المسيح، قال محمد بن زكريا الرازي «وما ادعاه ماني في أن الكلمة انفصلت من الأب ومزقت الشياطين ثم قُتلت» والصواب أنه لم يقل بصلب المسيح(٨).

لأن ماني تعرف على الفكر المسيحي من خلال الهرطقات التي كانت سائدة في مدينة الرُّها وما حولها، أخذ بقول مرقيون البنطسي (٨٣ ـ ١٥٥) الذي قال بوجود إلهين أحدهما أعظم من الآخر، وإن الله لم يكن خالق هذا العالم بل قوة معينة متميزة عنه، ونادى بوجوب محاربة الجسد وإذلاله وتقوية الروح بالإيمان والمعرفة، ونادى بالعزوبيّة ونهى عن أكل لحوم الحيوانات وأنكر خلاص الإنسان بالفداء الربّاني، ووضع (كتاب المتناقضات) بيّن فيه الصراع بين الخير والشر في هذه الحياة(٩)، وهكذا مهّد مرقيون لبدعة برديصان الفيلسوف الرهاوي (١٥٤ ـ ٢٢٢) الذي دعا للإيمان باله واحد خلق العالم والإنسان المعادل للملائكة في الحرية، والإنسان مكوّن من عقل ونفس وجسد والعقل فيه جانب إلهي خالد والجسد يتأثر بتدبير الكواكب في الحياة، ويتطهر (بالتناسخ) لترتفع روحه إلى عالم النور.

لقد مزج ماني في تعاليمه بين المرقونيّة والديصانيّة، قال علي بن الحسين المسعودي (المتوفى ٩٥٧) «ذكر ماني في كثير من كتبه المرقونيّة والديصانيّة بل إنه أفرد لمرقيون باباً في كتابه المترجم بكنز الأحياء، وللديصانيّة باباً في كتابه سفر الأسرار»(١٠) وما ذهبوا إليه جميعاً في الفاعلين: وإن أحدهما خيرٌ محمود مرغوب، والآخر شرير مذموم مرهوب منه»(١١).

بقي برديصان جزءاً من الديانة المسيحيّة بينما لم يكن ماني كذلك، ولأبي الريحان البيروني حكم مشابه لما قلته قال «زعم ابن ديصان أن نور الله قد حلّ قلبه، ولكن الخلاف لم يبلغ بحيث يخرجه وأصحابه من جملة النصارى»(١٢).

صار ماني في آخر أيامه يوقع رسائله باسم «رسول يسوع المسيح» مع ذلك اعتبره المسيحيون مهرطقاً بينما اعتبره النصارى رسولاً لأن النصرانية تختلف عن المسيحية وسأبين ذلك فيما بعد.

سياحة ماني في الهند والتيبت:

بعد عودة ماني من أرض الجزيرة واطلاعه على الفكرين المسيحي والعرفاني (الغنوستي) تحول نحو الشرق أما لأسباب سياسيّة نجهلها كما ذكر البيروني قال «سمعت الأجهبذ مرزبان بن رستم يحكي «أن سابور اخرجه عن مملكته، أخذاً بما سنّه زرادشت من نفي المتنبئين عن البلاد وشرط عيه أن لا يرجع، فغاب في الهند والصين والتيبت ودعا هناك ولما رجع أخذه الملك بهرام وقتله لأنه نقض الشريعة فأباح دمه»(١٣).

ولكن جاء في إحدى البرديات القبطيّة تجعل الرحلة قبل ذلك التاريخ تقول «إن ماني بدأ التبشير في السني الأخيرة من حكم أردشير، قال فيه «أبحرت إلى الهند وبشّرت بينهم بأمل الحياة، واخترت هناك نخبة جيدة، وعدت إلى بلاد فارس ومنها إلى بلاد بابل»(١٤).

تأثر ماني بالفكر البوذي، وهذا واضح جلي في تحريمه للقتل وذبح الحيوان وأكله والصدق في القول والمعاملة وحب المعرفة والسياحة المستمرة وعدم التعلق بالشهوات والمال.

علاقة ماني بالبلاط الفارسي:

عندما تولى شابور الأول الحكم (٢٤٢ ــ ٢٧٣)، قدّم حاكم دست ميسان (مهرشاه) [أخو الامبراطور] ماني إلى شابور، **وكان اللقاء الأول** في يوم الأحد الأول من نيسان عام (٢٥٤) عندما كانت الشمس في برج الحمل، وكان معه أبوه فتق (باتيغ) واثنان من تلامذته (شمعون وزكّا) وقدّم للملك كتابه الشابورقان، وقد كتبه بلغة فارسية رائعة وبخط جميل، نال إعجاب الملك فسمح له بالتبشير بدعوته وأدخله في جملة أعوانه قال المؤرخ المصري الاسكندر من بلدة ليكوبوليس في ردّه على المانويّة «إن ماني عاش في أيام الامبراطور فاليريان (٢٥٣ ـ ٢٦٠) ورافق الامبراطور الفارسي شابور في حملته وقاتل إلى جانبه سنة (٢٦٠) وعندما أُسر الامبراطور الروماني، ظن الامبراطور الفارسي (شابور الأول) أن هذا النصر كان بتأييد من إله النور، وصار الامبراطور يجله ويوصي به، مما أثار خصومة الموبذان كرتير شارح كتاب الآفستا، وأظهر عداءه الواضح ضد ماني وأتباعه.

اللقاء الثاني: قابل ماني الامبراطور الفارسي شابور سنة (٢٥٥) واستأذنه للدخول في أرض الجزيرة الرومانية وعاش في الرّها ونصيبين وحرّان والموصل (باعربايا) وقابل الكهنة الحرانيّة

وتحاور معهم واطلع على كتبهم السريّة ودبّج بعض الرسائل وأطلق على نفسه فيها (مارآمو) أي المعلم، وأسس ديراً في حران وعين له صدِّيقين.

اللقاء الثالث، قابل الملك شابور في سنة ٢٥٦ واستأذنه للذهاب إلى مدينة دورا أوروبوس على الفرات وفيها رسمت له صورة مؤرخة بهذه السنة ويقتعد إنها من رسم ماني نفسه، تصوره شاب ظريف يقف بين ثلاثة من أتباعه مرتدياً سروالاً عريضاً واسعاً يميل لونه الأصفر إلى الاخضرار، وعباءة زرقاء سماوية، وبيده عصا طويلة من الأبنوس ويحمل تحت إبطه الأيسر كتاباً عليه حروف أرامية وجدت هاتين الصورتين على افريز هيكل ميثرا في دورا أوروبوس (صالحية الميادين).

انتقل ماني من أرض سورية إلى افغانستان (كابول وقندهار وباميان) ولكن جاءت الأخبار سنة (٢٧٤) بوفاة هرمز الأول وتولى أخوه بهرام بن شابور (٢٧٤ ـ ٢٧٧) وكان يخضع لرأي الموبذان كرتير عدو ماني اللدود.

أرسل إليه الشاه الجديد خبراً يعترض علىتجواله ويطلبه للعودة إلى طيسفون، توقع ماني المصائب فحذَّر أتباعه «انظروا إلي، واملأو عيونكم مني يا أولادي فعمّا قريب سيرحل جسدي عنكم».

قابل ماني الملك في بلدة جنديسابور، وجاء في إحدى البرديات القبطية «إن كهنة المجوس رفعوا شكوى بتدبير (كرتير الموبذ)، فلما سمع الملك بعث خلف ماني، وقال له: بشّرت يا ماني بمبادىء تعارض شريعتنا..!

وفي وثيقة أخرى جاء فيها «أتى ماني لمقابلة الملك بهرام وأخبرنا قائلاً: بعد أن دعاني الملك أنا ونوح زادوك (المترجم) وكوشتاني (الكاتب) وابزاخيا الفارسي، وكان الملك جالساً على مائدته، ولم يغسل يديه بعد، دخل عليه رجاله وقالوا له، ماني واقف في الباب، فقال لماني: تريث حتى أستطيع القدوم إليك، جاء الملك ووضع يده على كتف (سكان) زوجة حاكم المقاطعة، واليد الأخرى علي كتف كرتير بن أرطبان وكانت أولى كلماته «لا مرحباً بك». فردّ عليه ماني: لِمَ، هل اقترفت إثماً؟ فقال الملك: عجباً ما الحاجة إليك، فأنت لا تشارك في الحرب، (لأن ماني كان أعرجاً ويحرم القتال) ولا في مطاردة الصيد (كان ماني يحرم قتل الحيوان) وحتى لا تحسن تركيب العقاقير أو في الطب.

قال ماني: لم اقترف بحقك أي ذنب، لقد قدمت لك ولأسرتك كثيراً من الفوائد، وحررت عدداً من عبيدك من الأرواح الشريرة، ولكم خلّصت أناساً من الحمى وأعدتهم من جديد للحياة، ثم ختم قوله: افعل بي ما تراه! يذكر البيروني نقلاً عن جبرائيل بن نوح النصراني، قال: إنه قرأ في كتاب لأحد تلامذة ماني يخبر فيه، أنه حبس بسبب أن قريباً للملك، زعم أن به شيطاناً،

ووعد ماني بشفائه فلم يقدر عليه، فقبض الملك على ماني وحبسه، ثم نصب رأسه بباب السرادق، وطرحت جثته في المدرجة تنكيلاً وتمثيلاً به»(١٥).

سجن ماني في أول شباط عام ٢٧٦ وفي الرابع عشر من شباط خارت قواه من التعب وطول الصيام فمات وصعدت روحه في الساعة الحادية عشرة، قبل الغروب بساعة، وحضر موته راهب مانوي اسمه (عزاي) واثنان من الصدّيقين، وعندما سمع الملك بموته أمر بغرز مشغل عظيم في جسد ماني، ثم مزقت جثته وعلق رأسه فوق باب (بيت لابات) ثم أخذت بقاياه ودفنت في طيسفون»(١٦).

وفي رواية عربية أخرى، أن جسده حشي تبناً وعلق عل باب جنديسابور، وهذا يدل على مقدار حقد الملك الفارسي وطبقة الكهان عليه، لأنه كان يبشر بعقيدة تعارض شريعتهم، وكانت الزرادشتية ديانة تفاؤل بينما المانويّة تدعو إلى مقاومة الظلم والقهر وتدعو إلى الزهد وقمع الشهوات وترك أكل اللحم وشرب الخمر والتمتع بالنساء والدعوة إلى الصيام فهي على النقيض مما تدعو له الزرادشتية شريعة الدولة والتي تبرر ما هو حاصل من ظلم وبؤس اجتماعي.

أهم تعالم وشعائر المانويّة:

المانويّة ديانة ذات طابع أممي. ديانة مفتوحة معابدها لكل أبناء البشر، وقد شرطوا لتقبل دعوتهم قدرة المرء على قمع شهوته وحرصه على ترك أكل اللحم وشرب الخمر وترك الكذب والسحر وايذاء الناس والحيوان. وسموّا تلك الوصايا بالفرائض العشر وهي خليط من الديانتين المسيحية والبوذية. ولسهولة تعاليمهم صارت مقبولة عند كل أبناء الشعوب.

أهم شعائرهم:

الصلاة: هي الدعاء الكامل لإله النور ولا تكون الدعوة إلا في الخير، وبعد مسح الرجل وجهه وأطرافه بالماء الجاري يستقبل النير الأعظم أي الشمس، ويسجد قائلاً في سجوده الأول مبارك هادينا الفارقليط رسول النور ومباركة ملائكته الحفظة، ومسبّح جنوده النيرون، وتتكرر السجدات حتى الثانية عشرة، ولهم أربع صلوات، الصلاة الأولى عند الشروق، والثانية صلاة العصر والثالثة صلاة المغرب (صلاة العتمة) والصلاة الرابعة بعد المغرب بثلاث ساعات تدعى (صلاة البشير).

الصوم: هو الإمساك عن الطعام والشراب من مطلع الفجر حتى غروب الشمس لهم صوم عند المنقلب الشمسي (١٥ و١٦) حزيران، وعند المنقلب الشتوي عند بلوغ القمر تمامه يصام يومين لا إفطار بينهما، وعند المنقلب الربيعي إذا صار القمر في الجدي يصام يومين، وإذا نزلت الشمس في

الدلو ومضى من الشهر ثمانية أيام يصام حينئذ ثلاثون يوماً، ويفطر كل يوم عند غروب الشمس منذ بداية الشهر، ويصوم المنانية كل يوم أحد، أما يوم الاثنين فهو معظم عند خواصهم (الصدِّيقين). وصومهم يتم بالصدقة، صدقة الفطر.

الزكاة: هي المال الذي يراد به الطهر، أو هي كل مال يدفع لنفقة الصدِّيقين، وعلى كل مناني أن يدفع عشر ماله سنوياً إلى كهنتهم بالإضافة إلى الصدقات المستمرة التي تدفع عنهم وعن أطفالهم غوائل الشياطين.

الجهاد: هو الدعوة الدائمة لدين الحق، وهذا هو عمل الصدِّيقين الدائم دون انقطاع أمّا الجهاد المقدس (القتال) فهو محرّم عند المنانية.

الحج: هو الزيارة والقصد على جهة التعظيم، وحجهم كان نحو قبر ماني في طيسفون، (المدائن) وهي مدينة مباركة بسبب ضريح ماني رسول النور، ومن الغريب أن المدائن اليوم تدعى (سلمان باك) أي مدينة سلمان المباركة، وكان سلمان الفارسي من أتباع ماني قبل إسلامه.

تعاليمهم عن الروح والموت والمعاد:

قال أبو الريحان البيروني «ذكر ماني في انجيله الذي وضعه على حروف الأبجدية الآرامية «الانجيل الحي»: قال إنه الفارقليط الذي بشّر به المسيح، وإنه خاتم النبيين وأخبر عن كون العالم وهيئته بما يضاد، ونتائج البراهين والدلالات الحسابية ودعا إلى عوالم ملك النور والإنسان القديم، وروح الحياة، وقال بقدم النور والظلمة»(١٧). وهذه رموز لها تفاسير مشخصّة عندهم.

والنفس في تعاليم ماني خالدة، وهي صادرة عن عالم النور، وعند اتصالها بالجسد، تنتابها الشرور، قال القديس أوغسطين ـ عندما كان من أتباعهم ـ «وقد اعتقدت، أن للشر طبيعة مماثلة لعلتها (الجسد) المقوت الذي يكون، إما كثيفاً كالتراب أو رقيقاً كالجرم الهوائي، فيتخيلها المنانية روحاً شريرة تزحف على هذه الأرض»(١٨) وأن النفوس الآثمة لا تشتاق لعالم النور، وعلى عكسها الأرواح اللطيفة التي تعرف خالقها وتدرك المعقولات وهي غاية في الصفاء.

موت الرجل الصدِّيق:

حين وفاته يرسل إليه الإنسان القديم ملاكاً نيراً، بصورة حكيم هادٍ، ومعه ثلاثة ملائكة يحملون معهم الركوة (العصا) واللباس الأبيض والعصابة وإكليل النور، وتأتي معهم الفتاة البكر الشبيهة بنسمة الرجل الصديق (اي روحه) وتظهر له شياطين الحرص والشهوة» فإذا رآهم استغاث بالملاك الهادي الحكيم، فيتقرب إليه وتهرب منه الشياطين، وتلبِّسه الملائكة التاج واللباس الذي حملوه معهم ويعرجون به في عمود السيح (النور) إلى ما فوق فلك القمر إلى

جنان النور، ويبقى الجسد ليتحلل، فتجتذب منه الشمس والقمر والآلهة النيرة الأُخرى القوى الكامنة فيه (الماء والنار والنسيم) ويقذف باقي جسده إلى الظلمة التي هي جهنم، لهذا تكون حياة الصدِّيقين في الحياة الدنيا الإعلاء من الحياة الآخرة بتعلمهم المستمر للعلوم الإلهية، وبتجردهم من الحرص والشهوة والتنقل المستمر أو السياحة في طلب المعرفة، والابتهاج الدائم للقاء ربهم.

والرجل الصدِّيق الصدوق يتمنى دائماً لقاء ربه، ومقولة ماني الدائمة ووصيته لأتباعه «فتمنوا الموت إن كنتم صادقين»، وهذه آية وردت في القرآن الكريم.

وفي الآخرة، يوم المعاد، يأتي الإنسان القديم من عالم الجدي، وينصب البنيان العظيم ويقوم الصدّيقون مجتمعين حول الجحيم ينظرون إلى أقرانهم الآثمين وهم يتضورون، ويسألونهم العون فيردون عليهم بالتوبيخ فهذه صورتهم أبد الآبدين.

موت الرجل القابل للصلاح:

الحفّاظ للدين والمساعدون للصدِّيقين، إذا حضرت أحدهم الوفاة، استغاث بالملاك الهادي الحكيم، فيخلصه من الشياطين، ولكن روحه، تظل تتطهر بعرضها على النار، وبعد التطهير تتخلص من الكدر، ثم تأتي الملائكة بعد حين من الدهر، لتلبسه التاج واللباس الأبيض ثم يلحق بعالم النور.

ذكر البيروني أنه قرأ في سفر الأسرار لماني، أن الحواريين لما علموا أن النفوس لا تموت وإنها في الترديد منقلبة إلى شبه كل صورة هي لابسة لها، ودابة جبلت فيها، ومثالب كل أفرغت في جوفها، سألوا المسيح عن عاقبة النفوس التي لم تقبل الحق، ولم تعرف أصل كونها. فقال لهم، أي نفس ضعيفة لم تقبل تراثها من الحق فهي هالكة لا راحة لها وعني بهلاكها عذابها لا تلاشيها»(١٩). لأن المنانية تشابه النصارى من أهل الكتاب، إلا أن ماني عندما نفي من إيران ودخل الهند ونقل التناسخ منهم إلى أهل نحلته»(٢٠) نفته المسيحية.

موت الرجل الأثيم:

هو الرجل الذي لا يشتاق إلى لقاء ربه، وهو الرجل المستعلي عليه الحرص والشهوة، حين وفاته تحضر الشياطين، فيأخذونه ويعذبونه، والملائكة واقفون عن كثب حاملين اللباس، فيظن ذلك الأثيم أنهم جاءوا لخلاصه، والحق أنهم جاءوا لتوبيخه وتذكيره بأفعاله في الدنيا وإلزامه الحجة في ترك أمور الدين وإعانة الصدِّيقين، تعاد روح الرجل الآثم وتلبس جسداً آخر لتتعذب، وتظل تتردد في العذاب إلى أن تتطهر ثم تدحى في جهنم.

الجنة والنار:

ليس في الجنة، بلد النعيم الدائم، ذكر ولا أنثى ولا أعضاء سفاد، وكلهم حاملون للأجساد الحية والأبدان، لا يختلفون بضعف ولا قوة، ومنظرهم كالسرج المتشابهة ومواد أغذيتهم واحدة.

أما جهنم عالم الظلمة، صورت أبناءها بصورة الظاعنين إلى الحرب، فأقامت كل جنس بإزاء جيفته، قال ذلك ماني في كنز الأحياء»(٢١).

الطبقات التراتبيّة للمنانية:

للمنانية أربع طبقات كانت في البداية حسب نشاطهم الديني، ثم أصبحت هذه الطبقات ثابتة، لا يجوز التزاوج إلا فيما بين أبناء كل طبقة لوحدهم وأحياناً يجوز لبعض أبناء الطبقة العليا الزواج من الطبقة الدنيا.

١) طبقة المعلمين (أبناء الحلم):

كانوا يتعاطون التنجيم، ذكر القديس أوغسطين عندما كان يميل إليهم أن احدهم طلب منه مبلغاً من المال، ثمن فوزه على أقرانه في مباراة شعرية، وكان ذلك المنجم يزعم أنه يقدر أن يستنزل رضى الأبالسة لقاء حيوان صغير (فرخ حمام) يقربه إليهم»(٢٢) كان لباسهم الأبيض، ويتمنطقون بحزام من الصوف الأسود مع حلقات مميزة، ومن مهامهم تفسير المنامات ورؤية الإنسان بعد الموت.

٢) طبقة المستمعين: (أبناء العلم).

ذكر القديس أوغسطين أحدهم وهو معلم خطيب يُدعى (هباريوس) درس الفصاحة وصار يخطب باللاتينية كاللاتينيين علماً بأنه سرياني الأصل وكانت معارفه الفلسفية قيِّمة.

فرض ماني عليهم رسوماً وتركهم يأخذون بأسباب الدنيا، شريطة التصدّق بعشر الكسب وصوم سبع العمر، والاقتصار على امرأة واحدة، ومواساة الصديقين وإزاحة عللهم، وينشدون القصائد في الاجتماعات الدينية، ويرتدون ثياب بيضاء وعمة سوداء.

٣) طبقة القسيسين (أبناء العقل):

كان منهم (فاوست) أسقف قرطاجنة، وقد وصفه لقديس أوغسطين بقوله «كان أحبولة شيطانية، استمال ليه الكثيرين بفصاحته، ومع أني أعجبت ببيانه، فقد عرفت، فيما بعد، أن أميِّز بين ما يذكره والحقائق التي أتوق إليها ووجهت جلّ اهتمامي إلى الغذاء العلمي الذي يقدمه لعقلي بعد أن ذاع صيته وعلمت أنه متعمق بجموع العلوم الشريفة والمعارف الحرة»(٢٣) كانوا يلبسون عباءة سوداء قصيرة من الصوف وأطرافها، ذات تطريز أحمر اللون، ويضعون على رؤوسهم قبعة وفوقها عمامة، ويضع في رقبته حبل مجدول.

٤) طبقة الصدِّيقين (أبناء الغيب).

قال عنهم البيروني «هم أبرار المانويّة وزهادهم، آثروا على أنفسهم المسكنّة وقمع الحرص والشهوات، ورفض الدنيا، ومواصلة الصوم، والتصدق بما أمكن وتحريم أي شيء خلاف قوت يوم، ولباس سنة، وترك النساء، وإدامة التطواف في الدنيا للدعوة والإرشاد»، ورداء الصديق من الصوف الأبيض، يربط فوقه حزاماً مفتولاً أسود طوله تسعة أذرع، ينتهي بعدد من الحلقات المقدسة، ويضع على رأسه عمة أو غطاء أسود.

انتشار المانويّة:

المانويّة ديانة ذات طابع تلفيقي، استفادت من كل الديانات المعاصرة لها (كالديانة المسيحيّة والبوذيّة والحرانيّة والديصانيّة) ومن معطيات الفلسفة والعلوم اليونانيّة، مما جعلها تبدو حركة فكرية ذات اتجاه تقدمي في زمنها، وهي فلسفة إنسانية لأنها حاولت الإجابة على تساؤلات كثيرة منها:

هل حياتنا مجرى غرور وباطل الأباطيل؟

هل يمكننا الكشف عن طريق سليم وواضح لمسالك عالم النور؟

على أي شيء يدل ماضينا؟ ومن أين جئنا وإلى أين نذهب؟

كانت تحاول الإجابة عن تلك التساؤلات دون أن تفرض على أتبعها رأي خاص بها مسبق، وجعلت عجز الإنسان وجهله طريقاً للحقيقة التي ستحرر الإنسان.

قال القديس أوغسطين في اعترافاته بعد أو وصف معظم معلمي الأكاديمية في روما باتباع المذهب المانوي «وكانوا يقولون، إن الشك بكل شيء واجب والإنسان عاجز عن فهم كل الحقيقة، فبدا لي حينذاك أن تعليمهم الصحيح هو ما كان يعزوه الناس إليهم، لأني كنت أجهل في ذلك الوقت نياتهم الأساسية، وحاولت أن أزعزع ثقتي بالخرافات التي امتلأت بها كتب المانويّة»(٢٤).

لِمَ كان تأثير ماني ضعيفاً في المجتمع الفارسي؟

يخيل إلي أن المجتمع الفارسي، كان مجتمعاً غنياً فيه من الترف والملّذات والغنى، ما يجعل السلطة والطبقات المتنفذة تحرص على تعاليم الزرادشتية دين الحياة التي تحض على السعي والعمل، واغتنام صفو الليالي، كل ذلك مع المحافظة على ثبات الجتمع في طبقاته الأربعة. على عكس المانويّة التي انتشرت بين الطبقات الفقيرة والغريبة عن العنصر الفارسي، إنها انتشرت بين الآراميين واليونان وعرب الحيرة، جذبتهم لطابع الزهد فيها وحضّها على الصدق وترك الحرص على الشهوات والمال وعلى الصوم الدائم، والتعاون بين الأفراد.

لهذه الأسباب وبالإضافة إلى عداء كهنة الزرادشتيّة للمانويّة البدعة الجديدة قال الملك بهرام لماني «بشرت بمبادىء تعارض شريعتنا» وحرّم على أهل مملكته الجدل بالدين وذكر تعاليم ماني، مما جعل المذهب المانوي يصبح ذا طابع سري في إيران.

المذهب المانوي والمسيحيّة:

كانت المانويّة تبدو مذهباً من مذاهب المسيحيّة، فماني ينعت نفسه رسول يسوع وقد صدقه كثير من المسيحيين في الرُّها وأنطاكية ورأس العين، ولأنه كان يستخدم تعاليم برديصان صار مقبولاً في حران ومنبج (هيرابوليس) وانتشرت تعاليمه في معظم مدن الساحل السوري، وأصبحت منذ مطلع القرن الرابع الميلادي خطراً يهدد الديانة المسيحيّة قال القديس مارأفرام السرياني (المتوفي ٣٦٣) «لأن ماني كان عاجزاً عن أن يجد مخرجاً آخر، دخل ولو من غير رضى، من الأبواب التي كان برديصان قد فتحها»(٢٥).

إن معظم المؤرخين القدماء كانوا معادين للمانويّة، وإن معظم كتابات ماني قد أبيدت أو أحرقت عن قصد حرقها معلموا الكنيسة، قال المؤرخ المصري الاسكندر الليقوبولسي (عاش حوالي ٣٠٠): إن المانوي الاول الذي وصل إلى عندنا [إلى ليقوبوليس في صعيد مصر] اسمه بابوس جاء سنة ٢٦١ وعاش بيننا ثم جاء بعده توماس ثم لحقه آخرون فيما بعد»(٢٦).

معنى هذا أن الدعوة تمت أيام ماني وبإشرافه، ويدل على صدق ما ذكره الاسكندر الليقوبولسي، أنه في عام (٢٩٧) أصدر الامبراطور دقليانوس أمراً موجهاً إلى جوليان حاكم أفريقيا (تونس) إن الإمبراطور أصبح مدركاً، أن المانويّة قد اقتحموا في الآونة الأخيرة الأراضي الرومانيّة كالجرب الشديد المفاجىء، جاءوا من بين الفرس الأعداء، واقترفوا العديد من الجرائم، فمن الممكن أن يلوثوا الناس ذوي الطبائع الساذجة، ويزودونهم بالسم المهلك مما يقتضي اتخاذ اجراءات ضدهم:

- وجوب إحراق الرسائل مع مؤلفيها وزعماء الفتنة معهم.
- أن يجري قتل أتباعهم ومصادرة ممتلكاتهم.
- أما ذوي المناصب العالية الذين استسلموا للعقيدة الفارسيّة، فقد يحكم عليهم بالعمل الاجباري في المناجم وأن تصادر ممتلكاتهم»(٢٧).

وفي سنة ٣٧٥ ذكر ماركوس دياكونوس أنه جاءت امرأة من أنطاكية اسمها (جوليا) إلى غزّة وكانت تنتمي إلى هرطقة ماني البغيضة، وعملت بسريّة وأفسدت بتعاليمها، بشر من قليلي الإيمان على نطاق واسع، وربما أنها قدمت هذه البدعة الملحدة القائمة على حكايات النساء العجائز الخالية من العقل والمنطق السليم، وكانوا يرضون الأغريق بقولهم بوجود العديد من الآلهة، ويقبلون في الوقت نفسه صور البروج وقرارات القضاء المبرم الصادرة بتدبير الكواكب، وهم يعترفون

بالمسيح ويتسمون بأسماء مسيحية، وكانوا يرتلون: نتوسل إليك يا يسوع المتألق أيها الدهر الجديد، يا رسول السلام ويا عون الضعيف، ويا مخلص المقهورين ويا قاهر المعتدين، ويا موقظ النائم ومنهض الوسنان، وأنت يا من يحيي الموتى»(٢٨).

انتشرت البدعة المانويّة على نطاق واسع في الرُّها مما دفع بعلماء الكنيسة والدولة معاً إلى مقاومتها، ذكر فيلوكسينوس المنبجي (المتوفي ٥٢٣) أن الراهب اسطفان بن صدِّيلة كتب عدة رسائل علمّ فيها تعاليم حمقاء (المانويّة)، ادعى فيها، أن جميع المخلوقات باستطاعتها أن تصبح بالرياضة الروحية وبالعلم الإلهي كالآلهة، وأن الجزاء حصة كل إنسان، وأن الشياطين مساوية لنا في الجوهر الإلهي (الروح) وأن هذا سيكون معلوماً في سر اليوم الأول من الإسبوع (يوم الأحد) عندما يكون الله الكل في الكل طبيعة واحدة وجوهراً واحداً وإلهاً واحداً، وحذر فيلوكسنوس بأن تقع هذه الكتب بيد النساء الراهبات الساكنات في نطاق الكنيسة لئلا يزِّيفوا ببساطة وضعف طبيعة المرأة»(٢٩) وكتب مقالاً ميّز فيه بين بدع ماني ومرقيون وديودورس ونسطور(٣٠).

وبعد أن أصبحت النحلة المانويّة خطراً على الكنيسة والدولة معاً، أصدر الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٤) أمراً بأن يعتنق جميع الوثنيين المسيحيّة تحت طائلة العقاب ومصادرة أملاكهم، وحوكم عدد من الرجال والنساء في القسطنطينية، ومن ضمنهم أطباء ومتصوفون وأساتذة علم وفلسفة بتهمة أنهم يمارسون (الطقوس المانويّة) ثم نفذ فيهم حكم الاعدام وصودرت أملاكهم»(٣١). وهذا الامبراطور يذكرنا بما فعله الخليفة المنصور وابنه المهدي بالزنادقة في الدولة العربية الإسلامية.

لقد وصف يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨) «هؤلاء الذين لا إله لهم، (يقصد المانوية) وهم أشرار وأولاد الشرير، كما أن آباءهم المرقيانيين وأجدادهم الأوائل، دعوا عنصر التراب (الهيولى) إلهاً أزلياً شريراً، وقال مثلهم فالنتين «إنه في حرب مستمرة مع الشمس الإله النور، الصالح، واهب الحرارة»(٣٢). قد هاجروا إلى الجزيرة العربية منذ بداية القرن الرابع الميلادي.

القديس أوغسطين والمانويّة:

من أبرز كتاب المسيحيّة الذين هاجموا المانويّة القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) الذي كان في شبابه معجباً بالراهب المانوي (فاوست) الذي ألقى في أحد الأيام محاضرة على مدرج قرطاجنة (تونس) قال فيها «إنني أبشرِّ، أن هناك عنصرين رئيسين في الكون هما (الباري سبحانه كل قوة

خير كما هو لائق به». ثم قال القديس أوغسطين «وسعيت جهدي كي أتفهم تفهماً صحيحاً الرأي القائل إن حرية الاختيار في إرادتنا هي علة شرورنا، ومنذئذ أدركت أن أصل الشر كامن فيَّ، أما الأعمال التي أتيتها مرغماً، والتي شعرت بنفسي أني منفعل بها لا فاعل، واستنتجت أن لا وجود فيها للخطيئة، بل هي عقاب عادل تنزّل فيَّ، وهذا ما كنت اعترف به حالاً لنفسي»(٣٣).

قال أوغسطين، وتساءلت: من أين يأتي الشر؟ أمن المادة التي خلقها الله ونظمها، ولعله ترك فيها شيئاً لم يحوّله خيراً؟

لو افترضنا أنه لا يليق بالصالح، أن لا يخلق ولا ينشىء إلا ما هو صالح، أما كان من واجب المدبِّر الحكيم أن يمحو ويعيد إلى العدم تلك المادة أو العنصر المضر وينشىء عوضاً عنه مادة صالحة يبدع فيها كل شيء؟ ولا يكون قديراً أن لم يستطع أن يخلق إلا بواسطة تلك المادة التي لم يضعها بيده؟ إن ماني يعزو إلى إله الشمس «كلمة الحياة» وتدبير الأمور في هذا العالم، بل وإن كافة الكواكب السبعة حيّة عاقلة ذات إرادة وهي آلهة مديرة لهذا لعالم»(٣٤) ونسب إلى قرينه فعل الشر.

يعلل القديس أوغسطين سبب انجذاب الناس إلى المذهب المانوي هو زهدهم وتقواهم وقول ماني أن الروح القدس المعزِّي مقيم شخصياً فيه بكل ما له من سلطان، وإذا بهم مسكوه، بالجرم المشهود يتكلم خطأ عن السماء والكواكب وحركات الشمس والقمر، ينطق بما يجهل ويسمح لنفسه، مسنداً إلى شخصيته ألوهية مزعومة»(٣٥).

إن اتهام القديس أوغسطين صحيح لأن أبا الريحان البيروني ذكر نفس الاتهام السابق قال «ذكر ماني في انجيله (الحي) إنه الفارقليط الذي بشّر به المسيح وإنه خاتم النبيين، وأخبر عن كون العالم وهيئته يضاد ونتائج البراهين والدلالات الحسابية، ودعا إلى عوالم ملك النور، والإنسان القديم وروح الحياة وقال بقدم النور والظلمة»(٣٦).

كان المانويين يتهمون العهد الجديد بالتحريف مدعين أنه زوّر على يد أشخاص مجهولين أرادوا أن يدخلوا الشريعة اليهودية في التعليم المسيحي، ولكنهم لم يقدموا نصاً واحداً بدون تحوير، وكانت هذه الفكرة راسخة في ذهن القديس أوغسطين.

وعندما رد عليهم البيديوس في محاضراته (ضد المانويين) بدت ردوده لأغسطين ضعيفة، ولكنه عندما انتقل إلى روما وسمع شروح القديس امبروسيوس (٣٣٩ ـ ٣٩٧) في تفسيره للكتاب المقدس ومقولته الشهيرة (الحرف يقتل والروح يحيي) يقول القديس أوغسطين «خذلت اليأس، وقررت أن أتخلى عن المانويّة التي بدت لي أنها دون الكثير من البدع»(٣٧).

كان ماني يستعمل الأساطير الاغريقية في تفسير مظاهر الكون، مما جعل كتبهم تتضمن خرافات لا حد لها عن السماء والنجوم والشمس والقمر، وعن الأيام والليالي التي تسير وفق نظام معروف، وعن الكسوف والخسوف وعما شاكلها من الأحداث»(٣٨).

وهذا ما أكده الاسكندر الليقوبولي بقوله «إن ماني وأتباعه يقصون الأساطير الاغريقية على أولئك الذين يتكلمون عن أعضاء (أورونوس التناسلية) المقطوعة، أو عن تآمر أبناء كرونوس ضده للوصول للحكم، وعليه لم يكن ماني فيلسوفاً بل صاحب أساطير،و استخدامه لها دلالة على ذكائه الخارق»(٣٩).

وعندما ينقد أبو بكر الرازي (المتوفي ٩٢٥) ماني لقوله أن السماء من جلود الشياطين وإن الرعد جرجرة العفاريت وأن الزلزة تحرك الشياطين تحت الأرض»(٤٠) يعلل البيروني ذلك الخلط «لأن قلوب العامة إلى الخرافات أميل»(٤١). كان ماني يستخدم الأساطير اليونانية ليعلل الصراع الدائم بين الخير والشر.

عندما حارب بهرام المانويّة وذهب اتباعه إلى خراسان وإلى الشرق منها وكانت البوذيّة منتشرة صار أتباع ماني يعرفون (بالأكارين) وتظاهروا أنهم يؤمنون بتعالم بوذا، وصاروا ينشرون بين العامة الأساطير الاغريقية كقولهم «إن إله السموات (أورانوس) ضاجع آلهة الأرض (جيا) فولدت منه الجبال والبحار والبحر الدائري (الأوقيانوس)، ثم تصدى له كرونوس (إله الزمن) ومنعه من مضاجعة (جيا)، وضاجع كرونوس أخته (ريا) وكان يبتلع كل مولود يلد له لأن النبوءة تقول إن واحداً منهم سيعزله. وبحيلة جرع كرونوس جرعة سحرية فتقيأ أخوته الخمسة الذين ساعدوه، وهكذا حقق كرونوس السيادة على العالم. عندما سمع الامبراطور الصيني لويانج Lo - Yang بهذه الأساطير أصدر مرسوماً عاماً سنة (٧٣٢) جاء فيه «إن عقيدة ماني فاسدة وتضلل الناس، وينبغي حظرها رسمياً، وإنها عقيدة البرابرة الغربيين وأناس آخرين، وتعتبر ممارستها من قبلهم جريمة»(٤٢).

كتب أغابيوس المنبجي في تاريخه (سيرة ماني اللعين) في صورة أقرب إلى الخرافة، جمعت ما هو خاطىء إلى جانب ما هو صحيح، قال عنه: إن أصله من الأهواز، وكان أبوه من مدينة السوس يقال له (فتق) واسم أمه (يوسيب) وعندما ولد ابنهما سمياه (قوربيقوس)، فلما نشأ وصار ابن سبع سنين وقع في السبي وخرج إلى مصر، فابتاعته امرأة يقال لها (سوسنة) وكان لها رجل يقال له (سفرسي) وكان من أكابر القوم (فيلسوفاً) يرى رأي فيثاغورس وبرقلس، وكان له تلميذ يقال له (برودروس) تزوجته (سوسنة) بعد وفاة زوجها، وكتب (برودروس) أربعة كتب هي (كتاب الأسرار) و(كتاب الانجيل) و(كتاب الكنز) و(كتاب الجدل) ولما مات برودروس تزوجت سوسنة قوربيقوس مخلّفة له المال والكتب الأربعة. وبعد وفاة سوسنة، عاد قوربيقوس إلى موطنه الأصلي، وتظاهر باتباعه دين المسيح وسمى نفسه (ماني) وأطلق على نفسه (البارقليط) الروح الذي وعد السيد المسيح له المجد تلاميذه به. كانت دعوة ماني تنادي بوجود إلهين:

ـ أحدهما هو أقنوم الخير والصلاح والنور، وهو الله الذاهب في العلو بلا نهاية.

ـ والآخر هو أقنوم الهيولى، معدن الجهل والظلمة والفساد، وهو ذاهب إلى أسفل بلا نهاية، وفي الوسط بينهما تلامس.

وقال عن السيد المسيح، إنه من جوهر الله الخير، لم يقترف خطيئة، ولكن إله الظلمة الشرير هيج عليه عفاريته فصلبوه وقتلوه بزعمهم، ولكنه في الحقيقة لم يصلب وإنما كان موته وصلبه بالخيال، ولحق السيد المسيح بالأب السماوي الخير، وإن ماني هو رسول المسيح ومن ذات الله، وإن الجسد الذي ظهر فيه هو خيال، وإن الأرواح تتناسخ. كانت هذه البدعة سارية في المجتمع البيزنطي وفي أيام الأمبراطور جوستنيان ظهرت عند أبتاع يوليان الهاليكارناسي وكانوا يقولون: إن جسد المسيح غير مخلوق وأنه نزل من السماء معه، وإنه مخلوق لطيف روحاني لا مكان لقبول الآلام فيه، لأنه لم يقترف خطيئة وإنه لم يصلب وإنما كان ذلك خيالاً(٤٣). وتحت الاضطهاد نزحوا إلى بلاد العرب (الحجاز واليمن) وعرفوا بالنصارى.

ما هو خاطىء في هذه الرواية:

ـ جعلت ماني يعيش بعد برقلس الأثيني وهو قبله بقرن من الزمن، وجعلته ينشأ ويتعلم في مصر، ويتزوج من مولاته (سوسنة) والمعروف عنه إنه لم يتزوج، وجعلته لم يكتب كتبه الأربعة المذكورة في الرواية.

وما هو صحيح في الرواية، التلخيص الموجز لمذهبه في الثنوية وفي السيد المسيح وطبيعته الإلهية، ومن المعجبين بسيرة ماني وتعاليمه الشاعر الألماني فيلهلم غوتيه (١٧٤٧ ـ ١٨٣٢). الذي ألّف روايته (فاوست) حول شخصية الراهب المناني القرطاجني فاوستوس، وهو القائل «أما أنا فيسكن جسدي روحان مشاربهما متباينة، الأولى دنيئة تلتصق بأديم الأرض وتتعلق بأهداب هذا العالم، والأخرى طمّاحة تندفع نحو السماء صاعدة إلى مسرى النجوم، فيا ليت الأرواح السابحة بين الأرض والسماء تهبط وتنتشلني من وهدة الشر وترتفع بي إلى الكواكب ذات الألوان البديعة(٤٤).

مراجع الفصل الأول: ماني وتعاليمه

١) تاريخ العلم والأنسية الجديدة ص٣٤ جورج سارطون ترجمة اسماعيل مظهر القاهرة ١٩٦١.
٢) الآثار الباقية ص٢٠٨ البيروني تحقيق ادوار سخاو ليبزنج ١٩٢٣.
٣) ماني والمانويّة ص٤١ جيو وايد نفرين ترجمة د. سهيل زكار دار حسان دمشق ١٩٨٥.
٤) حدائق النور ص٤٥ أمين معلوف، ترجمة د. عفيف دمشقية دار الفارابي بيروت ١٩٩٣.
٥) المصدر السابق ص٧٩.
٦) الفهرست ص٣٩٢ ابن النديم تحقيق رضا تجدد ١٩٧١.
٧) تاريخ الأدب السرياني ص٥٥ كامل مراد ومحمد حمدي البكري دار المقتطف القاهرة ١٩٤٩.
٨) من تاريخ الالحاد في الإسلام ص٢٤٣ د. عبد الرحمن بدوي دار سينا للنشر ط٢ القاهرة ١٩٩٣.
٩) تاريخ الكنيسة ص١٧٣ أوسابيوس ترجمة مرقس داود دار الكرنك القاهرة ١٩٦٠.
١٠) التنبيه والأشراف ص١٧ المسعودي تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
١١) المصدر السابق ص٨٩.
١٢) الآثار الباقية للبيروني ص٢٩٥.
١٣) المصدر السابق ص٤٠.
١٤) ماني والمانويّة ص٤٥.
١٥) الآثار الباقية للبيروني ص٣٩.
١٦) ماني والمانويّة ص٦٢ - ٦٣.
١٧) الآثار الباقية للبيروني ص٣٩.
١٨) اعترافات القديس أوغسطين ص٥٩ ترجمة يوحنا الحلو المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٢.
١٩) الآثار الباقية للبيروني ص٤٢.
٢٠) تحقيق ما للهند من مقولة ص٤١ البيروني تحقيق ادوار سخاو وطبعه حيدر آباد الدكن ١٩٥٨.

٢١) المصدر السابق ص٤١.
٢٢) اعترافات القديس أوغسطين ص٥٩.
٢٣) المصدر السابق ص٧١.
٢٤) المصدر السابق ص٩١)
٢٥) الرُّها المدينة المباركة ص١٢٨ ج.ب سيغال ترجمة يوسف إبراهيم جبرا دار الرّها حلب ١٩٩٠.
٢٦) ماني والمانويّة ص١٥١.
٢٧) المصدر السابق ص١٥٢.
٢٨) المصدر السابق ١١٥.
٢٩) الرّها المدينة المباركة ص١٣١.
٣٠) اللؤلؤ المنثور ص٢٢٩ أفرام الأول برصوم دار الرُّها حلب ١٩٩٠.
٣١) الرّها المدينة المباركة ص١٣١.
٣٢) الأيام الستة ص٤٠ مار يعقوب الرّهاوي ترجمة المطران غريفوريوس صليبا شمعون دار الرها ١٩٩٠.
٣٣) اعترافات القديس أوغسطين ص١٢٤.
٣٤) الأيام الستة ص١١٩.
٣٥) اعترافات القديس أوغسطين ص٨٣.
٣٦) الآثار الباقية للبيروني ص٣٩.
٣٧) اعترافات القديس أوغسطين ص٩٦.
٣٨) المصدر السابق ص٨٥.
٣٩) ماني والمانويّة ص١٧٤.
٤٠) من تاريخ الالحاد في الإسلام ص٢٤٣.
٤١) تحقيق ما للهند للبيروني ص٢٢.
٤٢) ماني والمانويّة ص١٦٩ ـ ١٧٠.
٤٣) تاريخ أغابيوس المنبجي ص٢٧٣ ـ ٢٧٤ تحقيق لويس شيخو بيروت ١٩٠٨.
٤٤) فاوست ص٢٦ للشاعر الألماني جوتيه ترجمة محمد عوض محمد القاهرة ١٩٣٨.

الفصل الثاني

المانويّة في الجزيرة العربية

- الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية.
- الجزيرة العربية في الكتابات اليونانية والرومانية.
- الشعر الجاهلي والديانة المانوية.
- الأحناف والصابئة والمانوية.
- أهم أصنام مكة والحجاز.
- النصرانية في الجزيرة العربية.
- قدوم سلمان الفارسي إلى مكة والمدينة.
- مكة قبل الهجرة.
- هجرة الرسول (ص) إلى يثرب.
- الرسول (ص) ونصارى العرب.
- الرسول (ص) ومسيحيو نجران.
- مفهوم التثليث في المسيحية والإسلام.

الجزيرة العربيّة قبل البعثة النبويّة

منذ الألف العاشر قبل الميلاد، صارت أرض الجزيرة العربية موطناً صالحاً للإنسان، في العصر المطير الذي دام حوالي ثلاثة آلاف سنة، فأصبحت الغابات تكلل المرتفعات الجبلية في اليمن وعمان والحجاز، وكثرت الآبار والينابيع والسيول، وقامت بعض القرى الكبيرة التي سكنها الإنسان العربي الأول.

تذكر التوراة وهي أقدم مصدر مكتوب لدينا، أن إبراهيم الخليل الأرامي، سكن الجزيرة العربية وخلّف هناك أبنه اسماعيل وأمه هاجرً في بلد غير ذي زرع، هي مكة المكرمة (بكة الأرض المنخفضة في الآرامية). يقول الجاحظ «وكان العرب يعتقدون أن جرهما كان نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، فلما عصى اللهَ تعالى بعضُ الملائكة أهبطه الله إلى الأرض في صورة رجل وتزوج أم جرهم فولدت له جرهما»(١) وصارت جرهم تعبد الكواكب، ويقال أنهم بنوا البيت على اسم هيكل زحل، ولكن إبراهيم وضع قواعده من أجل توحيد الله، ونفى عبادة الجن، وعبادة الأصنام وطهّر البيت للعابدين، ولكن بني جرهم عادوا لعبادة الأوثان حسب رواية أبي الوليد الأزرقي في كتابه أخبار مكة، قال: إن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا احتمل معه من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابةً بمكة والكعبة، وحيثما حلّوا وضعوا الحجر وطافوا حولهن حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين اسماعيل وإبراهيم غيره فعبدوا الأوثان، تعظيماً للبيت العتيق»(٢)

ثم يأتي الأخباريون عن قصد فيطمسون تاريخ الجزيرة العربيّة، ويجعلون تلك الفترة فترة جهل إلى أن ظهرت الدعوة المحمديّة، وهذا يخالف ما جاء في الكتابات الكلاسيكيّة (اليونانية والرومانية) وما جاء في اللقى الأثرية المكتوبة وما جاء في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والسيرة النبوية، وسأعيد كتابة تلك الفترة ضمن ثلاثة محاور:

١ـ الكتابات الكلاسيكيّة عن أرض الحجاز والجزيرة العربيّة.

٢ـ ما جاء في الشعر الجاهلي عن الديانات العرفانيّة والثنويّة.

٣ـ ما ذكره القرآن الكريم والسيرة النبويّة عن الديانات الموحدّة.

١. الجزيرة العربيّة في الكتابات اليونانيّة والرومانيّة:

تحدّث المؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٠ ق.م) عن منتجات جزيرة العرب، وعن موقعها الممتاز، وعقائدها الدينيّة، وجعل اللات العربية صنو الآلهة اليونانيــة أورانيـا آلهــة علم الفلك، ويرى فلهاوزن أن اللات هي آلهة الشمس وذكر المــؤرخ البـيزنطي بروكوبيـوس (المتـوفي ٥٦٢م) أن أفروديت هي (عوزي) أو العُزّى وهي نجمة الصبح، وأقام السلوقيون بعض المستوطنات بـين مـدن الفرات وجرها Gerrha في الخليج العربي لعلها (الجهــرا في الكويـت) وعقـدوا اتفاقـات مـن أجـل الحصول على توابل الهند عن طريق الخليج. كما أرسل بطليموس فيلادلفيوس (٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م) ملك مصر البحّار أرسطون Ariston ليكتشف له ساحل البحر الأحمر حتى بـاب المنـدّب، ليقطـع طريق الطيب والتوابل عن مدينة البتراء التي انحاز حكامها العرب إلى جانب الســوريين، وكـانت البتراء محطة تجارية هامة على الطريق المار على حافة البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وخلفـوا لنا آثاراً تدل على نهوضهم بالري والزراعة. وبلغ نشاطهم التجاري والبحري حتى مينــاء بوتيـولي (Puteoli) قرب نابولي. واكتشف أثر نبطـي يونـاني في جزيـرة كـوس في بحـر إيجـه نشـره ليفـي دلافيدا عام ١٩٣٦م»(٣). وقضى على دولتهم الامبراطور تراجان عام ١٠٥م وجعلها ولاية رومانيــة سمّاها بـلاد العـرب Arabia، وكـان إلههـم القومـي ذو الشـرى وزوجتـه الـلات. وكـانوا يعبـدون (إبليس) استرضاء له وتجنباً لشره وأذاه(٤).

ولأهمية الجزيرة العربية، قام العالم ايراتوستين (٢٧٥ ـــ ١٩٤ق.م) مديـر جامعـة الاسـكندرية برسم خريطة جغرافية قسم الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام:

أـ بلاد العرب الصحراوية Arabia Eremon وهم سكان الخيام.

ب ـ وبلاد العرب السعيدة Arabia Eudaemon بـلاد اليمـن والزراعـة والسـدود وهـم المعنيـون والسبئيون والقتبانيون والحضرميون.

جـ ـ وبلاد العرب الخولويتين Arabia Chaulatia أي أرض الخلاء وفيها دومة الجنــدل وبلـدة العلا.

وذكر أن من أرض حضرموت يأتي اللبــان والمرّ، ومـن جرعــاء تـأتي القرفـة عـن بـلاد الهنـد وأنه توجــد في أرض اليمـن سـدود زراعيـة منهـا سـد مـأرب الـذي عندمـا تهـدّم هـاجرت قبـائل غسان إلى بلاد الشام واللخميين إلى ضفاف الفرات وحول الحيرة، وظلت عدة قبائل بزعامة كندة.

وعندما حاول أوغسطس قيصر (٦٣ ق.م - ١٤م) احتلال أرض الجزيرة العربيــة للسـيطرة علـى تجارة الطيب والبخور أرسل حملة بقيادة حاكم مصر ايليوس جالوس (Aelius Gallus) وكان دليل الحملة من عرب الأنباط لكنه خانهم وفشلت الحملة وكانت العطـور والبخـور أغلـى مـن الذهـب

يقال أن الامبراطور نيرون (٣٧ -٦٧م) أحرق في الاحتفال الجنائزي الذي أقامه لموت زوجته أكثر مما تنتجه الجزيرة العربية من بخور في عام كامل.

يؤرخ نقش النمارة في منطقة الصفا بجبل حوران وتاريخه ٣٢٨م. خبر امرىء القيس ابن عمرو بن عدي ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذجح. وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمّر (بو هرعش ملك حمير) وأخضع معداً (يكرب) واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم وتوفي سنة ٣٢٣م في اليوم السابع من أيلول»(٥) ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي أنه كان ثاني ملوك لخم وأنه أول من تنصر من ملوكهم. ولكن برديّة اكتشفت في مصر في نجع حماد. أن عمرو بن عدي ملك الحيرة كان من حماة المذهب المانوي، ويذكر المؤرخ العربي الطبري. أن امرىء القيس أسهم في حملة سابور على عرب الحجاز (ربيعة ومضر) وصار عامله على سائر العرب في بادية العراق والحجاز والجزيرة وكان ملك العرب وهو تحت ركاب سابور. وجاء في نونية أوس بن مغراء التي مطلعها(٦).

ماذا يهيجّك من دار بفيحانا ... قفر توهمت منه اليوم عرفانا

يث الجنود ببطن الأرض يطلبهم ... من بين بصرى إلى آكام نجرانا

٢. الشعر الجاهلي والديانة المانويّة:

جاء في كتاب تاريخ الحيرة «قيل أن عمرو بن عدي ملك الحيرة اعتنق المانوية في زمن أردشير بن بابك (٢٢٦ ــ ٢٤١م) وصار عمرو من حماة هذا المذهب»(١) والمانوية هم الذين عرفهم العرب باسم الثنوية أو الزنادقة وذكروا من بينهم أبو سفيان بن حرب الذي تعلم الزندقة من الحيرة وانتقلت إليهم من خلال تجارتهم معها»(٨) وقيل أن المانويّة كانت متفشيّة في كندة اعتنقها ملكهم الحارث الكندي بعد أن رفضها المنذر بن ماء السماء لأنه كان مسيحياً»(٩).

كانت المانوية متفشيّة في أرض الحجاز ومصر والحبشة، وكانوا يقولون: إن صانع العالم اثنان هما إله فاعل الخير كله نور وفاعل الشر كله ظلمة وهما ممتزجان ولكن فعلهما مختلف، فالنور لم يزل مرتفع، وسموّا أبدان النور ملائكة وهو لا يقدر على الشر ولا يجوز منه وسموا أبدان الظلمة شياطين وعفاريت والظلمة لا تقدر على الخير ولا تجوز منه، وقد فرض عليهم نبيهم (ماني): أن لا يدخر أحدهم إلا قوت يوم. وعلى المؤمن أن يصوم سبع العمر. وترك الكذب والبخل والسحر والزنى والسرقة. وأن لا يؤذي ذا روح»(١٠). وكان إبليس إله الشر يعبد تجنباً لشره وأذاه. ويبدو أن هذا المذهب لم يلق رواجاً في جزيرة العرب لقول رسول الله «قد أيس (أبليس) أن يعبده المصلّون

في جزيرة العرب»(١١)، واكتفوا بالجانب الخيِّر من الآلهة، إلـه النـور، وأهملـوا عبـادة إبليـس، على الأقل في مكة والمدينة، وفي رواية تنسب إلى عبد الله بن عبـاس قـال «أول مـا ضـرب الدرهـم أخذه إبليس فقبله ووضعه على عينه وسرته، وقال: بك أطغّي وبـك أكفـرّ، رضيـت مـن ابـن آدم بحبه الدينار من أن يعبدني»(١٢).

كان اليهود يعتقدون أن الشيطان (عزازيل) يسكن الصحراء لأن النبي هارون أرسل تيساً محملاً بحكايا بني إسرائيل وكان في كل سنة يضع يده على رأس التيس الحي ويعترف عليه بكل ذنوب بني إسرائيل ويرسله مع شخص معين إلى البريّة ليطلقه هناك، في برية الحجاز(١٣).

وكان الأحباش الذين يسكنون مكة هم من المانويّة المزوجة بتعاليم المسـيحيّة وكـانت ديـانتهم تعرف بالنصرانية، ومن كتاباتهم وتعاليمهم رؤيا القديس بـاخوم جـاء فيهـا «ولهـذا أرانـي الله في السماء مسلك أولئك الأشقياء وأمثالهم، فرأيت خمسة طوائف من الأشرار:

ـ الطائفة الأولى من الضباع، والطائفة الثانية من الأشرار والطائفة الثالثة مـن الذئـاب والطائفـة الرابعة من الثعالب والطائفة الخامسة من الجديان، وبعد ذلك أراني خمس طوائف من الأخيار:

ـ الطائفة الأولى من الكبـاش، والطائفـة الثانيـة مـن الحمـام والطائفـة الثالثـة مـن الطواوويـس والطائفة الرابعة من النحل والطائفة الخامسة من الشياه.

فقلت: فسـر لي الطوائـف الأولى، فقـال: اسمـع بـاذن قلبـك، أولئـك الذيـن رأيتهـم يشـبهون الضباع، يقفون النهار صائمين مع إخوانهم الرهبان وفي الليل حين ينام الناس يخرجون مـن اجـل شهوة بطونهم، فإذا شبعوا هتكوا أعراض شياه المسيح المسكينات، وهم يعلمون أنهم يفسدون نساء أخلصن نفوسهن للرهبنة، فهكذا تقع في الشباك روحهم، وينكسر جناح رهبنتهم فويل لهـم إن لم يعودوا إلى التوبة»(١٤).

وكانت من عادات المانوية أو النصارى السـفر والترحـال في طلـب العلـم، والصدّيقـون منهـم لا يسافرون إلا ومع كل واحد منهم ديك ليوقظه للصلاة عند طلوع الشمس، وإن هذا الديك هو مثيـل لديك العرش، ومما يروى وهو لاشك من موروثاتهم القديمة حديث المسيب بن شريك عـن إبراهيـم الأعمش قال رسول الله (ص): لا تذبحوا الديك فإن الشيطان يفرح به». وكان مكحول لا يسافر إلا ومعه ديكه لقول رسول الله «الديك صديقي، وصديق صديقي وعـدو عـدو الله، يحفـظ داره وأربـع دور من حوله»(١٥) وكان الديك رمزاً للخير وكان يسمع في القرى والأديرة قال جرير(١٦).

لمـا مـررت علـى داريـن أرقـنـي ... صوت الدجاج وقرع بـالنواقيس

وهذا أميّة بن أبي الصلت الثقفي كان من دهاة العرب مانوياً، (نصرانياً) وقد همّ بإدعاء النبوة. قال الجاحظ «كان معروفاً بالجولان في البلاد يطلب الروايات وأحاديث العرب ويرويها شعراً، قال في محاورة الديك للغراب: إنهما شربا خمراً عند خمار وذهب الغراب ليأتيه بثمن الشـراب ورهـن الديك عنده: (١٧) قال:

دونك الديك وإنى كما ترى   مقبل على شأن وهاك ردائيا

وقال الديك للغراب:

امنتك لا تلبث من الدهر ساعة   ولا تضعها حتى تؤب مآبيا

ولا تدركنك الشمس عند طلوعها   فأعلق فيهم ويطول ثوائيا

فرد الغراب والرداء بحوزه   إلى الديك وعداً كاذباً وأمانيا

بأية ذنب أو بأية حجة   أدعك فلا تدعوا عليَّ ولا ليا

فلا تبتأس إنى مع الصبح باكر   أوافي غداً نحو الحجيج الغواديا

فلما أضاء الصبح أرسل صرخة   آلا يا غراب. هل سمعت ندائيا؟

وأمسى الغراب يضرب الأرض كلها   طليقاً وأضحى الديك في القيد عانيا

فذلك مما أسلب الخمر لبه   ونادم ندماناً من الطير عاديا

كان أمية بن أبي الصلت يرمز بالديك إلى الرجل المانوي الصدِّيق وبالغراب إلى الراهب المنافق.

وهذا الشعر يرمز إلى الصراعات المذهبية والدينية التي كانت منتشرة في بطاح مكة التي كانت بلداً متعدد الثقافات والألسن وفيها من الديانات العرفانية والمانويّة مما لم يدرس بعد دراسة معمقّة، فهذا زيد بن عمرو بن نفيل يسند ظهره على الكعبة ويقول: أيها الناس هلمّوا إليّ فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري، فيرد عليه أميّة بن أبي الصلت قائلاً:

كل دين يوم القيامة عند الله   إلا دين الحنفيّة زور

فيرد عليه زيد بن عمرو:

فلن تكون النفس منك واقية   يوم الحساب إذا ما يجمع البشر

فيرد عليهما قس بن ساعدة الإيادي، وكان نصرانياً من الحمس يؤمن بالقيامة والمعاد:

كلا بل هو الله إله واحد.

ليس بمولود ولا والد.

أعاد وأبدى وإليه المآب غدا

وكانت المانوية فاشية في قبيلة كندة، وكان شاعرهم عفيف بن معدي كرب الكندي وهو ممن يحرم الخمر والزنا وأكل اللحم والابتعاد عن كل الشهوات قال(١٨):

سالمت قومى بعد طول مضاضة   والسلم أبقى في الأمور وأعرفُ

وتركت شرب الراح وهى أثيرة   والمومسات وترك ذاك أشرفُ

وعففت عنه يا أميم تكرماً وكذا يفعل ذو الحجى المتعففُ

قال الشهرستاني «أخد ماني مذهبه من مرقيون وخالفه في المعدِّل (أي الإله العادل) لأنه النور هو الله تعالى ولا يجوز عليه مخالطة الشيطان»(١٩). فمن هو مرقيون؟

هو أسقف مدينة بنطس (على البحر الأسود) (١٣٨ ـ ١٤٤م) قال عن السيد المسيح له المجد لم يكن ابناً للخالق. وأن الآلهة ثلاثة:

أحدهما: إله صالح في المرتبة العليا أرسل ابنه الوحيد لخلاص العالم.

والثاني: إله شرير هو إبليس. مهمته اغواء عباد الله الصالحين.

والثالث: إله عادل. خلق السماء والأركان الأربعة. وزوّج آدم وحواء وكثر نسلهما. وقام الإله الشرير (إبليس) وصلب (الكلمة) السيد المسيح. ورأى الإله الصالح ما جرى لابنه فوضع لهم شريعة جديدة (انجيل لوقا) ونسخ شريعة التوراة. وخلق الفردوس لمن اتبع السيد المسيح. ومن عصاه أهبطه إلى الجحيم»(٢٠) وعنه صدرت المانوية والنصرانية التي هي مزيج من كل تلك التعاليم.

٣ـ الأحناف والصابئة والمانويّة:

قال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) سورة آل عمران أية ٩٦. ولكن الأحناف من العرب يدّعون أن آدم وافى حواء بجبل عرفات وعرفها وصار إلى أرض مكة ودعا وتضرع إلى الله تعالى حتى يأذن له ببناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافاً لعبادته، فأنزل الله تعالى عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور فوضعه مكان البيت فكان يتوجه إليه ويطوف به»(٢١) ويقول الاخباريون من العرب أول من رفع دعائم البيت هو إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل لقوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك». (سورة البقرة آية: ١٢٧ و١٢٨).

ويطلق العرب على المسلمين اسم الأحناف وهم الصابئة أو عبدة الأوثان في أرض الجزيرة العليا، وكانت عاصمتهم مدينة حران. وعندما استفحل أمرهم أصدر الامبراطوار جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٤م) أمراً «أن لا يبقى أحد من الحنفاء في سلطان الروم إلا اعتمد وتنصر وإلا قتل»(٢٢) فهرب كثير من أبناء الطائفة إلى أرض الحجاز ومصر، وهم الذين نقلوا عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز ونهضت الدعوات الدينية في الأسواق التجارية، وما أسرع انتشار تلك الهرطقات قال هوايتهيد «أينما توجد عقيدة فلابد أن هنالك مهرطقاً حياً أو ميتاً»(٢٣).

وكانت مكة مركزاً لصراع فكري محموم، فالأحناف يدعـون إلى ديـن الفطـرة، وكـانت تجـري بينهم وبين الصابئة مناظرات. فالصابئة يقولون: المادة أو الهيولى سنخ الشر ومنبع الفساد» والروح هي سبب الصلاح ومنبع الخير. فيرد عليهـم الأحنـاف، ولكـن الصـورة (الـروح البشـرية) عندمـا لبست الجسد وتشبهت بالطبيعة صارت كالحمامة الواقعة في الشبكة»(٢٤).

وكان الصابئة يزعمون أن البيت لهم وإنه هو بيت زحل لم يبنه إبراهيم الخليل بـل كـان مـن قبل من أيام نوح عليه السلام وكانت به صور الهياكل التي كانت لأنبيائهم وحكمائهم الربانيون، قال س. موسكاني «وكان هناك أتباع للمذاهب الغنوصية وهم الذين يدعون الحنوفون وقد خلدتهـم نقوش القبور والقصائد الجاهلية»(٢٥). وكانوا كلهم يعبدون الأصنام. وهذه عادة شائعة عند معظـم الأمم الوثنية، وكان الكهنة أو الكاهنات يكلمون الزائرين من خلف هذه التماثيل، قال الجاحظ عن الأعراب «إنهم يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة وهـذه فتنـة. ومـا أشـك أنـه كـان للسدنة حيل للتكسب، والأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف بل يتعجبون ممن ردّ ذلك»(٢٦).

يجمع الأخباريون العرب أن أول من وضع الأصنام في مكة عمرو بن لحيٍ الخزاعي غلب علـى مكة وأخرج منها قبيلة جرهم أو العماليق وتوّلى سدانتها وكان مؤاخيـاً نفراً مـن الجـن يكنّـى أبـا ثمامة، قال له: عجّل بالمسير من تهامة بالسعد والسلامة.. ايـت ضـفّ جـدة تجـد فيهـا أصنامـاً معدّة، ثم ادعُ العرب إلى عبادتها تجاب. فأتى إلى شط جدة فاستشارها وحملها. ودعا العـرب إلى عبادتها قاطبة، ويقال أنه أطعم الحاج بمكة سدايف الإبل ولحمها ووهب ثلاثة أثـواب مـن بـرود اليمن لكل حاج، وصار قوله فيهم ديناً متبعاً وغيرّ دين الحنفيّة(٢٧).

لا صحة لهذه الرواية التي لا سند لها إلا الأخبار المتوارثة المتناقضة والتي لا تخلو مـن طرافـة ومتعة، وكانت الأصنام تجلب مع الحجّاج من بلاد بعيدة ومعهم تجاراتهم مما يؤمّن لمكّـة سـوقاً تجارية رائجة، واستطاعت قبيلة خزاعة من بين بكـر بـن عبـد منـاة مـن كنانـة أن تطـرد قبيلـة جرهم، قال عمرو بن مضاض «يا قوم احذورا البغي فإنه لا بقاء لأهله، قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق، استخفوا بالحرم فلم يعظموه وتنازعوا بينهـم واخلتفـوا حتـى سـلطكم الله عليـه، وقـال مضاض بن عمر شعراً: (٢٨)

كأن لم يكن بين الحجـون إلى الصفـا ... أنيـس ولم يسـمر بمكـة سـامرُ
ولم يـتربع واسـطاً فجنوبـه ... مـن المنحنـا مـن ذي الأراكـة حـاضرُ
بلـى نحـن كنـا أهلهـا فأزالتنـا ... صـروف الليـالى والجـدود العواثـر
وصرنـا أحاديثـاً وكنّـا بغبطـة ... كذلـك عفتنـا السـنون الغوابـرُ
فسحّت دمـوع العين تبكـى لبلـدة ... بهـا حـرم آمـن وفيهـا المشـاعرُ

ولأن عبادة الأوثان وسدانتها كانت ذات منافع اقتصادية، فقد نازعت قريش خزاعة واستولت على الحرم، وأعادت ترتيب الأصنام فيه، وحسب رواية محمد بن اسحق في كتابه السيرة النبوية، أن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي القضاعي تزوج فاطمة بنت عمرو وأنجبت له قصي بن كلاب الذي توفي والده فتزوجت أمه ربيعة بن خزام الكناني الذي حمل الطفل قصي وأمه إلى بلاد ربيعة بالشام ولما صار رجلاً عاد قصي إلى قومه بمكة وتزوج ابنة سيّد مكة (حُليل بن حبشيّة الخزاعي) ولما حضرت الوفاة حُليلاً جعل ولاية البيت لزوج ابنته قصي بن كلاب فلم ترض خزاعة ولكن قريشاً وكنانة ناصروا قصي وجرى قتال ثم احتكمت القبائل إلى عمرو بن عوف الكناني، وحكم لقصي بالحجابة، فماذا فعل قصي؟ أعاد ترتيب الأصنام من جديد ونظمّ السعي والطواف وأنشأ دار الندوة للمشورة وأنصاف المظلوم، ولم يكن يدخلها من قريش إلا ابن أربعين سنة.(٢٩) ورغم حلم قريش ورجاحة عقولهم كانوا يرددون أساطير الجاهلية ومعارفها مع بقايا أنباء غامضة تداوّلتها الأجيال فاستقبلتها عقول خضعت لوثنيّة كلها خرافة وتدجيل.

٤ـ أهم أصنام الحجاز:

يرى الأستاذ دومبين M. G. De Monbynes أن الوثنية العربية تطورت عن عبادة الرجال العظماء والجن، وكانوا يرون أن الحيوانات والنباتات متقمصة لقوى عليا تسيطر عليهم وكان تحالف حميم بين قبائل الأنس من الاعراب وقبائل الجن(٣٠). وكانت الشياطين تعبد عند الأعراب، قال محمد بن كعب عن الأصنام «هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة فقال لهم إبليس، لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق لكم للعبادة ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم، فقال إبليس: إن الذين كانوا من قبلكم يعبدون هذه الصور، فابتداء عبادة الأوثان من ذلك الوقت»(٣١).

وكتب هشام بن محمد بن السائب الكلبي كتاب الأصنام، ذكر فيه تاريخها وعنه نقل المؤرخون العرب، وقد ربط هذه الأصنام بوظيفتها الاجتماعية الاقتصادية وكانت متوزعة على طريق القوافل في الجزيرة العربيّة، وأشهر تلك الأصنام.

صنم هبل: يقال أنه من عقيق أحمر على صورة الإنسان، وكان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، وكان يقال هبل خزيمة، ثم أصبح أبو جهل (هشام بن الحكم) من سدنة هبل، وعندما أسلم عكرمة بن أبي جهل قال أبو الوليد ابن الأزرقي «لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره، وكان أبوه صاحب تجارة يعمل الأصنام في الجاهلية ويبيعها ولم يكن في قريش رجل إلا وفي بيته صنم لهبل»(٣٢).

قال الواقدي لما أسلمت هند بنت عتبة جعلت تضرب هبل في بيتها في القدوم وهي تقول «كنا منك في غرور»!.

صنم العُزّى: أعظم أصنام قريش، قال ابن الكلبي «ثم اتخذوا العُزّى وهي أحدث من اللاّت ومنّاة، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح، وينسب إلى رسول الله (ص) قال «لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول «واللاّت والعُزّى ومنّاة الثالثة الأخرى، إنهن الغرانيق العُلى وإن شفاعتهن لترتجى»(٣٣) وجاء في كتاب سيرة ابن هشام «وكانت سدنة العُزّى ببني شيبان بن جابر بن مرة من بني سُلَيْم من قيس عيلان وكانوا حلفاء بني هاشم»(٣٤) وهي أفروديت أو عوزي نجمة الصبح في نقوش حران وتدمر. وإلى جانبها أختيها اللاة ومناة وكان يعلوهن أبوهن هبل، وكانت العرب تدعوهن بنات الله، وفي الطائف صخرة مربّعة عليها صنم اللاّت وكان سدنتها من ثقيف من بني عتّاب بن مالك»(٣٥).

دخل أبو لهب على أفلح بن النضر من بني سُلَّيم لما حضرته الوفاة فقال له: مالي أراك حزيناً؟ قال أفلح! أخاف أن يضيع العُزّى من بعدي(٣٦) وكانت العُزّى شجرة بغطفان وكانوا يعبدونها فبعث إليها النبي (ص) خالد بن الوليد فقطعها، وعندما تاب زيد بن عمرو بن نفيل عن عبادة الأصنام قال:

تركت اللاّة والعُزّى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

ولا هبلاً أزور وكان ربّاً لنا في الدهر اذ حلمي صغير

صنم ذو الشرّى: كان صنماً لدوس من خزاعة من الأزد وبالقرب منه وشل من ماء يهبط من الجبل، قال الطفيل بن عمرو الدوسي لزوجته عندما أراد الإسلام اذهبي إلى ذي الشرى وتطهّري من مائه»(٣٣) ولقد ورد اسم ذو الشرّى بالشام كأحد الآلهة عند المعنيين باليمن.

وكان صنم ودّ بدوّمة الجندل وضعه عوف بن عذرة بن قضاعة وكان تمثال رجل كأعظم ما يكون قد زُبر عليه حلتان مؤزّر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وتنكّب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل»(٣٨). وكأنه يصف تمثال رجل من أمراء الحضر أو الرّها أو تدمر.

صنما نائلة وإساف:

هذان الصنمان أحدهما لرجل والآخر لإمرأة موضعهما قرب بئر زمزم بالبيت الحرام، ويجري عندهما النحر، فالطائف بالبيت من أهل الحجاز يبدأ باساف فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة، فكان كذلك حتى يوم الفتح»(٣٩).

ما قصة هذين الصنمين؟ في رواية إنهما جلبا من بلاد الشام جلبهما عمرو بن لحي الخزاعي، وفي رواية أخرى وهي أقرب إلى الخرافة، عن عبد الله بن عباس «أن إساف بن يعلي الجرهمي،

كان يتعشق نائلة بنت زيد الجرهمي وكانا في أرض اليمن، وخرجا مع حجّاج اليمن، فدخلا مكة، فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت، ففجر بها فمسخا، فوجدوهما مسخين وعبدتهما خزاعة وقريش وكناته والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شنوءة وجذم وزبيد وبنو ذكوان من بني سُليم وعمر اللاّت وثقيف وغطفان وعدّوان وعلاق وقضاعة، **وكل الحمس المتشددين في** دينهم، وكانت قريش إذا أنكحوا عربياً امرأة منهم اشترطوا عليه أن كل من ولدت له فهو أحمس على دينهم وكان الحمس إذا أحرموا لم يأكلوا إلا الإقط ولا يأكلون اللحم والسمن والزبد ولا يمخطون اللبن، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه، ويلبسون الكتان الأبيض وإنما يستظلون بالأدم، ولا يقاتلون في الأشهر الحرم ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم»(٤٠).

أما الحلة من قريش فيطوفون وتطوف نساءهم عاريات حول البيت، ومما رواه الجاحظ عنهم القصة التالية:

«كانت ضباعة من بني عامر بن صعصعة من الحمس تحت عبد الله بن جدعان زماناً لا تلد فأرسل إليها هشام بن المغيرة المخزومي! ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير؟ قولي له يطلقك. فقالت لعبد الله ذلك. فقال لها: إني أخاف عليك أن تتزوجي هشام بن المغيرة قالت: لا أتزوجه. قال. فإن فعلت فعليك مائة من الإبل تنحرينها في الجزورة وتنسجين لي ثوباً يقطع ما بين الأخشبين، والطواف عريانة، قالت لا أطيقه وأرسلت إلى هشام فأخبرته الخبر فأرسل إليها ما أيسر ما سألك، فطلقها عبد الله بن جدعان وتزوجها هشام. فقال المطلب بن أبي وداعة لقد أبصرتها وهي عريانّة تطوف بالبيت واضعة يدها على ركبها وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

كم ناظر فيه فما أبلّه ... أجثم مثل القعب باد ظله

ثم قال إن النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهن فمن دونهن يطفن بالبيت مكشفات الوجوه. لا يكمل حج إلا به»(٤١).

ومع ذلك يروي العرب أن الله حمى البيت من ابراهة بن الصباح ملك اليمن عندما بنى كنيسة (القليس) ونقل إليها الرخام المجزّع والملوّن والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس»(٤٢) وتوجه إلى مكة يريد تحطيم الأصنام، ولكن الله حمى بيته منه.قال تعالى (ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) سورة الفيل آية ١) وقال المفسرون «وأصحاب الفيل قوم من النصارى من الأحباش ملكوا اليمن، ثم ساروا منه يريدون تخريب الكعبة فأهلكهم الله الذي استجاب لدعاء قريش عندما أخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة وقال:

لا هُمَّ إن العبد يمـ ... نع رحله فامنع حلالك

لا يغلـــبن صليبهـــم ومحالهم غـدوا محـالك

والعجيب أن الله نصر دين الأوثان على دين الصليب!

هل استطاع الإسلام جبّ المانوية؟

نعم، ولكن بعد حذفه بعض المظـاهر المنافيـة لعقيـدة التوحيـد، وإبقائـه علـى بعـض الطقـوس النافعة وكان الحذف والتبديل لتتكيف مع واقع الدين الجديد، في حديث مرفوع عـن أبـي بريـدة «أن عثمان بن مظعون اتخذ بيتاً يتعبد فيه، فبلغ ذلك النبي، فأتاه وأخذ بعضادتي البيـت الـذي هو فيه وقال: يا عثمان إن الله - عـزّ وجـل - لم يبعثـني بالرهبانيـة، وإن خـير الديـن عنـد الله الحنفيّة السمحاء»(٤٣) وفي حديث عن سعيد بن المسيّب، أن عثمـان بـن مظعـون جـاء إلى النـبي (ص) وقال: يا رسول الله غلبني حديـث النفس. قـال: ومـا تحدثـك نفسـك يـا عثمـان؟ قـال: تحدثني أن اترهب في الجبال. قال: إن ترهب أمـتي الجلـوس في المسـاجد وانتظـار الصـلاة بعـد الصلاة، قال: وتحدثني أن أسيح في الأرض قال: مهـلاً يـا عثمـان. فـإن سـياحة أمـتي الغـزو في سبيل الله والحج والعمرة، ثم قال: وتحدثني نفسي: بأن اخـرج مـن مـالي كلـه، قـال: مهـلاً يـا عثمان، فإن صدقتك يوماً بيوم. وتكفي نفسك وعيالك وترحم المسكين واليتيم وتطعمـه أفضـل مـن ذلك. وقال: تحدثني نفسـي بأن أطلق خولة امرأتي. قال: مهلاً يا عثمان: فإن هجـرة أمـتي مـن هجر ما حرّم الله عليه، وقال تحدثني نفسـي: أن لا آكل اللحم. قـال: مهـلاً يـا عثمـان. أحـبُ اللحم وآكله إذا وجدته. قال: وتحدثني نفسي: أن لا أمسّ طيباً. قال مهلاً يا عثمان، إن جبريل أمرني بالطيب غباً، يا عثمان لا ترغب عن سنتي، إن لجسدك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً، فصّل ونمْ وصمْ وافطر. ثم جمع أصحابه وخطب بهم قائلاً: إن أناسـاً مـن أصحـابي احتمـوا عـن النساء واللحم إني لم أرسل بالرهبانية إن خير الدين عند الله الحنفيّة السمحاء»(٤٤).

كان عبد الله بن مظعون من قريش الحمس وهم الذين يأخذون بتعاليم شبيهة بتعاليم المانويّـة. وإن كانوا يتقربون إلى الله بالأصنام فهم يرددون في طوافهم حولها وحول الكعبة:

لبيـك اللهـم لبيـــك لبيك لا شـريك لـك

إلا شـــريك هولـــك تملكـه ومـا ملـك

وكانوا يعنون به طاووس الملائكة إبليس أو الشيطان الرجيم.

النصرانيّة في الجزيرة العربيّة:

للجـاحظ رأي حصيـف في انتشـار النصرانيـة في الجزيـرة العربيـة، قـال «إن العـرب كـانت النصرانية فيها فاشية وعليها غالبة إلا مضر. فلم تغلـب عليهـا يهوديـة ولا مجوسـيّة ولم تعـرف

مضر إلا دين العرب، وجاء الإسلام وملوك العرب رجلان: غسّاني ولخمي وهما نصرانيان، وكانت تهامة، وإن كانت لقاحاً لا تدين لدولة ولا تؤدي الأتاوة ولا تدين للملوك، فإن نصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب معروفة عند أهل النسب»(٤٥) وبعد فلولا متكلموا النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا شيء من كتب المنانية والديصانية والمرقونية، ولكانت الكتب مستورة عند أهلها ومخلاة في أيدي ورثتها، وأنت إذا سمعتهم (أي المنانية) وهم يتحدثون في العفو والصفح وذكرهم للسياحة وزرايتهم على كل من أكل اللحم ورغبتهم في أكل الحبوب وترك الحيوان وتركهم للنكاح وتعظيمهم الرؤساء علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسباً»(٤٦).

نعم هاجرت إلى مكة والطائف جماعات من النصارى وكانوا مزيجاً من مختلف المذاهب والهرطقات المسيحيّة والمانويّة. وكانت تجري بينهم وبين والديصانية مناظرات، كان المنانية ينكرون صلب المسيح وإنه شبّه لليهود أنه صلب، وإن الله لا مثيل له، وهو نور، وأن ابليس هو إله الشر، وهو طاووس الملائكة، يفعل ما يعجز عن اتيانه إله النور، ولا ينكرون عبادة إبليس أو الشيطان، التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية، قال تعالى «ألم أعهد إليكم يا بني آدم آلا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين» (سورة يس آية ٦٠) وفي حديث جابر قال رسول الله «إن إبليس قد ئيس أن يعبده المصلّون ولكن في التحريش بينهم» انفرد به البخاري. وعن عبد الله بن عباس، قال: كان رسول الله (ص) يقول للحسن والحسين أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة» أي الروحِ الشريرة. وقال تعالى «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا» (سورة البقرة آية ٢٦٨).

وقد نشط رهبان النصارى للرد على عباد الشيطان والأحناف من قريش. وكان المجتمع المكيّ مجتمعاً متسامحاً، (لا إكراه في الدين)، هذا هو شعارهم، إذا لم تكن تُؤمن بما أومن فأنت لست بكافر، فهم مجتمع أكثر تحرراً من أصحاب الديانات الموحدّة (اليهودية) وكان بينهم من ينكر يوم البعث والمعاد، وكانوا يقولون «من يحيي العظام وهي رميم» سورة يس آية ٧٩، وكانوا يقولون «ما يهلكنا إلا الدهر» وكانت النصارى تقف لهم بالمرصاد قائلة إن من آمن بتعاليم السيد المسيح، فالله معيده ثانية يوم القيامة.

كان زهير بن أبي سلمى الشاعر العظيم يؤمن بتعاليم النصارى، قال ابن قتيبة كان زهير يتأله ويتعفف في شعره ويدل على إيمانه بالبعث قوله(٤٧).

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخرُ فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

وكان زهير على إطلاع بما كان يجري في انطاكية في بلاد الشام أو في الحيرة في العراق، وهو القائل:

تبصر خليلى هل ترى من ظعـائن — تحملّن بالعليـا مـن فـوق جرثـم
علْـون بأنطاكيــة فــوق عِقمــةٍ — ورادٍ حواشــيها مشــاكهة الــدم
فتغـل لكــم مــالاً يغــلُ لأهلهــا — قـرى بـالعراق مـن قفـيز ودرهــم

كان زهير بن أبي سلمى حكيماً مات قبل بزوغ نور البعثة المحمدية، توفي ٦٠٨م ومن حكمه:

وما بك من خـير أتـوه فإنمـا — توارثــه آبــاء آبــائهم قبــلُ

صوّر القرآن الكريم بيئة الحجاز وما فيها من ديانات متصارعـة أفضـل تصويـر وأدق تـأريخ، قال تعالى «إن الذين آمنوا والذيـن هـادوا والصـابئين والنصـارى والمجـوس والذيـن أشـركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة» (سورة الحج آية ١٧) وجاء في تفسير المجوس، هم الذين يعبدون النار، ويقولون أن للعالم أصليين: النور والظلمــة، وقيـل كـان لهـم كتـاب ورفـع، وكـان أصحـاب هـذه الديانـات يـأتون إلى النـبي ويجادلونـه بحريّـة تامـة دون إكـراه قـال تعـالى: حتــى إذا جــاءوك يجادلونك، يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين» ســورة (الأنعـام آيـة ٢٥)، وكـان هـؤلاء الكفّار ممن قد اطلعّوا على ثقافات الأمم والشعوب الأخرى، جاء في مختار الصحـاح للإمـام محمـد ابن أبي بكر الرازي، «الأساطير هي الأباطيل ومفردها أسطورة أو اسطير وهي معربّة عن اليونانية»

وكان يطلــق علــى المانويـة اسـم المجـوس علـى الرغـم مـن أن تعـاليمهم مزيـج مـن المسـيحيّة والديصانيـة وصابئـة حـران، وهـم القـائلين بـأصلين للعـالم النـور والظلمــة، وينتظــرون المنقــذ، «البرقليطس» ويظنهم عرب الجزيـرة أنهـم مسـيحيون، بـل عرفـوا الديانـة المسـيحية مـن خـلال تعاليمهم ويطلقون عليهم اسم النصارى. وخير ممثل لهم «روزبة المنّاني» الذي أسلم وكان من كبـار الصحابة وعرف باسم «سلمان الفارسي».

قدوم سلمان الفارسي إلى مكة:

لا تذكر لنا المصادر العربية إلا النزر اليسير عن حياة روزبة (المبارك) قبـل قدومـه إلى الجزيـرة العربية، ولد روزبة بن مرزم في منطقة اصطخر عام (٥٩٠) في بـلاد فـارس وكـان والـده مـن كبـار الملاّك الزراعيين (الدهاقنة) ومما رواه عن نفسه قال «حينما كنت صغيراً أعجبـني أمـر النصـارى، فسألتهم: أين أصل هذه الديانة؟ فقالوا: في بلاد الشام، فخرجت حتى أتيت الشام وتحولت منها إلى أرض نصيبين في الجزيرة»(٤٨) وفي رواية ثانية أكثر دقة وتفصيلاً قال «كان أبي دهقـان أرضـه بأصبهان من (جيً) وكنت أحب الخلق إليه، فأجلسني كـالجواري وانصرفـت إلى تعلـم الفارسـيّة والديانة الزرادشتية، ومرة قال لي: يـا بـني قـد شـغلني مـا تـرى فـانطلق إلى الضيعـة، فخرجـت

ومررت بكنيسة النصارى وهم يصلون وأعجبت بأمرهم، وأخبرت أبي بعد عودتي بأمرهم، فقال: يا بني دينك ودين آبائك خير من دينهم، وكان أبي موبذا (سادناً لمعبد النار) فقلت: كلا والله، فخالفني وقيدّني وبقيت على هذه الحال إلى أن بعثت إلى النصارى أعلمهم موافقتهم لدينهم وألقيت الحديد من رجلي وخرجت معهم حتى أتيت الشام»(٤٩).

كان عمر روزبة حوالي العشرين سنة عندما هاجر سنة (٦١١) عندما كسب برويز الحرب على الروم وفتح على المسيحية والمانويّة في بلاده أبواب الظلم، وضبط أموالهم وهدم البيع والاديرة، ونهب الأواني الثمينة وقبض على بروين الشريف وجرجس الراهب وكانا صاحبي روزبة،(٥٠) وهذه الحرب هي التي ذكرها القرآن الكريم (ألم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون» (سورة الروم آيات ١-٤). وعلى أثر انتصار هرقل ملك الروم على الفرس انتقل روزبة من أرض الجزيرة إلى بلاد الحجاز، وكان عمره حوالي ٣٥ عاماً ولا صحة ما يروى عنه أنه عاش ثلاثمائة سنة، قال محمد بن عثمان الذهبي «فتشت حول سنه فما ظفرت منه بشيء سوى قول البحراني أنه عاش ثلاثمائة سنة، وقوله ذلك منقطع لا اسناد له ومجموع أحواله وغزوه وهمته وتصرفه وسفّه للجريد ينبىء بأنه ليس بمعمِّر ولا هرم فقد فارق وطنه وهو حدث ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل، وعندما سمع بمبعث النبي هاجر إليه فلعله عاش بضعاً وسبعين سنة وما أراه بلغ المائة فمن كان عنده علم فليفدنا»(٥١).

كيف عاش روزبة في أرض الجزيرة؟ انتقل روزبة من نصيبين إلى الرُّها وتعرف على بدعة المصلين الأحناف، وكانت نحلتهم تلك مزيج من الديانتين الديصانيّة والمانويّة ومارس روزبة الصلاّة في خلوات الرُّها وعندما علم به رهبان المسيحيّة ضايقوه فانتقل إلى مدينة عموريّة، وهناك تعرف على جماعة تدين بتعاليم يوليان الهاليكاروناسي وذهب إلى ما ذهبوا إليه من أن السيّد المسيح من روح الله ومن جوهره وإنه لم يصلب بالحقيقة وإنما كان صلبه وموته بالخيال، وإن ماني هو رسول المسيح (البرقلس) وإن الله ليس مثله شيء وهو إله النور الخيِّر وإنه لا يوجد له أقنوم متحد به، وإن البرقلس أو ماني دعا إلى خلاص العالم من الشرور وكبح الطمع والشهوات ومن أولئك الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يوزعونها على الفقراء، وكان روزبة لا يأكل اللحم ولا يقرب النساء ولا يشرب الخمر، ويكره الكذب والرياء، وقيل أن رئيس الدير الذي كان فيه كان يتظاهر بالعبادة وهو يكنز الذهب وقد خبأه في مكان اطلع عليه روزبة، وعندما مات رئيس الدير أرشدهم روزبة إلى الكنز المخفي.

وعندما بزغت الدعوة المحمديّة في أرض الحجاز سمع بها روزبة، فرافق ركب من قبيلة كلب وأوصلوه إلى دحيّة الكلبي في مكة، وهناك بدأ يبشر بالدعوة المانويّة أو ما يعرف ببلاد العرب بالنصرانية.

تقول رواية عربية، أن ركباً من العرب من بني كلب مرّ بالدير الذي كان فيه روزبة فحملوه إلى وادي القرى بالحجاز وباعوه إلى رجل يهودي وباعه مالكه إلى رجل يهودي آخر من بني قريضة(٥٢). هو عبد الله بن سلام، وبقي يخدمه مدة، وعندما أسلم اليهودي على يد رسول الله انتقل روزبة معه إلى المدينة، في السنة الثانية للهجرة (٦٢٣) استقبله رسول الله ودفع عنه قطعة من الذهب واعتقه من الرق وسمّاه (سلمان الخير) بل ونسبه إليه قال سلمان منا أهل البيت، وأصبح مستشار رسول الله وموضع ثقته، وهو الذي أشار عليه بحفر الخندق حول المدينة، تقول عائشة زوجة رسول الله (ص) كان لسلمان مجلس مع رسول الله بالليل حتى كان يغلبنا على رسول الله».

صار سلمان من كبار الصحابة وأتقاهم وأزهدهم، انضم إلى النجباء من أصحاب محمد (ص) وإلى أصحاب علي (كرم الله وجهه) انحاز، وكان سلمان يلقب بذي الكتابين القرآن والانجيل الذي ذكره أبو الريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٥٠) قال «ولأصحاب ماني انجيل على حدة يشتمل على خلاف ما عليه النصارى من أوله إلى آخره وأولئك يدينون بما فيه. ويزعمون أنه هو الانجيل الصحيح، وأن مقتضاه هو ما كان عليه المسيح وجاء به وأن غيره باطل. وله نسخة تسمى انجيل السبعين، وينسب إلى بلامس الرسول [الصواب فيلبس الشهيد من سبط أشير من بيت صياد ذهب إلى قرطاجنة (في تونس) وتوفي هناك ودفن]. وفي صدر الانجيل أن سلاّم بن عبد الله بن سلاّم، قد كتبه من لسان سلمان الفارسي، ومن نظر فيه من المسلمين والنصارى أنكره»(٥٣) والغريب أن قصة خلق العالم تطابق ما جاء في كتاب الجلوة اليزيدي.

مكة.. قبل الهجرة إلى يثرب:

ظهرت عدة نبوات في مطلع القرن السابع الميلادي، والنبوة مشتقة من الفعل نبأ بمعنى أخبر فالنبي هو المخبر بأوامر الله ونواهيه، والرسول لغة تعني الرسالة وتعني المرسل وهو الذي يتابع أخبار من بعثه بالحق بطريق الوحي، ومنه كل رسول نبي وليس كل نبي رسول، فالرسول أخص من النبي والأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله، ومن هؤلاء الأنبياء الذين وفدوا إلى مكة.

ـ **خالد بن سنان العبسي**، ومن معجزاته أن ناراً ظهرت بأرض العرب فافتتنوا بها، فكادوا يتمجسون أي يعبدون النار المقدسة، فأخذ عصاه، ودخل النار حتى توسطها ففرقها وهو يقول كلام مسجوع «بدا بدا كل هدى مؤدى، لأدخلنها وهي تلظّى، ولأخرجن منها وثيابي تندّى»(٥٤). وقد ذكروا أن ابنته سمعت رسول الله (ص) يقرأ سورة الإخلاص (قل هو الله أحد...) فقالت: قد كان أبي يقرأها فردّ عليها رسول الله «ذاك نبي أضاعه قومه»(٥٥).

ـ **عتبة بن ربيعة الثقفي**، صاحب الجمل الأحمر، كان سيّد ثقيف ويطمح في النبوة وعندما بلغ الأربعين ولم يأته الوحي، قال أبو سفيان، عندما سمع بدعوة محمد (ص) قلنا له: ما يمنعك يا ربيعة من اتباعه؟ قال: الحياء من نساء ثقيف كنت أخبرهم أني هو النبي الموعود، ثم أصير تابعاً لفتى من عبد مناف»(٥٦).

ـ وكان رسول الله (ص) كلما اجتمع الناس بموسم الحج يعرض نفسه على القبائل ويخبرهم أنه رسول الله، ويسألهم أن يصدّقوه، وكان يمشي خلفه عمه أبو لهب (كاهن اللاّة والعُزّى) فإذا فرغ الرسول من الكلام، قال للقوم: إن هذا ابن أخي وهو يدعوكم أن تسلخوا عبادة اللاّة والعُزّى من أعناقكم، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له.

ـ وصادف رسول الله الشاعر (**سويد بن صامت الآوسي**) وكان يلقب بالكامل، ومعه مجلة لقمان دعاه رسول الله إلى الإسلام، فقال له سويد، فلّعل الذي معك مثل الذي معي، فعرضها عليه، فقال رسول الله: إن هذا الكلام حسنٌ والذي معي أفضل منه، فقال سويد ما هو؟ قال: قرآن أنزله الله تعالى عليّ هدى ونوراً وتلا عليه فقال سويد «إن هذا لقول حسن» ثم انصرف نحو المدينة. ولا تفيدنا السيرة النبوية ما الذي تمَّ بينهما، وما مصير مجلة لقمان، وكل ما ذكرته السيرة، أن سويد انصرف نحو المدينة (يثرب) وقتل يوم بعاث، قيل قتل وهو مسلم»(٥٧) وفي القرآن الكريم سورة لقمان وهي سورة مكيّة جاء فيها «ولقد آتينا لقمان الحكمة، أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني حميد. وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (سورة لقمان آية ١٢ و١٣). ولقمان الحكيم شخصية أسطورية اختفلت فيه الأقوال هل هو نبي أم حكيم؟ واتفقوا على أن الله أتاه بالفقه والعقل والإصابة في الحكمة (الطبابة). وهذه الشخصية العرفانيّة عند الصابئة هو القيمانوس الكريتوني من أتباع فيثاغورس، وكان طبيباً بارعاً، ذاع صيته في سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، لقوله إن الدماغ مركز التفكير، لا القلب، وأن الأعصاب هي نواقل للإحساس إلى الدماغ»(٥٨) ولكن أهل الجزيرة العربية لم يوافقوه على رأيه ذلك معتبرين أن القلب هو مركز التفكير ومركز الصلاح في الإنسان، وما عدا ذلك فهو حكيم بارع وكانوا يقولون «إنه نوبي من أهل إيلة (القدس) وهو لقمان بن عنقاء بن سرور».

وكان سويد بن الصامت شاعراً يقول الحكمة وينسبها إلى لقمان الحكيم ومن شعره(٥٩).

آلا ربّ من تدعو صديقاً ولو ترى ... مقالته في الغيب ساءك ما يفري

يسرّك باديه وتحت أديمه ... نميمة غش تبتري عقب الظهرِ

تبين لك العينان ما هو كاتم ... من الغل والبغضاء بالنظر الشزرِ

وقيل أن سويد بن صامت الأوسي، كان داعية لرسول في يثرب، وقد جاء قوم إلى مكّة وبايعوا رسول الله في بيعة العقبة (موقع بين منى ومكة) وعيّن منهم رسول الله اثني

عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس منهم الشاعر عبد الله بن رواحه الخزرجي، وأسيد بن حضير الأوسي، وأثناء البيعة سمع القوم صرخة الشيطان من رأس العقبة قائلاً: يا أهل الجباجب (منازل منى) هل لكم في مذمم والصباة (أي محمد والصابئة) قد اجتمعوا على حربكم، فطمأن رسول الله أصحابه قائلاً «هذا أزيب بن أزيب إنه شيطان العقبة»(٦٠).

على أثر بيعة العقبة، شدّت قريش ورصت صفوفها وقام دعاتها في وجه محمد (ص) وأصحابه، يجادلونه مدافعين عن آلهتهم، قال محمد بن اسحق «وأقبل عبد الله بن الزبعرّي السهمّي، وجلس حول الكعبة، فقال له الوليد بن المغيّرة: زعم محمد أنّا وما نعبد حطب جهنم. فقال عبد الله: نحن نعبد الملائكة، فذكر ذلك للرسول فقال كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من يعبده، إنهم يعبدون الشياطين»(٦١).

كان الوليد بن المغبرة سيّد قريش وكان يحب أن ينزل الله عليه الوحي، كعتبة بن ربيعة سيّد ثقيف وهما رجلان من صفوة القوم، وقيل إنهما المقصودان بقوله تعالى: وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» سورة الزخرف آية ٣١).

ولأول مرة تقف قريش ومن معها وقفة رجل واحد وتشكل حزباً ضد محمد وأتباعه وتمنع الاختلاط بهم والتعامل معهم مما اضطر الرسول (ص) إلى الهجرة إلى يثرب.

ـ لِمَ أخفقت الدعوة المحمدّية في مكّة؟

يخيل إليّ لأن الفكر القبلّي في مكّة كان أكثر رسوخاً لاعتمادهم على ثقافة وثنية قائمة على مصالح اقتصادية وغنى طبقة أوليغارشية لا قبل لمحمد وأصحابه الفقراء من الانتصار عليها رغم حرية التعبير والدعوة المفتوحة أمام كل الديانات الموحّدة والوثنيّة في مكّة.

استطاع الرسول (ص) تحليل الموقف وأدرك الدور التجاري للسوق، وحمل تجربته تلك إلى يثّرب المدينة ذات الاقتصاد المركّب من تجارة وزراعة وحرف وصنائع بالإضافة إلى تعدد الثقافات والديانات والأعراق المختلفة، وكانت الديانة التوحيديّة اليهودية هي الديانة السائدة، وكانت الوثنية ضعيفة الانتشار، وكان الصراع القبلي بين الأوس والخرزج يكاد يقضي عليهم، ذكر اليعقوبي «أنهم أهل عز ومنعة حتى كانت بينهم الحرب التي أفنتهم في أيامهم المشهورة (مثل يوم بعاث) واجترأت عليهم بنو النضير وقريظة وغيرهم من اليهود، فخرج قوم منهم إلى مكة يطلبون قريشاً لتقويتهم فاشترطوا عليهم شروطاً لم يقنعوا بها، وقدم رجل منهم إلى مكة بعد مبعث رسول الله يقال له (سويد بن الصامت) من الأوس حاجاً أو معتمراً فبلغه أمر الرسول، فقال له سويد: إن معي مجلة لقمان..»(٦٢) وقد فصلنا في الخبر من قبل.

الهجرة إلى يثرب:

كان أول المهاجرين إلى يثرب أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وعندما علمت قريش بالخبر اجتمعوا في دار الندوة للتشاور، قال ابن عباس «فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ نجدي جليل عليه كساء غليط، قالوا: من الشيخ؟ قال: من أهل نجد. فدخل معهم، وقالت قريش: احبسوا محمداً بالحديد، فاعترض الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، وقال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة شاباً نسيباً ونعطيه سيفاً صارماً، ثم يقدموا إلى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فقال الشيخ: هذا الرأي لا أرى غيره»(٦٣).

وخرج رسول الله وأبو بكر، في رحلة مشهورة لا حاجة لذكرها، ووصلوا إلى يثرب بعد عدة أيام، واستقبله أهل المدينة بالإنشاد والدفوف، استقبال المنقذ، أو المخلّص وكل يريده أن ينزل بداره.

ماذا فعل الرسول في المدينة؟

أول عمل له أن وطدّ التآخي الاجتماعي بين السكان داخل المدينة وجوارها، **وكتب صحيفة**، شبه معاهدة بين الأنصار والمهاجرين واليهود، حدد فيها حقوق وواجبات كل الأطراف، وأقر لليهود المحافظة على أموالهم ودينهم على أن لا ينصروا كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن أهل يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس وأن الله جار لمن برّ وأتقى وأن محمداً رسول الله. وألقى في المدينة خطبة الجمعة المشهورة «أمّا بعد، أيها الناس قدمّوا لأنفسكم، تعلّمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعّن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولَن له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه، ألم يأتك رسول فبلغك» وهذه أول مرة يطلق رسول الله على نفسه هذا اللقب الكريم، لقب رسول الله.

والعمل الثاني، أشرك الرسول (ص) كل أهل المدينة في قافلة العير التجاريّة المتجهّة نحو بلاد الشام وصار الناس شركاء في الثّروة، وهذا تكافل اجتماعي عرفته بعض القبائل العربية، كالاشعريين كانوا إذا أرملوا (أصابهم جوع) أومّر بهم غزو جمعوا مالهم في ثوب واحد وتقاسموه، وقد أثنى الرسول على عادتهم هذه وطبقها في التجارة، وكانت هذه الخطوة الأولى إلى تقارب الناس ومحبتهم لبعضهم، قال الفيلسوف الألماني ماكس فيبر (١٨٦٤ ــ ١٩٢٠): إن ما يحكم تصورات الإنسانية بطريقة مباشرة، هي المصالح المادية والمثالية وليس الأفكار، وقد فسّر دونالد كراي قوله هذا، لأن المصالح الماديّة بدون المصالح المثالية تصبح خالية تماماً من أي معنى أو مغزى، وكذلك المصالح المثالية بدون المصالح المادية فإنها تصبح عاجزة إلى أبعد حدود العجز»(٦٤).

كوّن محمد (ص) أول حزب لله في الجزيرة العربية، وهذا لا يعني أن كل من أسلم آمن بما قاله رسول الله «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً» سورة التوبة آية ٩٧.

انصاع زعماء الأوس والخزرج لرسول الله إلا عبد الله بن أبي سلول العوفي وهو من أشراف الخزرج وقد قيل أنهم قد نظموا له الخزر ليتوجوه عليهم ملكاً، وإذا برسول الله يأتيهم مهاجراً فانصروا عن أبي سلول، فدخل الإسلام كارهاً لأن الإسلام قد استلبه ملكه، واضمر للرسول العداوة وصار الرسول يعطيه من سهم المؤلفة قلوبهم. وعندما قويت سلطة الرسول في المدينة جاءته القبائل المحيطة بالمدينة وبايعوه وقبل بيعتهم وهو يعلم ما في قلوبهم لأن الله أخبره «ومن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم» سورة التوبة آية (١٠١).

ومع ذلك فقد أصبح الرسول قوة وصار يترصد تجارة قريش ويتعرض لها وجرت **معركة بدر** في السنة الثانية للهجرة (٦٢٣م) وانتصر الرسول وأصحابه وقتل رؤساء الشرك، وأرادت قريش أن تنتقم وتثأر فحشدت ثلاثة آلاف مقاتل من أصحاب العير والأحابيش ومن أطاعهم من قبائل كنانة وأهل تهامة ممن تضررت مصالحهم، وخرج الرسول لملاقاتهم في سبعمائة رجل ومعهم خمسون رجلاً من الرماة وتلاقوا قرب جبل أحد يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثالثة للهجرة (٦٢٤م) وكان صاحب لواء قريش أبو سفيان واقتتل الناس وقتل حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وكاد المشركون أن ينتصروا، وصرخ صارخ من قريش (آلا إن محمداً قد قتل)، وصاح أبو سفيان (إن الحرب سجال يوم بيوم اعلُ هبل). وانصرف ومن معه.

أخذت قريش تتراسل مع اليهود، وخشي الرسول من غدر بني النضير الذين خرجوا إلى خيبر تاركين وراءهم في الحصن أموالهم واستولى الرسول عليها ووزعها على المهاجرين دون الأنصار، لأنه استلمها دون حرب.

أما بالنسبة للزراعة فقد أخذ الرسول في تنظيمها، وكان قد أهملها من قبل وعن أبي أمامة الباهلي أنه رأى سكة وشيئاً من آلة الحرث في دار أحد الأنصار فقال «لا يدخل هذا بيت قوم إلا دخله الذل». وبعد فتحه لحصن خيبر أعطى لأزواجه كل سنة مائة وسق أو ستين صاعاً من تمر وعشرين وسقاً (حمل بعير) من شعير، وفي زمن عمر بن الخطاب (رض) خير أزواجه بين الاوساق أو الأرض والماء فاختارت عائشة وحفصة الأرض والماء. وحدد الرسول المؤاجرة وكراء الأرض والمساقاة بجزء من الثمر والزرع، ومنع بيع فضل الماء والكلأ، ونهى عن بيع الثمر قبل نضجه ونهى عن الربا، وحث على مساعدة المحتاج والعائل عن طريق الزكاة.

الرسول (ص) ويهود يثرب:

من مصلحة الإسلام حين الهجرة إلى المدينة مهادنة اليهود لأنهم أهل توحّيد قال تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» سورة البقرة آية ٦٢.

وقد رحبّ به بعض اليهود ومنهم رجل من أهل الشام يقال له ابن الهيبان، لما حضرته الوفاة قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع، وإنما قدمت انتظر خروج نبي قرب زمانه في هذه البلدة (يثرب) فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء لمن خالفه»(٦٥) هذه من مقولات اليهود بعد فتح حصن خيبر، لأن الرسول (ص) نبي الرحمة.

وممن اتبع الرسول من اليهود وصدق إيمانه الحصين بن سلام بن الحارث بن ثعلبة بن فطيوّن من بني قينقاع، كان عالماً يعلِّم في المدراس، جاء إلى الرسول عندما علم بقدومه، وكان يناصر الرسول في جداله مع اليهود ويطلعه على خبايا التوراة والزبور، قال ابن صلويا الفطيوّني «يا محمد، ما جئتنا بشيء لا نعرفه، وما أنزل الله عليك آية خاصة بك فنتبعك لها، فأنزل الله قوله «ولقد أنزلنا إليك آيات وما يكفر بها إلا الفاسقون». وقال له عبد الله بن صوريا الأعور، يا محمد ما جئتنا به نعرفه من قبل، وما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتدي(٦٦). فناشده رسول الله! أتعلمون أنـي رسول الله؟ قال: اللهم نعم. وأن القوم ليعرفون ما أعرفه، ولكنهم حسدوك، قال: فما يمنعك أنت؟ قال أكره خلاف قومي وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم»(٦٧).

وعلى أثر مجيء سلمان الفارسي إلى المدينة، تغير الخطاب القرآني تجاه اليهود، وعندما قال عبد الله ابن صوريا لرسول الله وكان جالساً في بيت المدارس ومعه جماعة من اليهود ودخل عليهم الرسول وسلمان الفارسي، سألوا: على أي دين أنت يا محمد؟ قال على ملة إبراهيم ودينه. قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال الرسول: هلموا إلى التوراة بيني وبينكم، فأبوا»(٦٨). **لِمَ لم يقبلوا بالتوراة؟**

لأن إبراهيم عليه السلام في التوراة رجل آرامي وهو حنيف مسلم قبل مجيء موسى عليه السلام. قال تعالى «يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون»سورة آل عمران أية ٦٥.

بدأ الرسول يفصم عرى التلاحم والتواصل بينه وبين اليهود، عندما توجه نحو البيت الحرام وحسب حديث البراء بن عازب، أن النبي كان أول ما نزل بالمدينة صلّى إلى بيت المقدس سنة ونصف وكان اليهود قد أعجبهم ذلك(٦٩). وعند ما أنزل الله قوله «فَولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره» سورة البقرة أية ١٤٤، فجاء أحبار اليهود وقالوا: يا محمد، ما ولاّك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها فنصدقك فانزل الله قوله «وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول» سورة البقرة أية ١٤٣.

بدأ المنافقون يتحالفون مع أحبار اليهود ويروجون الإشاعات ضد رسول الله، ومنهم عبد الله بن أبي سلول من إشراف الخزرج ومعه كعب بن الأشراف من بني النبهان من طيء وأمه من بني النضير أخذ يسخر من قول الرسول يأتيه الخبر من السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فأنزل الله الخبر على رسوله وأرسل بعض الرجال يطلبونها في الشعب وقد حبستها شجرة بزمامها فذهبوا فوجدوها كما وصفها الرسول لهم»(٧٢). فأسلم كعب بن الاشراف وحسن اسلامه.

وكانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس للهجرة (٦٢٧م) القشّة التي فصمت ظهر البعير عندما ذهب بعض أحبار اليهود إلى مكّة ودعوا قريشاً لمحاربة رسول الله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، وأفديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه»(٧١) وحزّبوا الأحزاب على رسول الله وخرجت قريش بقيادة أبي سفيان ولكنهم فوجئوا بحفر الخندق حول المدينة وكان ذلك بمشورة سلمان الفارسي، ورجعوا خائبين، وانطلق رسول الله نحو بني قريظة وحاصرهم في حصنهم خمساً وعشرين ليلة، وقبض على زعيمهم حيّي بن أحطب، فقال للرسول: أما والله مالت نفسي في عداوتك ثم أقبل على الناس. فقال لهم: يا أيها الناس، لابأس بأمر الله، كتاب وقدر ملحمة (قتل) كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلب فضربت عنقه»(٧٤) وقبض على امرأة شابة هي ابنته وقتلت، قالت عائشة زوج النبي: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة لأنها طرحت رحى على خلاد بن سويد فقتلته، وكانت عندي تتحدث معي وتضحك بينما رجالها يقتلون في السوق، وإذا هاتف باسمها، قالت: أنا والله قلت لها: ويلك مالك؟ قالت اقتل، قلت: ولِمَ؟ وروت ما أحدثت وانطلقت وضُربت عنقها».

وأثناء المسير نحو بني المصطلق تخاصم رجلان من الأنصار والمهاجرين، فقال: عبد الله بن أبي سلول: قد كاثرونا في بلادنا، وكما قال الأولون: سمِّن كلبك يأكلك» أمّا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل!

وعندما سمع رسول الله قوله، أخبر أسيد بن حضير بالأمر فقال «هو والله الذليل وأنت العزيز»، ثم صار عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين، وهو الذي أشاع حديث الإفك، عن زوج رسول الله عائشة (رضي الله عنها). وأنزل الله فيه: «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم.. لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم، والذي توّلى كبره منهم له عذاب عظيم» سورة النور آية ١٠.

أصبح رسول الله السيد المطاع في المدينة وما حولها من حصون، وبدأ يحضّر سراً لفتح مكة وتم له ذلك في السنة الثامنة من الهجرة (٦٣٠م)، وبعدها بعام جاءته الوفود تعرض عليه البيعة، والانصياع لأمر الله، وتمّ نصر الله والفتح، ولكن الرسول (ص) بقي في المدينة المنوّرة، وصارت هي عاصمة الإسلام، مما أثار حفيظة المنافقين عليه.

«وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا» سورة الاحزاب آية ١٢ و١٣.

لقد خاب مسعى قريش والمنافقين وانتصر الإسلام وعمّ الدنيا انطلاقاً من المدينة المنورة وصارت مكة قبلة العرب والمسلمين، تُشَّد إليها الرحال كل سنة في الحج، وغمرهم الله بكرمه وازدهرت أحوالهم.

الرسول (ص) ونصارى العرب:

يطلق المسلمون على الديانة المسيحية إسم النصرانية، وهذه التسمية صحيحة لأن العرب عرفوا المسيحية عن طريق المبشرين أتباع ماني (البارقليطس) الذي أرسله المسيح مخلصاً كما ادعى ماني، وهو الذي وصف المسيح بكلمة الله التي ألقاها إلى مريم، وهو الذي قال عن المسيح أنه تكلْم في المهد صبياً والمسيحيون ينفون ذلك، وهو الذي لم يصلب ولم يقتل وإنما شبّه لليهود وصلب عنه أحد حواريه يهوذا الأسخريوطي، والمسيحيون ينفون هذه الهرطقة لأن في صلبه خلاص للبشر من الخطيئة الأولى، والمانويّة هم الذين قالوا بعودة المسيح المنتظر ليملأ الأرض عدلاً، وأنه رسول الرحمة وصوت الضعفاء وهو ذو جسم نوراني لا تأثير للشيطان عليه، يظلله الغمام أينما ذهب. وكان يجري جدال بين اليهود الذين ينتظرون مجيء المسيح من جيل إلى جيل وتكرر الوعد به في المزامير وفي نبؤات الأنبياء لاسيما أشعيا، وكان اليهود يظنونه ملكاً يخلصهم مما هم فيه من العذاب الدنيوي لا بالخلاص من الخطيئة الأولى، وكان منهم رجل عجوز اسمه سمعان الآرامي، كان رجلاً تقياً ينتظر الفرج لإسرائيل ونزل عليه روح القدس وأوحي إليه «لا تذوق الموت قبل أن ترى مسيح الرب» ولما دخل بالطفل يسوع أبواه، حمل الطفل على ذراعيه وقال: ربّ أطلق الآن عبدك بسلام فقد رأت عيناي ما أعددته لخلاص الشعوب» لوقا ٢ : ٢٥.

ولكن المانوية أعطت تصوراً آخر للسيد المسيح، إنه رسول الله الذي لم يصلب. وإنه سوف يتلوه عدة رسل كان منهم ماني، قال الباحث الأستاذ فالح مهدي «إن الذين يدينون بالمسيحية في الجزيرة العربية لا يعرفونها إلا معرفة سطحيّة، إضافة إلى أن هذه الديانة النصرانية تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار التي تسود في مجتمع صحراوي ذي نزعة مادية»(٧٣).

وأظن أن ما ذكره كتّاب السيرة النبوية حول الشخصيتين الهامتين في حياة الرسول هما من النصارى وليسوا من المسيحيين. لأن الخلاص في المسيحية من الإيمان بالسيد المسيح والخلاص في النصرانية من الإيمان بالناموس أو الشريعة.

كان الراهب بحيرى في بصرى الشام، والقس ورقة بن نوفل في مكة.

الراهب بحيرى:

مجمل ما تذكره الرواة أنه راهب كان لديه علم النصرانية وقد عاش مفرداً في صومعته منذ كان راهباً، وعندما قدم محمّد وعمه أبو طالب من مكّة في قافلة العير التجارية، وكان عمر محمد حوالي اثنى عشر سنة، شاهد الراهب بحيرى غمامة تظله من بين القوم، وعندما نزلوا في ظل الشجرة، تهصرت أغصانها على محمّد حتى استظل تحتها. نزل بحيرى من صومعته ودعا القوم إلى طعام.

وحضر محمد مع القوم وجعل بحيرى يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده وساله: يا غلام بحق اللاّة والعُزّى، فرد عليه لا تسألني بهما.

فقال بحيرى بالله إلا ما أخبرتني عما اسألك، فسأله عن نومه وهيئته وأموره فجعل الغلام يخبره، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على الصفة الموجودة ـ عند المانوية ـ عن كتاب فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر، وقال بحيرى لعمه أبي طالب احذر عليه يهود»(٧٤). وفي رواية أخرى أن هذه الحادثة وقعت للرسول وهو ابن خمسة وعشرين سنة عندما خرج في تجارة لخديجة بنت خويلد. وفي هذه الرواية أن بحيرى قال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة التي ما نزل تحتها قط إلا نبي»(٧٥). هذه الرواية نقلها ميسّرة غلام خديجة إلى ورقة بن نوفل.

ورقة بن نوفل:

هو ابن عم خديجة زوج رسول الله (ص) كان مانوياً ثم تنصر، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل، وعندما أُخبرته خديجة بما حدثها ميسرّة فقال لها: لئن كان حقاً يا خديجة ما قاله ميسرّة، إنه نبي هذه الامة المنتظر».

وعندما نزل الوحي إلى الرسول وأنبأته خديجة بالأمر قال ورقة «قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان ياتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له، فليثبت»(٧٦). وقال عنه الرسول (ص): لا تسبوا ورقة فإني رأيته في ثياب بيض»(٧٧) وكان ورقة وصحبه من النصارى يصلون ثلاثة أوقات في اليوم ويلبسون الثياب البيض، وهذ يخالف ما عليه اليهود والمسيحيين، قال كارل بروكلمان «إن ما يظنه الكتّاب الغربيون خطأ في فهم الإسلام لمادة الإنجيل، راجع إلى أن القرآن قد تضمّن آراء طوائف مسيحيّة اضطهدها ملوك النصارى وبطاركتهم»(٧٨).

فهذا أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان كان قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح فقيل عنه (الراهب)، أتى الرسول قبل قدومه إلى المدينة، فقال: ما هذا الدين الذي جئت به يا محمد؟ قال: جئت بالحنفية دين براهيم؟ قال: فأنا عليها وإنك أدخلت في الحنفية ما ليس فيها. قال الرسول: ما فعلت ولكني جئت بها بيضاء نقية. قال عبد عمرو: الكاذب أماته الله طريداً غريباً.

قال رسول الله: أجل فمن فعل الله به ذاك. ثم خرج أبو عامر إلى الطائف ومنها إلى بلاد الشام فمات طريداً غريباً وحيداً فقال فيه كعب بن مالك:

معاذ الله من عمل خبيث كسعيك في العشيرة عبد عمرو

فإما قلت لي شرف ومال فقدماً بعت إيماناً بكفر

الرسول (ص) ومسيحيو نجران:

كانت نجران إحدى المدن الهامة على طريق التوابل والبخور، وكانت من المدن الهامة التي تحكمها دولة كندة، ولأهميتها التجارية اهتمت بها دولة بيزنطة، فأرسلت إليها بعثات تبشيريّة وكان حجر بن عدي الكندي من الثنوية (مانوياً) اضطهد المبشرين قال اليعقوبي «دخل قوم من العرب دين اليهود ودخل آخرون في النصرانية، وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية ومنهم حجر بن عمرو الكندي»(٧٩). كان يؤمن بالنور الإله القديم الذي فكّر فكرة رديّة حدثت منها الظلمة (إله الشر) ونزّه الله عن فعل الشر. وصار عرب الجزيرة يعبدون الشياطين وهم الذين قال الله فيهم «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وإن اعبدوني هذا صراط مستقيم» سورة يس آية ٦٠.

كان المانوية ينكرون عبادة الشيطان وإنما يتقربون إليه اتقاء لشره، كما يعبد العرب الاوثان لتقربهم إلى الله زلفى. وكان الأقرع بن حابس من المانويّة أسلم وشهد مع الرسول فتح مكة والطائف وحنين وكان من المؤلفة قلوبهم وقيل حسن اسلامه فيما بعد.

كيف دخلت المسيحية منطقة نجران؟

روايات المؤرخين العرب غير دقيقة لأنها تعتمد على الحديث الشفهي، فهذه رواية وهب بن منبه قال «وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل وهم أهل فضل واستقامة، دعاهم إلى دين المسيح الحق رجل يقال له (فيميون) وقع بين أظهرهم، وكان لا يأكل إلا من كسب يديه، وكان بناء يعمل الطين ويعظم يوم الاحد، سأله سيده عبد الله بن الثامر عن دينه فأخبره به. وكان أهل نجران يعبدون شجرة (نخلة كبيرة) يعيدّون لها في كل سنة ويعلقون عليها الثياب الحسنة وما وجدوه من حلي النساء، فقال لهم فيميون إنها شجرة لا تضر ولا تنفع، ولو دعوت عليها إلهي الذي أعبده (يعني المسيح) لأهلكها. فقال له عبد الله! افعل فدعا عليها، فأرسل الله عليها ريحاً فجعفتها من أصلها فألقتها، فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دين عيسى بن مريم»(٨٠). إن تلك الرواية هي أقرب إلى الواقع التاريخي، فهذا أبو حارثة أسقف نجران (من

بني بكر بن وائل) كان مسيحياً درس الكتب المقدسة حتى حسن علمه وكان ملوك بيزنطة قد شرّفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس، لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده وعندما قدم على رسول الله في وفد مؤلف من ستين رجلاً قابل النبي ورجع دون أن يسلم، وعندما سأله أخوه: ما يمنعك أن تسلم؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم (يعني ملوك الروم) شرفونا وأكرمونا وموّلونا، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى»(٨١) وعليه فأهل نجران مسيحيون وأهل مكة نصارى.

كان كتّاب السيرة يجهلون التأويل الفلسفي لطبيعة السيد المسيح المكوّنة من اللاهوت والناسوت، وكذلك يجهلون التثليث المقدس، رغم أنهم يعرفون حبل البتول الطاهرة مريم وأن حبلها قد تم بمعجزة إلهية، فهم لا يفسرون عبارة (ابن الله) تفسيراً مادياً (فيزيولوجياً) بل تفسير مجازياً لأن الله العربيّة غنيّة بمجازاتهافعبارة (ابن السبيل) تطلق على الفقير المعدم الذي تحق عليه الصدقة.

مفهوم التثليث في المسيحيَّة والإسلام:

كانت بداية مناقشة مفهوم التثليث يوم قدوم وفد نصارى نجران، سنة (٦٣١م) عندما جاء وفد بني الحارث بن كعب وعلى رأسهم قيس بن الحصين ذي الغصّة مع الأسقف أبو حارثة ابن علقمة، قالوا للرسول: إنك تثلث مثلنا. قال: كيف؟ قالوا: ألم يقل سبحانه وتعالى «إنّا نحن نزلّنا عليك القرآن تنزيلاً» وحمله إليك جبريل عن الله سبحانه وتعالى وهو الواسطة بين الأب والابن، قال ابن تيمية «روي أن من النصارى الذين وفدوا على النبي (ص) في وفد نجران قالوا: في تأويل (إنّا ونحن) على الآلهة الثلاثة، لأن هذا ضمير جمع يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه»(٨٢). لو أن المسيحيين في الثالوث ثلاثة آلهة لكان قول ابن تيمية صحيحاً، ولكن تلك هي بدعة مثلثي الآلهة التي قال بها يحيى النحوي وحاربها المسيحيون، والتي قال عنها القرآن الكريم بحق «لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد» سورة المائدة آية ٧٣.

وبما أن كل شيء هو جزء من مساره التاريخي والحضاري أقول: إن فكرة التثليث المقدس فكرة قديمة في الحضارات الشرقية. وردت عند الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندري (٢٠ق.م ــ ٥٤م) الذي زعم «أن اللوغوس Logos هو الكلمة وهو مبدأ الإنفصال بين الأشياء المتضادة في الكون وعن هذا الانفصال نشأت المخلوقات واللوغوس يعلو عليها، علق ويل ديورانت على قوله «كان فيلون معاصراً للمسيح، وقد أسهم في غير علم منه في تكوين اللاهوت المسيحي لأن الله عن طريق الكلمة (اللوغوس) والعقل الفعّال (النوس) كشف عن نفسه للإنسان»(٨٣).

وللحقيقة أقول أن كلمة ثالوث لم ترد في الكتاب المقدس بشكل صريح وإنما تضمنتها أقوال السيد المسيح (من رآني رأى الأب) (انجيل يوحنا ١٤ : ١٠). وأول فيلسوف مسيحي دافع عن التثليث المقدس Trinity هو ترتوليان (توفي ٢٢٥م) قال «إن المسيح إله حق»(٨٤). ثم جاء مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ليرد على بدعة آريوس الذي قال أن المسيح دون الأب مرتبة وزمناً وأنه عبد الله، فرد عليه المجمع بصياغة قانون الإيمان «نؤمن بإله واحد مؤلف من الآب والابن والروح القدس، إله واحد وجوهر واحد متساويان في القدرة والمجد»(٨٥).

وحسب قانون الإيمان آمن العرب المسيحيون على اختلاف طوائفهم (اليعقوبية والملكية والنسطورية). وكان العرب قبائل تمتد من ديار بكر ووائل وربيعة في الشمال إلى ديار كندة في الجنوب ومن الحيرة إلى الحجاز غرباً. قال أبو عثمان الجاحظ في رسالته الرد على النصارى «إن العرب كانت النصرانية فيها فاشية وعليها غالبة إلا مضر، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها على لخم وغسان والحارث ابن كعب بنجران وقضاعة وطيء، في قبائل كثيرة وإحياء معروفة، ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وإفناء بكر بن وائل»(٨٦).

كان العرب المسلمون يتناقشون مع العرب المسيحيين في التثليث المقدس واستمر النقاش طيلة القرون الأربعة التالية، ويبدو أن النقاش لم يتطور في حلقات الفقهاء ولكنه اختلف عند الفلاسفة وعلماء الكلام، وكان الفقهاء يصرّون على ما جاء في سيرة ابن هشام، يقولون: عيسى هو ولد الله وهو ثالث ثلاثة، ذلك قول النصرانية، ودليلهم على أنه هو الله بأنه كا يحيي الموتى ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً، ويحتجون أنه ولد الله، أنه لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يكن لأحد من ولد آدم مثله، ويحتجون، أنه ثالث ثلاثة يقول الله «فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا» ولو أن الله كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت، وينتهي الحوار بما قاله الرسول (ص) للحبران من وفد نجران: أسلما، فقالا أسلمنا، فقال لهم لم تسلما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما ولم يجبهما»(٨٧). والابن في اللغة اليونانية نسبة كأن تقول (ابن السبيل) للرجل الفقير ولا تعني الأبّوة الفيزيولوجية.

ويروي لنا الحاجظ ما جرى بينه وبين النصارى من نقاش حو التثليث، قال: فإذا سألتهم عن عيسى بن مريم. كيف يكون إلهاً وهو الموصوف بجميع صفات الإنسان؟ قالوا لك: إنه لم ينقلب عن الإنسانية، ولم يتحوّل عن جوهر البشرية، ولكن لما كان اللاهوت فيه صار خالقاً وسمي إلهاً»(٨٨) ودليلهم على ذلك: كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهد؟ فإذا أجبناهم «إذ قال الله لعيسى بن مريم، اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد». أجابونا «إنّا تقولنا وروينا عن غير الثقاة ولو كان ذلك حقاً (كلّم الناس في المهد) لكنّا نحن النصارى عليه أحرص»(٨٩) «ولو كان ذلك حقاً لشاع خبره ونقله المؤرخون وآمن به الناس قبل أن يبشرهم ويدعوهم لطريق الله».

أما ما جرى في مجالس الحكمة وعند الخلفاء، كالمناظرة التي جرت بحضرة المأمون، سأل الخليفة المطران أبا رائطة حبيب بن خدمة التكريتي (المتوفى ٨٢٩م): «ما تقولون في الباري سبحانه؟ قال: نقول: إنه جوهر واحد ذو ثلاث صفات أو خواص نسميها أقانيم، كما تقولون في البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) فالله عندنا هو الأب والرحمن عندنا هو الابن أو الكلمة والرحيم عندنا روح القدس، والأقانيم الثلاثة هو إشارة لإله واحد، فكلانا يوّحد الباري. وكتب للمأمون رسالة في الثليث غلب عليها الاسلوب المنطقي ذكر المعاني بالواحد والنوع والجنس، وفيها جمع بين الواحد بالنوع (الجوهر) والواحد في العدد (أقانيم) فرد عليه أبو يوسف ابن اسحق الكندي (المتوفي ٢٥٥ هت ٨٦٩) برسالة في أبطال دعوى النصارى بالتثليث، قال الكندي:

- وأمّا قولهم أن يقال (هو هو واحد بالعدد) كما يقال للواحد هو هو واحد.

- وإمّا أن يقال (هو هو واحد بالنوع) كما يقال خالد وزيد واحد بما عمهما النوع الإنساني.

- وإمّا أن يقال (هو هو واحد بالجنس) كما يقال الإنسان والحمار هما واحد عمهما جنسهما الذي هو الحيوان الحي.

وعليه فالنصارى لا يستطيعون القول (أن الثلاثة هي واحد بأي وجه من الوجوه) وأعجب المأمون برسالة الكندي، وردّه الدامغ على رسالة المطران أبي رائطة.

ولكن الفيلسوف النابه الذكر أبا زكريا يحيى بن عدي (٨٩٣ - ٩٧٤م) ردّ على رسالة الكندي برسالة سمّاها في التوحيّد كتبها في شهر آيار سنة ٩٤٠م قال فيها: «إنك تركت أن تقسم الواحد والكثرة على ضرب آخر من القسمة، إمّا غفلة إن كنت لم تعرفه، وإما تغافلا إن كنت قد عرفته وتجاوزت ذكره.

- وليس تقول النصارى إن الواحد ثلاثة والثلاثة هي واحد على واحد من هذه الوجوه الثلاثة التي عددتها، وذلك:

- إنك تركت ذكر الواحد الذي واحد بالنسبة كما يقال نسبة النبع إلى الأنهار المستمدة منه، ونسبة الروح الذي بالقلب إلى الروح (الدم) الذي في الشرايين واحدة بعينها.

- وتركت قسمة الواحد بالعدد إلى أقسامه الثلاثة كأن يقال واحد بالعدد (كالمتصل) كما يقال جسم واحد بالعدد وسطح واحد بالعدد للأشياء الدالة على ماهية واحدة كالشمول والخمر والحمار والعير والجمل والبعير.

- وتركت أن تقسم الواحد بالكثرة على ضرب واحد من القسمة، قد يكون الواحد واحداً في الموضوع وكثيراً في الحدود أي ما يصدق عليه حدود كثيرة مثلما يصدق في زيد وهو موضوع حد الحيوان وحد الناطق وحد المائت»(٨٩). كما يمكن للواحد أن يكون متعدد الصفات، يمكن أن يكون زيد أباً وعما وخالاً وهو رجل واحد.

ثم وضع يحيى بن عدي كتاباً واحداً في سبعة أبواب في صحة اعتقاد النصارى في التثليث والتأنس في الرد على اليهود والمسلمين، قال فيه: إن الله كامل وبلاعيب من جهة إنه جوهر حي عالم، تجسد في يسوع المسيح وله ثلاث خواص هي الجود والحكمة والعدل، وكما قال برقلس «إن الجواد هو الأب والذي يتصف بالحكمة هو الابن والذي يتصف بصفة القدرة هو روح القدس»(٩٠).

ولأبي الريحان البيروني رأي طريف وهو أن المسلمين لم يوافقوا على ما جاء في انجيل السبعين المنسوب إلى سلمان الفارسي جاء فيه مما أثبت يحنس (يوحنا) الحواري حين نسخ لهم الانجيل عن عهد عيسى بن مريم أنه قال: أنهم ابغضوني مجاناً فلو جاءهم البارقليطس (المُنحمنا) الذي يرسله الله عليكم من عند الرب وروح القدس (أي محمد)، قال البيروني «ولأصحاب ماني انجيل على حدة، يشتمل على خلاف ما عليه النصارى من أوله إلى آخره وله نسخة تسمى انجيل السبعين ينسب إلى (بلامس الرسول) وفي صدره أن (سلام بن عبد الله بن سلام) قد كتبه من لسان سلمان الفارسي ومن نظر فيه لم يخف عليه افتعاله»(٩١). إن المسلمين على الرغم مما جاء في هذا الانجيل من التبشير بالرسول (محمد) صلى الله عليه وسلم، لم يقبله المسلمون وقد نفوا التثليث، لأن التثليث يقتضي المعرفة بالمنطق الأرسطوّي من جهة ومن جهة أخرى وهو الشائع عند العوام أن النصارى تقول بثلاثة آلهة وهذه بدعة حاربتها المسيحية وهي تنسب إلى الفيلسوف يحيى النحوي.

مراجع الفصل الثاني، الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية

١) كتاب الحيوان جـ١ ص١٨٥ الجاحظ تحقيق فوزي عطوي، مكتبة النوري دمشق ١٩٦٨.

٢) أخبار مكة جـ١ ص٦٦ ـ ٦٧ أبو الوليد ابن الأزرقي، المكتبة الماجدية، مكة، ١٣٥٢هـ.

٣) الحضارات السامية القديمة ص٢٠٣ سبتنو موسكاني ترجمة د.السيد يعقوب بكر، دار الرقي بيروت ١٩٨٦.

٤) المصدر السابق ص٢٠٦.

٥) تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص١٨٩ ـ ١٩٠ د. جواد علي طبعة بيروت ١٩٦٩.

٦) مصادر تاريخ الجزيرة العربية جـ١ ص٧٨ محاضرة عرفان شهيد، مطبعة جامعة الرياض ١٩٧٩.

٧) تاريخ الحيرة ص٤٩٤ د. عارف عبد الغني دار كنعان دمشق ١٩٩٣.

٨) كتاب المعارف ص١٠٨ ابن قتيبة تحقيق ثروة عكاشة سلسلة ذخائر العرب القاهرة ١٩٦٤.

٩) تاريخ الحيرة ٤٩٥.

١٠) تلبيس إبليس ص٥٤ ابن الجوزي تحقيق خير الدين علي دار الوعي العربي بيروت.

١١) المصدر السابق ص٣٧.

١٢) المصدر السابق ص٤٤٧.

١٣) العهد القديم (اصحاح اللاويين) العدد ١٥ : ٢٤.

١٤) الحضارات السامية القديمة ص٢٢١.

١٥) كتاب الحيوان للجاحظ جـ٢ ص٣٨٧.

١٦) المصدر السابق ص٣٨٢.

١٧) المصدر السابق ص٣٧٥.

١٨) الملل والنحل جـ٣ ص٨٧ الشهرستاني تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل القاهرة ١٩٦٨.

١٩) المصدر السابق جـ٢ ص٥٧.

٢٠) كتاب العنوان ص٢٦٢ اغابيوس المنبجي تحقيق لويس شيخو مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨.

٢١) الملل والنحل جـ٣ ص٧٧.

٢٢) كتاب العنوان ص٣١٩.

٢٣) مغامرات الأفكار ص٨٩ الفريد نورت هوايتهيد ترجمة أنيس حسن زكي مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠.

٢٤) الملل والنحل جـ٢ ص٧٤.

٢٥) الحضارات السامية القديمة ص٢٠٧.

٢٦) كتاب الحيوان للجاحظ جـ١ ص٦١.

٢٧) أخبار مكّة للأزرقي جـ١ ص٥٤.

٢٨) المصدر السابق جـ١ ص١٣٧ ـ ١٣٨.

٢٩) المصدر السابق جـ١ ص٥٧.

٣٠) G. De Monbynes. Mohamet, P26. Paris. 1957.

٣١) زبدة التفاسير من فتح القدير ص٧٦٩ للإمام الشوكاني تحقيق محمد سليمان عبد الله الأشقر مكتبة دار الفيحاء دمشق ١٩٩٤.

٣٢) أخبار مكّة لابن الأزرقي جـ١ ص٧٢.

٣٣) كتاب الأصنام ص١٧ لابن هشام تحقيق أحمد زكي باشا القاهرة ١٩١٤.

٣٤) السيرة النبويّة جـ١ ص٨٦ تحقيق مصطفى السقا ورفاقه، دار ابن كثير، القاهرة.

٣٥) كتاب الأصنام لابن هشام ص١٦.

٣٦) أخبار مكّة لابن الأزرقي جـ١ ص٦٠.

٣٧) المصدر السابق ص٣٨.

٣٨) كتاب الأصنام لابن هشام ص٥٦.

٣٩) أخبار مكّة لابن الأزرقي ص٧٠.

٤٠) المصدر السابق جـ١ ص١١٥.

٤١) ثلاث رسائل للجاحظ (رسالة القيان) ص٥٧ تحقيق يوشع فنكل القاهرة ١٣٤٤هـ

٤٢) نهاية الأرب جـ١ ص٣٨٦ النويري طباعة مصر ١٣٥٦هـ.

٤٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٢٤٦.

٤٤) المصدر السابق ص٢٤٧.

٤٥) ثلاث رسائل (في الرد على النصارى) ص١٥ للجاحظ.

٤٦) المصدر السابق ص٢٠.

٤٧) المعلقات العشر ص٢٣ أحمد الأمين الشنقيطي دار الكتاب العربي حلب ١٩٨٣.

٤٨) أسد الغابة جـ٢ ص٤١٩ ابن الأثير الجزري تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، كتاب الشعب، القاهرة.
٤٩) المصدر السابق جـ٢ ص٤١٧.
٥٠) ذخيرة الأذهان جـ١ ص ٢٤٧ القس بطرس نصري، مطبعة الآباء الدومنيكيين الموصل ١٩٠٥.
٥١) محطات في التاريخ والتراث ص٢١، هادي العلوي، دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٩.
٥٢) أسد الغابة جـ٢ ص٤١٩.
٥٣) الآثار الباقية للبيروني ص٢٢.
٥٤) كتاب الكامل جـ١ ص٣٧ لابن الأثير تحقيق عمر طبارة بيروت ١٩٥٧.
٥٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب جـ١ ص٢٧٨ محمود شكري الألوسي، دار المشرق العربي، بيروت ١٩٦١.
٥٦) السيرة الحلبية جـ١ ص١٨٥ برهان الدين الحلبي دمشق ١٩٦٤.
٥٧) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٤٢٧.
٥٨) تاريخ العلم جـ١ ص٤٤٠ جورج سارطون ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني دار المعارف بمصر ١٩٦٣.
٥٩) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٣٢٦.
٦٠) تهذيب السيرة جـ١ ص١١٥ لابن هشام تحقيق عبد السلام هارون. حلب ١٩٥٨.
٦١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٣٥٩.
٦٢) تاريخ اليعقوبي جـ١ ص٣٥٦ تحقيق عبد الأمير مهنا مؤسسة الأعلمي بيروت ١٩٩٣.
٦٣) تهذيب سيرة ابن هشام جـ١ ص١٢٠ ـ ١٢١.
٦٤) Donald G. Macrae. Maxweber, Modern Masters, P.P.62 -63 London 1944.
٦٥) تهذيب سيرة ابن هشام جـ١ ص١٣٤ عبد السلام هارون.
٦٦) المصدر السابق جـ١ ص٢١٣ ـ ٢١٤.
٦٧) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ٥٤٩.
٦٨) تلبيس إبليس ص٨١ ابن الجوزي تحقيق خير الدين علي دار الوعي العربي بيروت.
٦٩) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٥٥٢.
٧٠) زبدة التفاسير من فتح القدير ص٢١.
٧١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٥٢٧.
٧٢) تهذيب سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٠٢ عبد السلام هارون.
٧٣) البحث عن منقذ ص١٨٣ فالح مهدي دار ابن رشد بغداد ١٩٨١.

٧٤) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص١٨١ ـ ١٨٢.

٧٥) المصدر السابق جـ١ ص١٨٨.

٧٦) المصدر السابق جـ١ ص٢٣٥.

٧٧) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب جـ٢ ص٢٧١ محمودت شكري الألوسي دار المشرق العربي، بيروت ١٩٦١.

٧٨) تاريخ الشعوب الإسلامية جـ١ص٣٩ كارل بروكلمان ترجمة نبيه أمين ومنير فارس بيروت ١٩٦١.

٧٩) تاريخ اليعوبي جـ١ ص٣١٠ ـ ٣١١.

٨٠) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٣٣.

٨١) المصدر السابق جـ١ ص٥٧٣.

٨٢) مجموعة الرسائل الكبرى ص٩ ابن تيمية دار إحياء التراث بيروت ١٩٦٩.

٨٣) قصة الحضارة جـ١١ ص١٠٥ ول ديورانت ترجمة محمد بدران القاهرة ١٩٦٤.

٨٤) مختصر التاريخ الكنسي ص٣٥ مطبعة الآباء الفرنسيسكان بيروت ١٨٨٩.

٨٥) تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية جـ٢ ص٢٠٢ مارغناطيوس توما يعقوب دمشق ١٩٥٧.

٨٦) ثلاث رسائل للجاحظ (رسالة الرد على النصارى) ص٧٥.

٨٧) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٥٧٥.

٨٨) ثلاث رسائل للجاحظ ص٢٢.

٨٩) المصدر السابق ص٣٨.

٩٠) مقالة في التوحيد ص١١٢ ـ ١١٣ يحيى بن عدي تحقيق سمير خليل سلسلة التراث العربي المسيحي لبنان، ١٩٨٠.

٩١) الآثار الباقية ص٢٢ أبو الريحان البيروني.

الفصل الثالث

أهم الشخصيات المانويّة في الإسلام

- المانوية والإسلام.
- الحسن البصري وأصوله المانوية
- عبد الله بن المقفع، الداعية للمانوية.
- أبو عيسى الوراق، اتهم بالمانوية.
- أبو بكر الرازي لا يخفي حبه للمانوية.

المانويّة والإسلام:

قال ابن منظور في لسان العرب «إن الزندقة كلمة تطلق على القائلين ببقاء الدهر من الملحدين والدهريين والثنوية»(١). وبذلك شملت كلمة الزندقة كل الذين كانوا يقولون «ما يهلكنا إلا الدهر». وأكد ذلك أبو العلا المعري في رسالة الغفران، «الزنادقة هم الذين يسمون الدهرة ولا يقولون بنبوة ولا كتاب»(٢) وقد أضاف معنى جديداً للزنادقة كل منكري النبوات.

هل في كلام العرب كلمة زنديق؟ يجيب أحمد بن يحيى بن المرتضى «أنه ليس في كلام العرب زنديق، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة، قالوا: ملحد دهري»(٣). فكيف نفسر كلام رسول الله (ص) الذي ذكره الغزالي «ستفترق أمتي إلى بضع وسبعين فرقة كلهم إلى الجنة إلا الزنادقة»(٤) معنى هذا أن مصطلح الزندقة كان معروفاً عند عرب الجاهلية، وقد أشار إلى ذلك ابن قتيبة عندما قال «كانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة»(٥) عندما كانت التجارة نشطة بين مكّة وبلاد فارس، وكانت الديانة المانويّة شائعة بين عرب الحيرة، عندما التجأ إليهم أتباع ماني من الأراميين بعد أن تصدت لهم الكنائس المسيحيّة، وكان المانويون يخدعون المسيحيين بتمجيدهم للسيد المسيح، ولكن ينفون عنه كونه الفادي والمخلص لنا عن طريق صلبه، لأجل هذا هاجمهم الكاتب المسيحي أفراهاط (الحكيم الفارسي) في كتابه البيّنات المؤلف عام ٣٤٦ وفيه نعت أتباع ماني بالزنادقة»(٦). وعنه أخذ أهل الحيرة هذا المصطلح وأشاعوه في الجزيرة العربية. وفسر أبو الفرج الأصفهاني كلمة الثنوية بالمانوية قال «ينسب الكتّاب الزندقة إلى المانوية تحديداً»(٧).

ومن المؤرخين من ينسب كلمة الزندقة إلى أتباع هرقليطس دون غيرهم مثل محمد بن موسى النوبختي قال «ومن هؤلاء [الزنادقة] من قال «إن العالم ذوب وسيلان، وقالوا! لا يمكن لإنسان أن يتفكر في الشيء الواحد مرتين لتغير الأشياء دائماً، وإن العالم باقٍ أبداً، كما أنه لا بداية لوجوده ولا نهاية له»(٨).

وكذلك أبو حامد الغزالي قال: «عنى رسول الله (ص) بالزنادقة كفار قريش، الدهريين الذين جحدوا الصانع المدبِّر للعالم، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة»(٩)أي أنهم يقولون الإنسان

قبل خلق آدم لأنه من تراب. ولمفهوم الزندقة أكثر من معنى عند العرب المسلمين، بل لها معاني متعددة، فهي:

ـ عند العامة وأشباههم، يطلقونها على الماجن المتهتك كأبي نواس.

ـ وعند الخاصة يعنون بها الفرس الذين انتسبوا إلى الإسلام ثم أخذوا في بث تعاليمهم القديمة فهؤلاء يدينون بماني أو مزدك ثم يتظاهرون بالإسلام تقيّة أو توّسلاً إلى ضلال الناس»(١٠).

من أين اشتقت كلمة الزندقة؟ اختلف الباحثون في أصل الكلمة، كما اختلفوا من قبل في معناها.

من قال إنها كلمة فارسية:

منهم الحسين بن علي المسعودي، قال: «إن الزنديق من أتباع مزدك، وهو الذي يأتي بتفسير جديد لكتاب زرادشت المعروف (بالافستاه) باللغة الفارسية الأولى، وعمل له تفسير هو الزند، ثم عملوا لهذا تفسيراً وشرحاً فمن عدل عن (الأفستاه) إلى التأويل الذي هو الزند قالوا: زندي، وعربه العرب بقولهم زنديق»(١١) وعنه نقل أبو عبد الله محمد بن يوسف الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم حيث قال «إن كلمة زنديق تنسب إلى زند وهو اسم كتاب مزدك في تأويل الأفستا لزرادشت». ووافقه من المحدثين المستشرق الانكليزي جورج براون بقوله عن كلمة زنديق، إن معناها بالفارسية الشخص الذي يتبع الزند Zand الذي هو نفسه الكتاب المقدس عند الفرس (الآفستا) ثم أطلق على المانوية لأنهم يتبعون زند وغيره من الكتب»(١٢).

من قال إنها كلمة عبرية أو آرامية:

قال الأستاذ هادي العلوي «إن كلمة زنديق تطوير عربي للكلمة العبرية (صدِّيق) ولا علاقة لها بالكلمة الفارسية (زندا) خلافاً لما ذهب إليه الباحثون قديماً وحديثاً لعدم رجوعهم إلى الأصول السامية المشتركة»(١٣) ولأن اللغتين العبريّة والآراميّة من أصل مشترك، قالوا: إن كلمة زنديق تعود إلى أصل آرامي (صدّيقي) ثم حولها الفرس إلى زنديق وأطلقوها على الشخص المتبع لتعاليم ماني.

وأفترض بدوري أن كلمة زنديق من أصل آرامي، حيث كان المانوية يطلقون على الشاب الصدّيق أو الوسيم البريء (Nazug Zadag) وهو الشاب الذي كان يرافق الرجل الصديق في سياحته ولسهولة اللفظ قالت الفرس (زنديك) وعربها العرب باسم (زنديق)(١٤). وإلى هذا المعنى أشار الثعالبي، قال: أما قولهم أظرف من زنديق فقد صار مثلاً في زمن كثر فيه ظرفاؤه وهو زمان المهدي وما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة جميل الشكل ظاهر المروءة»(١٥) ومنه جاء وصف الصولي لأبي نؤاس «له تيه مغن، وظرف زنديق»(١٦).

جاء في تفسير زنديق قول آخر إنها كلمة فارسية مركبة من كلمتين (زن ودين) وتعني دين المرأة. وما ذلك إلا لأن النساء يبطن الكره ويظهرن المودة كأتباع ماني يظهرون محبتهم لدين زرادشت ويبطنون غير ذلك.

وممن قتلوا من العرب والمسلمين رجال اتقياء زهاد وشعراء ومفكرون أحرار أمثال الجعد بن درهم قتل (١٠٨هـ) بتهمة الزندقة(١٧) والشاعر الزاهد صالح بن عبد القدوس، والرجل العابد الزاهد غيلان بن مسلم الدمشقي، وعبد الله بن المقفع الأديب والحكيم، كلهم قتلوا بتهمة الزندقة وأنهم من اتباع ماني، حتى قال ابن النديم «يطلق لفظ الزنادقة على أصحاب ماني ومقتفي مذهبه دون غيرهم».

وقد أحدث الخليفة المهدي ديواناً باسم ديوان الزندقة، وأوصى ابنه الهادي وصيته الشهيرة «يا بني، إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني) فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى عبادة الاثنين، فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بأمرها إلى الله»(١٨).

إن الزندقة كظاهرة ثقافية، لم يتفق على تحديدها في تاريخنا العربي، لأنها مصطلح سياسي أوجده الحكام لقتل خصومهم من المفكرين الاحرار بحجة أعلائهم للعقل ونفيهم لدور النبوة، وكان منهم المعتزلة، قال جعفر بن حرب الثقفي (المتوفي ٢٣٤هـ) «إن العقل يوجب معرفة الله تعالى بجميع أحكامه قبل ورود الشرع»(١٩) مثل هذه الأقوال كانت السبب في تدمير كتبهم وملاحقتهم وقتلهم وهم أبرياء، قال الدكتور عبد الرحمن بدوي، أن تاريخ الزندقة في الإسلام موضوع غامض كل الغموض، ومضطرب كأشد الاضطراب، ويشق علينا أن نبيِّنه بوضوح وأن نتمثله بجلاء»(٢٠).

الحسن البصري سيد التابعين:

الحسن البصري رضي الله عنه، سيد التابعين بلا منازع عند أهل السنة والجماعة، ولكنه مع ذلك شخصية مثيرة للجدل، فالمعتزلة يعتبرونه أول من قال بالعدل والتوحيد، وكان بعض العلوية، يدافعون عنه، وينفون كل اتهام ألصق به، ويعلنون عن حبه لعلي بن أبي طالب (ع) حتى أنهم زعموا، أنه كان يعرض نفسه للخطر من أجله(٢١). وهو عند الصوفية، الذي أدخل علم الباطن إلى الفكر الصوفي، وقيل له: يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك، فمن أين أخذته؟ قال: من حذيفة بن اليمان، وقيل لحذيفة، نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة، فمن أين أخذته؟ قال: خصّني به رسول الله، كان الناس يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن اقع فيه»(٢٢).

كان الحسن البصري آرامي الأصل، استرق والده (يسار) في فتح ميسان سنة ١٢ هـ ٦٣٤م وكان من المبيِّضة (المانويّة) وأسلم على يد زيد بن ثابت الأنصاري، وتزوج أمة للأنصار لبني النجار، اسمها حبرة كانت تعلم القرآن وتقص على النساء في المسجد وكانت أمة لأم سلمة زوج رسول الله، وكان زوجها يسار يعمل في الفلاحة وفي تعليم القرآن، وكان من أشراف قومه فعمل على عتق نفسه، فاعتق سنة ١٢هـ ٦٤٣م في السنة التي ولد فيها الحسن، وقد رأه الخليفة عمر بن الخطاب في حضن أمه، فقال: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس»(٢٣).

تعلم الحسن قراءة القرآن على يد الإمام علي بن أبي طالب، والفقه على سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان، وكان يكثر الكلامن عنهما، وعلى أثر مقتل عثمان بن عفان هاجر إلى البصرة موطن أجداده. كان الحسن طويل القامة، حسن الصورة، قوي البنية، عرض زنده شير، أزرق العينين، جهوري الصوت، يترك لحيته ولا يحف شاربه، وكان يضع عمامة سوداء ويلبس ثياباً بيضاء، ويمشي حافياً، مقلداً بذلك سلمان الفارسي.

بعد ذهابه إلى البصرة اشترك في الفتوحات (٤٣هـ-٥٣هـ) فيما وراء النهر تحت إمرة عبد الرحمن بن سرة والأحنف بن قيس، ثم عاد إلى البصرة، وتأثر بتعاليم عامر بن عبد القيس، الصوفي الذي كان يدعوا إلى ترك الزواج، وأكل اللحم، والزهد في الدنيا وترك المال، والدخول على الأمراء، وكانت له صلة بالتوراة»(٢٤)، وتابعة الحسن البصري في خصاله، وكان يتجنب الاتصال بالامراء، طلبه عبد الله بن الزبير للحضور فكتب إليه «إن لأهل الخير علامات يعرفون بها، فمنها الصبر على البلاء، والرضى بالقضاء، وإنما الإمام سوق فما نفق فيها إليها فانظر أي سوق سوقك»(٢٥).

كان الحسن البصري يميل إلى آل البيت ويتزيّ بزيهم، وكان الحجاج يناديه بذي العمامة السوداء، وأرسل في طلبه يوماً وهو يضمر الشر له، فلما دخل عليه تغير رأي الحجاج لهيبة الحسن وجمال صورته، فلما خرج من مجلس الحجاج، تبعه الخادم فقال: يا أبا سعيد، لقد دعاك لغير هذا لقد أحضر السيف والنطع، فلما أقبلت، رأيتك قد حركت شفتيك بشيء، فما قلت؟ قال قلت يا عدتي عند كريتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب، ارزقني مودته، واصرف عني أذاه ومعرته، ففعل ربي عزَّ وجل ذلك»(٢٦). وكان إبراهيم يدعى في التوراة بالآرامي، ويعتبره الحسن البصري من آبائه.

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز ليعظه، فكتب إليه «أماأهل الدين فلا يريدونك، وأمّا أهل الدنيا، فلا تريدهم وعليك بالأشراف، فأنهم يصونون شرفهم من أن يدنسوه بخيانة»

وكان عمر بن العزيز يعرف قدره ومكانته قبل سبي آبائه. وكان الحسن لا يقبل الهدايا ولكنه قبل هدية الأمير مسلمة بن عبد الملك وهي جبة وخميصة أرسلها له مع مهران بن ميمون، وقبلهما منه.

ولما وليّ عمر بن هبيرة العراق، سنة (١٠٣هـ ٧٢٢) استدعى إليه الحسن البصرّي ومحمد بن سيرين والشعبّي وقال لهم: إن الخليفة يزيد بن عبد الملك استخلفه الله على عباده، وأمره بأخذ الميثاق بطاعته، فما ترون؟ قال الحسن: يا ابن هبيرة، خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله، فالله قد يبعث إليك ملكاً، فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ثم لا ينجيك إلا عملك، يا ابن هبيرة لا تعص الله، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله، وعباده فلا تتركن دين الله، فإنه لإطاعة لمخلوق في معصية الخالق. فقال الشعبي لابن سيرين هذا هو النصح، لا ما سفسفنا له فسف لنا»(٢٧).

كان الحسن البصري يؤثر السلامة، ويمنع الخروج على الحاكم، وعندما ثار يزيد بن المهلب في البصرة (١٠٣ هـ٧٢٢) بين قومه الأزد أرسل إليهم عدي بن أرطأه، وفداً للعدول عن الثورة وكان على رأسه الحس البصري، قال لهم عبد الملك بن المهلب: إنكم واطأتم عدياً على هلاكنا، وليست طاعته واجبة علينا، فرد عليه الحسن: كذبت فغضب ابن المهلب وقال: أتكذبني يا ابن اللخناء، وأخذ بقائم سيفه، وقال: والله لولا أن أعيَّر بقتلك، وأنت في منزلي، لضربت عنقك، فإنك عبد غررت أهل البصرة بتخاشعك، ، وقد حمقت نفسك، وعدوت طورك وقدرك.. فسكت الحسن»(٢٨).

كان الحسن البصري لا يحب العمل لدى الدولة، وعندما زاره ميمون بن مهران سيد التابعين (المتوفى ١١٧هـ ٧٣٦) وكان من سبي عين التمر، قال عمرو بن ميمون: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة فمررنا بجدول، لم يستطع الشيخ أن يتخطاه، فاضطجعت له فمر على ظهري ثم قمت وأخذت بيده ووصلنا إلى منزل الحسن البصري، فطرقت الباب فخرجت جارية سدوسية فقالت: من هذا؟ فقلت: هذا ميمون بن مهران أراد زيارة الحسن، فقالت: كاتب عمر بن عبد العزيز؟ فقلت لها: نعم. قالت يا شقي ما أبقاك إلى هذا الزمان السيء؟ قال فبكى الشيخ وخرج الحسن فاعتنقا»(٢٩) وكان ميمون بن مهران ولّي بيت المال بحران لمحمد بن مروان بعد عمر بن عبد العزيز فكتب إليه غيلان بن مسلم الدمشقي يعظه برسالة فقال ميمون: وددت أن حدقتي سقطت وإني لم آلِ عملاً. قيل له: ولا لعمر بن عبد العزيز قال: ولا العمر بن عبد العزيز!.

لذا كان الحسن فقيراً، زاره خالد بن صفوان التميمي في مرضه ولاحظ أنه لم يكن في بيته سوى سرير منسوج من السعف، وكان يسكن في أخصاص البصرة وإلى جواره يسكن أهل الذمة ومنهم رجل يهودي، وكانت بينهما علاقة رعاية ومجاملة حسنة»(٣٠) ومع ذلك لم يخلُ بيته من اللحم

أو مرقة، ولم يشم أطيب من اللحم عنده قال الجاحظ فلما قلّ عطاؤه أصبحت مرقته بالشحم»(٣١). وكان الحسن يحب من الحلوى الفالوذج، فعابها رجل في مجلسه فقال: فتات البر بلعاب النحل بخالص السمن، ما عاب هذا مسلم»(٣٢) وكان يقول «كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف». ومع ذلك عندما خطبت ابنته، وكان سفير الخطبة تلميذه (حميد الطويل) قال: يا أبا سعيد وأزيدك أن له خمسين ألف درهم، قال الحسن، ما اجتمعت من حلال، لا والله لا تجري بيننا وبينه مصاهرة أبداً»(٣٣). وكان الحسن يردد دائماً «بئس الرفيقان الدرهم والدينار، لاينفعانك حتى يفارقانك» وقال لتلميذه حميد الطويل «كان أهل الجاهلية إذا خطب الرجل إمراة، قالوا: ما حسبه وما حسبها؟ فلما جاء الإسلام، قالوا: ما دينه وما دينها؟ واليوم يقولون ما ماله وما مالها؟»(٣٤).

في أواخر عمر الحسن البصري، صار يندم حتى على زواجه، وكان قد تزوج امرأة جميلة طويلة من دست ميسان، آرامية الاصل ورزقه الله منها ولدين هما سعيد وعبد الله، وبنت لم يزوجها من أهل الشرف والجاه وزوجها من رجل عتاقة مثله، وكان يقول: من يرضى الله عنه يحرمه من الولد والأهل، وصار في أواخر عمره يعيش عيشه الصدِّيقين من المنانية لا يتكلم إلا في أمور الآخرة، وكان الحسن زاهداً في الدنيا فصيحاً سخياً محبوباً، وكان يذم أصحاب الأموال قائلاً: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله، فانظروا في أي شيء ينفقه، فإن المال الخبيث ينفق في السرف، وكان على نقيضه محمد بن سيرين، كان حليماً طويل الصمت كثير الضحك والدعابة، يتحدث في الأخبار والأشعار، وكانت بينهما عداوة ولما مات الحسن سنة (١١٠هـ/ ٧٢٩م) لم يحضر ابن سيرين جنازته»(٣٥) لأنه كان يدعو أخوانه ويغلق بابه، ويتحدث مع كل واحد بمواجيده وذوقه، وما انتجه له علمه من العلوم والأسرار، قال الشعراني: فلولا علموا وجوب كتمانه لم يفعلوا ذلك. «وكان ابن سيرين ينكر عليه ذلك».

عقل الحسن وعلومه:

كان الحسن البصري راجح العقل، قوي الحجة، قال عنه الجاحظ «إنه أخطب الناس ولا نعلم أحداً يتقدم عليه»(٣٦). وكان حسن الطوية، سليم العقيدة، من دعائه «اللهم برّىء قلوبنا من الشرك، والكبر والنفاق والرياء والريبة والشك في دينك يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك، واجعل ديننا الإسلام القيِّم».

وقال عنه خالد بن صفوان كان مستغنياً عن الناس» ولم يكن في بيته إلا سرير منسوج من السعف». وكان يقول: والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل وإلا نصب وذاب وإلا تعب»(٣٧). وعندما صارت المصاحف تدوّن في دكاكين الوراقين وبدأوا في التنقيط نهاهم أبو سعيد قائلاً «جردّوا القرآن ولا تلبسوه بشيء، ثم لما تحقق من فائدة التنقيط سمح به»(٣٨).

هل كتب الحسن البصري كتباً؟ نعم، ولكنه أحرقها قبل وفاته. قال ابنه عبد الله قال لي أبي «اجمع كتبي فجمعتها، ثم قال للخادم: اسجر التنور وحرقها إلا صحيفة واحدة».

لعلها رسالته في القدر أو كتابه في الإخلاص، وكان سبب حرقه لها مخافته أن يختلط الحديث بآرائه، قال الحسن «إن لنا كتباً كنا نتعاهدها»(٣٩).

وكان الحسن يعرف الآرامية بل ويقرأ التوراة بها، قال: كلمات احفظهن من التوراة (قنع ابن آدم فاستغنى، واعتزل الناس فسلم، وترك الشهوات فصار حراً وترك الحسد فظهرت مروءته، وصبر قليلاً فتمتع طويلاً). وهذه من وصايا ماني لتلاميذه وليست من التوراة، وكان تلميذه أبو أيوب البصري (فرقد السبخي) نصرانياً وأسلم وكان يلبس الصوف، كلّم الحسن بالسريانية فردّ عليه بالعربية وقال له: دع عنك نصرانيتك هذه».

وعن أهميّة الحسن اذكر ما قاله ثابت بن قرّة الحرانّي عنه «قال: أحسد هذه الأمة الإسلاميّة على ثلاثة عمر بن لخطاب والحسن البصري والجاحظ».

وأمّا عن تصوفه، قيل أنه لبس خرقة التصوف عن يد الإمام علي (ع)، وحكى عنه فريد الدين العطّار في كتابه (تذكرة الأولياء) قال: يحكى أن الحسن البصري وشقيقاً البلخي ومالك بن دينار غدو لزيارة رابعة العدوية (المتوفية ١٣٥هـ/٧٥٨):

فسألتهم: عن معنى الصدق؟

فقال الحسن: ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه.

فقالت رابعة: هذا غرور!

وقال شفيق: ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه.

فقالت رابعة: بل ثمة أفضل من هذا كله!

فقال مالك: ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه.

فصاحت رابعة: بل ثمة أفضل من هذا كله.

فقالوا لها: تكلمي أنت إذن!

فقالت: ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه مثل نسوة مصر اللائي نسين آلام أيديهن كلمّا رأين وجه يوسف».

وعندما سئل الحلاج: من أين استمد نظريته في الحج؟ قال: أخذتها من كتاب الإخلاص للحسن البصري، وتلك مسألة خطيرة وهي: إن الإنسان قد يستغني عن زيارة الكعبة، بأن يختار مكاناً نظيفاً طاهراً في بيته، فإن كان موسم الحج أقام فيه الشعائر والمناسك التي يؤديها الحجاج». يتضمن هذا النص بداية التأويل، والقول بوحدة والوجود، وقد علق على ذلك عباس محمود العقاد

بقوله: «إن الإسلام ينكر تلك المذاهب، وخاصة مذهبين منتشرين في الصوفية على عمومها، ينكر مذهب الحلول كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود، وإسقاطه التكليف، ويعتزلون من يقول بهما على وجوهها المنقولة من الديار الوثنية»(٤٠).

وفي القرن السابع الهجري أُطلق على الشيخ حسن بن عدي (العدوي) اسم الحسن البصري لأمر ما سندرسه فيمابعد.

أهم الشخصيات المانويّة في الإسلام:

قامت الدولة العباسيّة على اكتاف رجال الدعوّة من أهل خراسان، وأصبح للموالي مكانة أعلى من مكانة العرب، وقد برر لهم الفقهاء، ذلك بتفسير قوله تعالى «نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم آئمة ونجعلهم الوارثين». وكان الخليفة المنصور أول من استعمل مواليّه في الأعمال وقدمهم على العرب، حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها»(٤١) وكان المنصور أول خليفة في الإسلام لا يعمل إلا بإرشاد المنجمين، مما جعله من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف»(٤٢)، وهو أول خليفة عباسي يقتل بلا رحمة بتهمة الزندقة كل من خالفه في الاعتقاد، وممن قتلهم.

الكاتب الفيلسوف عبد الله بن المقفع (١٤٢هـ ٧٦٠).

كان من أبرز الشخصيات الثقافية في الأدب العربي في كافة العصور، جاءت عائلته إلى البصرة من بلدة جور (فيزور آباد حالياً) وكان والده داذويه على خراج فارس وقد اتهمه الوالي الأموي يوسف بن عمر الثقفي بتهمة الاختلاس وضربه حتى تقفّعت يديه وعندما ولد (روزبة) أي المبارك في البصرة تعلم العربية والفارسية والسريانية، وفي الدولة العباسيّة صار كاتباً لأعمام الخليفة المنصور وكان في السادسة والعشرين من عمره واختص به عيسى بن علي العباسي والي الأهواز وعلى يديه أسلم وسماه عبد الله بن المقفع وذاع صيته، ولتميُّزه على أقرانه أثار حفيظتهم عليه، ذكر محمد بن عبدوس الجهشاري «أن الذي قتل ابن المقفع هو أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لأبي أيوب المورياني، وقد أنكر عليه شيئاً «كأنك تحسب أني لا أعرف موضع أكتب خلق الله وهو ابن المقفع مولاي» فلم يزل أبو أيوب حانقاً عليه يسعى ويدب في أمره حتى قتله»(٢٣).

عمل عبد الله بن المقفع في بلاط المنصور مترجماً عن الفارسية والسريانية، ونقل إليه كتاب كليلة ودمنة وأضاف إليه باب برزويه وهو دعوة للمنانية، وعندما حقد المنصور على ابن المقفع استغل ما وجده في باب برزويه في دفاعه عن العقل وتقليله لشأن الدين.

جاء فيه «وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومنّ به عليهم العقل، الذي هو الدعامة لجميع الأشياء، والذي لا يقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته، ولا إحراز نفع ولا دفع ضر، وكذلك طالب الآخرة المجتهد في العمل، المنجي به روحه، ولا يقدر على إتمام عمله إلا بالعقل الذي هو سبب كل خير ومفتاح كل سعادة»(٤٤).

أثار هذا الفصل حفيظة الفقهاء، لأن سعادة الإنسان وخيره منوطان بكتاب نبيّه لا بالعقل الإنساني. **هل كان هذا الفصل في الأساس من كتاب كليلة ودمنة؟** طبقاً لما يذكره البيروني هو من إضافة عبد الله ابن المقفع قال «وبودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب (بنج تنتر) وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب برزويه قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية»(٤٥). وفي دراسة مستفيضة لمصادر كتاب كليلة ودمنة من قبل المستشرق بول كراوس (١٩٠٠ ـ ١٩٤٤) وجد تطابقاً بين مقدمة كتاب المنطق الذي كتبه بولس الفارسي للملك أنوشروان (٥٤٤ ـ ٥٧٩) وكتاب كليلة ودمنة، جاء في المقدمة (على كسرى السعيد، ملك الملوك، وأفضل الناس، يقول بولس عبدك السلام».

من هو بولس الفارسي؟ هو من أهل طيسفون (المدائن) آرامي الأصل وصار مسيحياً من أتباع المذهب النسطوري، على يد مار آبا الجاثليق (٥٤٠ ـ ٥٥٢) وكان من قبل مجوسيّاً من أتباع زرادشت، يكتب لدى مرزبان البارميين مالك قرى الراوان، وبعد تنصره رحل إلى نصيبين حيث درس اليونانية على المعلم دانيال الراسعيني الذي ألّف مقالات ضد المرقونيين والمانويين، ويبدو أن اطلاع بولس على المذهب الماني قد أعجبه ولكنه اضمر ذلك، ثم رحل بولس إلى الرها ومنها إلى رأس العين ودرس على يد سرجيوس الراسعيني الذي نصحه بالتوجه نحو الاسكندرية ليدرس الفلسفة على يد يوحنا الجراماطيقي (يحيى النحوي) وغاب عن نصيبين بين أعوام (٥٢٥ ـ ٥٣٣) ثم عاد إليها، ومنها هاجر إلى طيسفون وكتب للملك كسرى انوشروان رسائل شتى نالت رضاه ومن تلك الرسائل زيجاً في الفلك يسمى (زيج بولس).

وعندما خرج كسرى انوشروان لمحاربة الروم، رافقه بولس في حملته كمترجم، وطمحت نفس بولس للجثلقة فلم يفلح وخاب أمله، وانصرف إلى العلم وألف بالفارسية كتاباً في المنطق، وكانت بين بولس والفيلسوف اليوناني آجاتياس الاسكولاتي الذي هاجر من أثينا بعد اغلاق جوستيان مدرسة الفلسفة عام ٥٢٩ إلى طيسفون وقام هو وبولس الفارسي بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى الفارسية، وعندما ألّف بريسكيانوس كتاب (الإجابات على ما شك به خسرو ملك الفرس) ترجمة له بولس الفارسي من اليونانية إلى الفارسية.

كان بولس الفارسي يعلي من شأن الفلسفة أكثر من العلم والدين لأن العلم أكثر يقينية من الدين إلا أنه أقل يقينية من الفلسفة، والمعرفة الدينية معرفة ظنّية لذا تؤدي إلى التناقض والتناخر بين أبناء البشر، على عكس المعرفة الفلسفية التي هي أسمى وأرفع من الإيمان. وإن أصحاب الديانات يتناقضون في أقوالهم يقول بعضهم:

إنه لا يوجد إلا إله واحد، فيعترض عليه آخر بل غير واحد.

ويقولون، إن الإله شامل للأضداد، فهو جبار رحيم.

ويقولون، إن الله قادر على كل شيء، فينكر آخرون عليه قدرته على فعل الشر.

ويقولون، إن الله خالق الكون وما فيه، وإن العالم خلق من العدم، فيرد عليهم آخرون إنه خلق من الهيولى الأولى، وإن الإنسان خلق حراً يختار بعقله ما يريد.

وفي المحصلة يتوصل بولس الفارسي إلى الرأي التالي: إمّا أن نتجه إلى الإيمان ومعرفته ظنية وإما أن نتجه إلى العلم ومعرفته يقينية لاشك فيها، وإن المؤمنين حينما يخوضون في مسائل الوحي يسفهون العقل ويسلبون العلم حججه بقولهم «ما نؤمن به الآن، سنعلمه فيما بعد دون أن يقدموا للعلم شيئاً»(٤٦). وهذه الصفة لازال رجال الدين يرددونها، فهم يثلبون العلماء ويمشون خلفهم دون أن يقدموا للعلم شيئاً جديداً.

قال المهدي عن ابن المقفع «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وله صلة بابن المقفع»(٤٧) وكان الفقهاء من السنة والشيعة يتفقون على ضرب الزنادقة ويتقولون عليهم قال العالم الشيعي ابن بابويه القمي (المتوفى ٣٧١هـ ٩٨٢) كان عبد الكريم بن أبي العوجاء وعبد الله بن المقفع يلاحظان الجمع في الطواف، فقال ابن المقفع، ولا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية أي أنهم بقر! (٤٨).

ومن القصص الخرافية التي تروى عن المنانيّة قولهم «خلق العظيم الاول (العقل الفعّال) في الرجل القديم روح الحياة وأبدع منه خمسة أبناء هم (زينة المجد، وملك الشرف وآدم النوراني وملك الافتخار والحامل) وهبوطوا إلى مملكة الظلام وقتلوا (آراكين) ملكة الظلام وأبناؤها ومن جلودهم خلقت أم الحياة السماء وتكونت الأرض من لحومهم والجبال من عظامهم»(٤٩) هذه الخرافة تحريف للأسطورة الإغريقية أولاد (كرونوس) و(ريا) وأبناؤهم الخمسة التيتان. وقد شاعت هذه القصة في البصرة وكانت تروى للتندر على المنانية يقول الجاحظ: من أقوال المنانية «تسافد العفاريت وإن السماء خلقت من جلود الشياطين»(٥٠).

نسب خصوم ابن المقفع له كتاباً في معارضة الإسلام بدأه (باسم النور الرحمن الرحيم) نشره م. جويدي في روما ١٩٢٧ مع كتاب القاسم بن إبراهيم الإمام الزيدي باسم (الرد على الزنديق ابن المقفع). ولكن كثير من الباحثين شكوّا في نسبة الكتاب إلى ابن المقفع «كتب الأستاذ أحمد أمين مقدمة لكتاب عن ابن المقفع قال فيها: «فحيث ترى شخصية بارزة فثم ترى من الجامدين من

يرميه بالزندقة والإلحاد وحيث ترى مفكراً قوياً يرمي إلى إصلاح اجتماعي خطير، فثم ترى أمامه اتهاماً بالخيانة وقلب نظام الدولة وما شئت من ألقاب، ومن أجل هذا كله أرى في الاضطهاد والزندقة في كثير من الأحيان رمزاً للشخصية أو النبوغ والعبقرية»(٥١).

ما أجمل ذلك التقييم لتلك الشخصيّة العبقريّة، وما أكثر النوابع المتهمين بالزندقة تلك الكلمة التي لم يستطع أي باحث في الأدب العربي تحديدها، وقد كتب المستشرق الفرنسي سبستيان رنز فال اليسوعي «كثيراً ما قرأت عن الزنادقة، ووصف زندقتهم من تأليف الشرقيين، ولا أذكر أني عثرت مرة على هذا الإسم دون أن أراجع كتاباً أو قاموساً لاستخراج معناه الصحيح، أملاً بأن أظفر بما يرتاح إليه قلبي، ويقنع به تماماً عقلي، فطاش سهمي مع ما تحملت من مشاق السعي، وتحملت من الكلف والجهد»(٥٢).

أبو عيسى الورّاق والمانويّة:

إنه مؤرخ نابه ثقة شهد له علي بن الحسين المسعودي بالأمانة قال «وقد صنّف متكلموا فرق الإسلام من المعتزلة والشيعة والمرجئة والخوارج ممن تقدم كتباً في المقالات وغيرها للرد على المخالفين. ومنهم أبو عيسى محمد بن هارون الوراق»(٥٣). ومع ذلك فقد رمي بالزندقة على الرغم من إيمانه بالله وباليوم الآخر، وكان يعمل صالحاً إلا أنه لم يكن ممن يشايع السلطة في زمانه فاتهموه بالزندقة.

من هو أبو عيسى الورّاق؟ هو محمد بن هارون الورّاق البصري، ولد على الأغلب في البصرة عام (١٧٥هـ/ ٧٩٢م) وكانت أسرته قد هاجرت من الأهواز، ويقال إنها كانت تعتنق العقيدة المانويّة، وكان والده ورّاقاً متعدد اللغات (السريانية والفارسيّة والعربية) وكان دكانه مسرحاً للنقاش والحوار بين أصحاب الفرق. ومنهم أبو عثمان الجاحظ، الذي كان معتزلياً يميل إلى حزب عثمان بن عفان، بينما كان هارون الوراق وابنه محمد، يميلان إلى الاعتزال ولكن يؤمنان بالنص الجليّ في إمامة علي، ومعنى هذا أنهما من الرافضة.

وكان أبو عيسى الورّاق من أصحاب أبي الحسن بن الراوندي، ولكنه اختلف معه فرماه أبو الحسن «بالقول بالتناسخ، وانكار النبوة والأنبياء، كما رماه باعتقاده بالثنوية) أي المانويّة.

كان أبو عيس الوراق رجلاً فقير الحال كثير العيال، وكان يتعجب من التفاوت الكبير في المجتمع بين الغنى الفاحش والفقر المدقع، وكان هذا يثير سخطه، روى عنه أبو حيان التوحيدي مايلي: «وحين نظر أبو عيسى الوراق إلى خادم خرج من دار الخليفة (بسامراء) بجنائب تقاد بين

يديه، وبجماعة تركض حواليه، رفع رأسه إلى السماء وقال: أوحدك بكل اللغات والألسن، وأدعو إليك بحجج وأدلة، وأنصر دينك، بكل شاهد وبينّه ثم أمشي هكذا عارياً جائعاً، ومثل هذا الأسود، يتقلب في الخز والوشي والحشم»(٥٤) وقد صوّر حالته هذه الشاعر أبو العلاء المعري (المتوفي ٤٤٩هـ ١٠٥٩م) بقوله(٥٥):

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحمقا

فلا ذنب يا رب السماء على امرىء رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

ويقال أن المعتزلة أبعدته عن حلقاتها لقوله بالمنانيّة ونصر الثنوية ووضعه الكتب يقوي مذاهبها ويؤكد قولها»(٥٦). ونسبت إليه خمسة كتب، هي:

١) كتاب المقالات ٢) وكتاب المجالس ٣) وكتاب الرد على الفرق الثلاث

٤) كتاب المشرقي ٥) كتاب النوح على البهائم.

وعلى أثر اطلاع لويس ماسينيون على تلك الكتب اعتبره من المفكرين الأحرار في الإسلام، لعدم التزامه بمذهب معيّن، وكان لا يعادي أي مذهب أو ديانة لهذا نعته (بالناقد المستقل الفكر)(٥٧).

ذكر في كتابه المقالات، اسطورة خلق العالم (رؤية هرمس الحكيم) لصعود النفس وهبوطها ومرورها بست مراحل:

المرحلة الأولى: قال هرمس الحكيم، رأيت في عقلي كأن النور يغمرني، وأن عدداً لا يحصى من الملائكة، قد تحولت إلى عالم لا حدود له، بينما كانت نار هائلة مطوقّة بقوة جعلتها تبلغ مستقرها، وتكف عن الحركة.

المرحلة الثانية: وفيها رأى هرمس الحكيم، ظهور الكلمة الإلهية من النور، وصعود النار والهواء نحو الأعلى، وانفصلا عن الأرض والماء، وصار الماء يروي من العطش لأنه بارد رطب بالطبع، والنار تحرق وتضيء، وإنها حارة ويابسة بالطبع، وفي الأسفل الأرض وهي أثقل العناصر وهي غاية في الكدر وانعدام النور والحياة.

وسأل هرمس الحكيم الإله المتعالي: من أين صدرت العناصر الأربعة؟ فأجابه عن إرادة الله.

المرحلة الثالثة: قال هرمس الحكيم: اتحد الإله العالي (إله النور) بالإله الصانع، وأعطيا الأفلاك الدفعة الأولى، فانطلقت بحركتها الدائرية، وأصبحت الأفلاك السبعة هي المدبرات للعالم عن طريق القدر، وانفصلت الأرض والنار ونشأت الحيوانات البريّة وفي الماء الحيوانات المائية وفي السماء الطيور.

ونبتت الاعشاب والأشجار، وفي هذه المرحلة ظهر الإنسان الأول خلقه الإله المتعالي على صورته، وسخر له جميع مخلوقاته، وإذن له دخول عالم الجنان.

المرحلة الرابعة: قال هرمس الحكيم: في هذه المرحلة عاش الإنسان السماوي الأول على الطبيعة ونظر إلى الماء، فانعكست صورته، فأحبها ونزل ليعانقها فتعانقا واتحدا، وهذا أول السقوط في الخطيئة، وهكذا صار آدم أسيراً للقدر وسيداً عليه بالتشاغل بالعلم والبحث والاستكشاف للعودة والرجوع إلى العالم البهي.

المرحلة الخامسة: ولد الإنسان الأول سبعة أولاد من اتحاده بمحبوبته الأرض وكل منهم ذكر وأنثى، أما نفوسهم فمؤلفه من جزأين (النفس والعقل) وبتدبير الكواكب بدأت عملية الاخصاب والتكاثر والتناسل في الكائنات الحيّة كل حسب نوعه، وخاطب الإله المتعالي العقل ليعرف الإنسان العاقل نفسه.

سأل هرمس الحكيم: أوليس كل الناس ذوي عقول؟ فأجابه الإله المتعالي: احفظ لسانك يا صديقي، إني أنا العقل، قريب من الذين هم أولياء طيبون، مطهرون رحماء، قريب من الأتقياء، الذين يطيعون وصاياي ويسبحون، ولن أسمع لأفعال البدن الانتصار عليهم، وأمّا الفجّار والحسّدة والقتلة والطمّاعون فإني ابتعد عنهم تاركاً للشيطان أن يتوجه إليهم بسهام جهنم، وأدعهم يمارسون المعاصي لكي يكون العقاب الشديد لهم.

المرحلة السادسة: سأل هرمس الحكيم الإله العلي: حدثني عن عروج النفس نحو السماء؟

فأجاب: عندما يفسد جسدك تغادره الروح وتتركه ينحل، فتختفي صورتك وتترك للشيطان (أناك العادي) وتعود عناصرك كل إلى مصدره نحو الكواكب السماوية، فتترك في القمر قوة النماء والنقصان، وفي عطارد قوة الخبث والاحتيال. وفي الزهرة الرغبة والشهوة، وفي المريخ التهور والإدعاء الكاذب، وفي الشمس الكبرياء والحكم والأهداف الطموحة، وفي المشتري الشهوات المحرّمة التي يولّدها الغنى والفقر، وفي زحل البخل والكذب الذي يكيد كيداً. ثم ترتفع النفس إلى السماء الثامنة (المجرّة) متحررة من كل الطبائع الفلكية لتندمج مع الملائكة مسبّحة للرب، متحدّة في ملكوته السعيد(٥٨).

كان المانوي يمتاز بالصدق، وقد روى أبو شعيب القلاّل: أنه انفرط عقد امرأة في الطريق، بالقرب من حانوت صائغ، وقد التقط (الحجر الكريم) فرخ نعامة، وشاهده رجل مناني فلم يخبر بأن الفرخ (الظليم) قد ابتلعه كي لا يذبح، ويكون قد شارك في سفح دم بعض الحيوان. جاء الناس إلى الرجل المناني وفتشوه وضربوه، ولم يخبر بما رأى، وجاء صديقه فعرف أن الظليم التقطه، ولم يخبر أحداً حتى كادا أن يموتا من الضرب، ومرّ رجل يعقل ففهم القصة لما رأى الظليم يتردد في الطريق، فقال لهما، أكان هذا الظليم يتردد في الطريق؟

قالا: نعم، قال الرجل العاقل، فهو صاحبكم، فشقوّا قانصته، فوجدوا الحجر قد تغير لونه ونقص وزنه، ولكنه صار أغلى ثمناً مما عوضّ نقصه»(٥٩).

وحكى عنه الشاعر الحسن بن هانىء (أبو نواس) أنه كان ذات يوم مع أبي عيسى الوراق بعد صلاة العصر في المسجد قال يصف ذلك شعراً: (٦٠).

فقلت سبحان ربى	فقال: سبحان مانى
فقلت عيسى رسول	فقال: من شيطان
فقلت: موسى كليم الـ	مهيمن المنان
فقال: ربك ذو مقا	لة إذن ولسان
وقال: أنفسه خلقته	أم من؟ فقمت من مكانى
عن كافر يمتري	بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى	بالعصبة المجان

هذه المحاورة الشعرية لا صحة لها، والغاية منها الايقاع بأبي عيسى الوراق لدى السلطان وفعلا قبض عليه وسجن ومات في السجن عام ٢٤٧هـ /٨٦١). وكان المسلمون يمتحنون المانوي في البصق على صورة ماني أو ذبح طائر التدرج، فإن امتنع عن ذلك كشف باطنه. والتدرج طائر يشبه الطاووس إلا أنه أصغر منه وأقل منه زهوة في الألوان.

أبو بكر الرازي والمانويّة:

ينتسب الفيلسوف والطبيب الشهير محمد بن زكريا الرازي إلى مدينة الرّي، وهي من المدن الفارسيّة القديمة المتواجدة على طريق التجارة القديم، وتقول الأساطير عنها أنها إحدى الأماكن المقدّسة التي بناها إله النور (اهرمزدا) جاء ذلك في كتاب الابستاق لزرادشت.

فتح العرب مدينة الرّي عام ١٩هـ/٦٤١م في العهد الراشدي، على يد عروة بن زيد الخيل الطائي، قال الشاعر أبو نجيد الطائي الذي رافق الحملة:

دعانا إلى جرجان والرّي دونها	سواد، فأرضت من بها من عشائر
رضينا بريف الرّي والرّي بلدة	لها زينة في عيشها المتواتر

وسكن الرّي أقوام من العرب من قيس وطيء وقريش، واختلطوا بسكانها، وكان العرب يملكون اقطاعات زراعية شاسعة في الريف، وفي العصر العباسي بنى الخليفة المهدي مدينة جديدة فيها قلعة وقصر ومسجد وأحاطتها بخندق وسميت تلك الضاحية بالمحمديّة، وفي زمن لاحق سميت بالداخلة، والمدينة القديمة بالخارجة ومعظم سكانها من أهل الحرف والصنائع،

وكان زكريا بن يحيى يقطن حي الروضة، ويشرف على دار سك النقود والدنانير وهو من أصل عربي.

ولد محمد بن زكريا حوالي عام ٢٣٢هـ/٨٤٧م، وكان شاباً طلعة يحب العلم والموسيقى قال عن نفسه في سيرته الفلسفية «لم أزل منذ حداثتي إلى وقتي هذا، مكبّاً على طلب العلم، وقراءة الكتب ومقابلة العلماء للأخذ عنهم»(٦١). تعلم مبادىء الطب والفلسفة من رجل من أهل بلخ كان مانوياً يطوف البلاد ويجول في الأرض هو أبو العباس الايرانشهري قال عنه ابن النديم «وقد رأيت بخطه شيئاً كثيراً، ومن علوم كثيرة في مسودات ودساتير لم يخرج إلى الناس منها كتاب تام، وقيل أن كتبه بخراسان موجودة»(٦٢).

انتقل أبو بكر الرازي إلى بغداد، وأكمل دراساته في الفلسفة والرياضيات والطب على يد ثابت بن قرة الحرانّي، وعنه أخذ علم الصابئة الحرانية، وهم أتباع فيثاغورس، قال صاعد بن أحمد الأندلسي «وكان لفيثاغورس مذهباً في شأن المعاد، وأن فوق عالم الطبيعة عالماً روحانياً لا يدرك بالعقل حسنه وبهاءه، وأن النفس الزكيّة تشتاق إليه، وأن كل إنسان أحسن تقويم نفسه بالتبرؤ من العجب والتجبر والرياء والحسد فقد صار أهلاً بالعالم الروحاني، ويطلع على ماشاء من جواهره من الحكمة الإلهية، وأن الأشياء اللذيذة للنفس تأتيه ولا يحتاج إلى أن يتكلف لها طلب»(٦٣). وتعصب أبو بكر الرازي لمذهب فيثاغورس وأفلاطون ضد أرسطو وأتباعه ومال إلى الفلسفة الحرانية والي فلسفة يحيى النحوي، الأفلوطينية المحدثة.

وكان أبو بكر الرازي من الأطباء العرب المشهورين والعلماء في الفلك والكيمياء، لم يتزوج وكان رغم أنه أبيقوري يؤمن بمذهب اللذة، اللذة العقلية التي لا يتبعها ألم ولاندم وانصرف للطبابة والتأليف ذكر ابن النديم نقلاً عن محمد بن حسن الورّاق، قال لي رجل من الرّي شيخ كبير سألته عن الرازي فقال «لم يكن يفارق المدارج والنسخ» وقد ذكر ذلك الرازي عن نفسه قال في سيرته الفلسفيّة «لم أزل منذ حداثتي إلى وقتي هذا مكباً على طلب العلم، حتى أنه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة».

كان أبو بكر الرازي يؤمن بقدرة العقل على خلاص البشر، وأنه لا حاجة لهم للنبوة والإمامة وقد جادل الداعية الاسماعيلي أبا حاتم أحمد بن حمدان الليثي (المتوفى ٣٢٢هـ/٩٣٤) بقوله «ومن أين أخبرتم في حكمة الخالق أن يختار لهم أنبياء، ويشلي بعضهم على بعض، ويؤكد بينهم العداوة، ويكثر المحاربات، ويهلك الناس؟ وأن يجعل بعضهم أئمة فتصدِّق كل فرقة إمامها وتكذّب غيره، ويضرب بعضهم بعض بالسيف، ويعم البلاء، ويهلكون بالتعادي والمحاربات»(٦٤).

نسب الطبيب المصري علي بن رضوان المصري إلى الرازي كتاباً باسم (مخاريق الانبياء) ولكن أبي أبي أصيبعة دافع عنه «ربما أن بعض الأشرار المعادين للرازي قد ألفه ونسبه إليه ليسيء، من يرى ذلك الكتاب أو يسمع به الظن بالرازي»(٦٥). ولكني افترض صحة التهمة لأن أبا الريحان البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨) وهو من أتباعه لم ينف عنه هذه التهمة، قال «وظنهم أني من شيعته، وما يمليه عليه هواه، وفرط تعصبه في باب الديانة، وبالإهمال والأعراض والاغفال، ويوجد مصداق قولي في آخر كتابه (العلم الإلهي) في النبوات حين يستخف بها، ويدل على كتب ماني وأصحابه كيداً للأديان والإسلام»(٦٦) لم يكن أبو بكر الرازي من اتباع ماني وقد جرى جدال بينه وبين سيسن المناني ردّ فيه على مذهبهم، وإنه كان به ميل إلى مذهب المبيّضة، وديانتهم ديانة ريفية وقد انتشرت بين أجراء وفلاحين فقراء، بينهم وبين المنانيّة بعض التقارب في المبادىء.

من هم المبيضّة؟ قال الشهرستاني هم «أتباع سيس المناني ظهر في إقليم نيسابور، حرّم النكّاح وشرب الخمر، وأكل اللحم، ودعا إلى مساواة الناس في الأموال، وعندما قويت شوكته قتله أبو مسلم الخراساني، وقال أتباعه ارتفع إلى السماء، وأنه لم يقتل وسوف يعود ليخلص الناس مما هم فيه من شقاء»(٦٧). وكان قد نهى عن المخالفة والمباغضة «ثم جاء من بعده هاشم بن حكيم الذي عرف بالمقنّع الكندي، تبرقع بحرير أخضر، وادعى الالوهية في منطقة مرو، واجتمعت عليه المبيضّة، وشرّع لأصحابه المساواة في الأموال»(٦٨). وكان يقول لأصحابه «إن الله خلق آدم على صورته وتجلّى فيه، ثم تصوّر في نوح وكان هاشم بن حكيم آخر تجليات الله، وكان يقول بالتناسخ والحلول وبايعه أكثر الناس، وبعد موته لازال أتباعه ينتظرون عودته ليملكهم الأرض، وبه يستغيثون في الحرب (يا هاشم أعنا)(٦٩).

كان المبيضة وسطاً في تعاليمهم بين المانوية والإسلام، فإذا كان المنانيّة يتشددون في الزهد ومنع النفس من الشهوات والحرص على اقتناء المال، وشرب الخمر والكذب والرياء والحسد ومساعدة بعضهم بعضاً، فإن المبيضة كانوا يقرون النكاح قال البيروني «كانت بديار الإسلام وفي سمرقند فرقة تعرف بالمبيضة وسط بين الصابئة الحرانية وأتباع ماني، وكانوا أتباعاً لرجل من أهل زوزن ظهر أيام الخليفة المنصور، حدد المهور بأربعمائة درهم، وأمر أتباعه بتعمير الطرق، وإصلاح القناطر من بيع أموالهم، وكسب أعمالهم، ويعرف أتباعه اليوم (بالبها يزيدية) يعادون المجوس»(٧٠) وخصهم المقدسي بقوله «يقال لهم المبيضة مذاهبهم تقارب الزندقة»(٧١) وهؤلاء تشبه دعوتهم دعوة اليزيدية فيما بعد.

اتهم الداعيّة الاسماعيلي أبو حاتم الرازي أبا بكر الرازي بالمنانية قال «واستظهر بدعوى المنانية أن موسى عليه السلام من رسل الشياطين، وأن الكلمة (المسيح) انفصلت من الأب ومزقت الشياطين وقتلتهم وإن السماء من جلود الشياطين وأن الرعد جرجرتهم، والزلزلة هي تحرك الشياطين تحت الأرض»(٧٢).

لم يكن الرازي من المنانية وإن كان يؤمن بالشياطين لأن جالينوس الفاضل ويحيى النحوي قالا بوجودهم. قال الفيلسوف الاسماعيلي نصير الدين خسرو في كتابه بستان العقل «ومن الفلاسفة من يقرون بوجود الشياطين، ويقولون أن نفوس الجهلة الأشرار متى ما فارقت أجسادها تبقى في هذا العالم، فتدخل جسماً خبيثاً وتنتقل في العالم، هذا ما قاله محمد بن زكريا الرازي، وهذه من أقوال المنانية»(٧٣).

لم يكن أبو بكر الرازي من أتباع ماني، وأن تلك التهمة يردها الرازي عن نفسه قال يقول أتباع ماني في زمنه بقوله «لأن قلوب العامة إلى الخرافات أميل، وأنهم كانوا يشككون ضعاف العقول في الواحد الأول (الله) ومن جهة التعديل أو التجويز، وأمالوهم إلى الثنوية، وزينوا عندهم سيرة ماني، حتى اعتصموا بحيلة وانتشرت أقواله في الألسنة، وصار منسوباً إلى الإسلام»(٨٥).

كان المبيضة أقرب إلى الإسلام من المانوية، ولكن فقهاء المعتزلة وعلماءهم كانوا يطلقون عليهم (عبدة الشيطان) لقولهم «أن الله لما استوحش فكّر فكرة سوء فتجسّمت واستحالت ظلمة فحدث منها إبليس، ورام الباري أبعاده عن نفسه فلم يستطع فتحرز منه بخلق الخيرات، وشرع إبليس في خلق الشر»(٧٦).

لم يكن هناك صراع بن الله وإبليس، لأن الباري لا يصدر عنه إلا الخير أما الشر فهو من صنع إبليس الذي صدرت عنه الشرور بإرادته، إذن لا توجد ثنائية في هذه الديانة، أي لا يوجد تضاد بين الله والشيطان فكلاهما يكمل عمل الآخر، ولاصراع حسب تعبير هيجل هو في صميم الروح ذاتها فهي تنقسم على نفسها، ثم تعود بنشاطها الخاص إلى الوحدةمن جديد، فليس هناك صراعاً بين شيئين وإنما هو تمزق لشيء واحد هو الروح»(٧٧).

كيف كان المبيضة يطرحون أفكارهم في المجتمع الإسلامي؟ كانوا يتظاهرون بالإسلام، يغشون المساجد والزوايا ويكثرون من ذكر أقوال الصوفية أمثال أبي منصور الحلاج وأبا يزيد البسطامي والسهروردي وغيرهم، ليقبل الناس دعوتهم في تعظيم إبليس أو الشيطان ويعللون عدم انصياع إبليس للأمر الإلهي بالسجود لآدم. معتمدين على أقوال الحلاج الذي قال «التقى موسى وإبليس على عقبة الطور، فقال موسى: يا إبليس، ما منعك عن السجود لأدم؟ قال: منعني الدعوة بمعبود واحد، ولو سجدت له لكنت مثالك، فإنك نوديت مرة واحدة «انظر إلى الجبل» فنظرت، ونوديت أنا ألف مرة، أن اسجد فما سجدت لدعواي، بمنعاي»(٧٨). كان المبيضة من اتباع الفلسفة الأفلوطونية الحديثة، كانوا يميزون بين الأمر الإلهي وبين المشيئة الإلهية، فللمأمور الخيار في تلبية الأمر أو رفضه، بينما المشيئة الإلهية لا ترد، ولو شاء الله لأبليس أن يقع ساجداً لوقع لتوه، ولا قوة له على ردّ المشيئة الإلهية، ولكن إبليس خالف الأمر الإلهي، لأن له حرية الرفض، ولو وقع إبليس ساجداً ملبياً للأمر لخرج عن حقيقة التوحيد وعصى واجبه المطلق نحو معبوده»(٧٩).

كان أبو بكر الرازي يتطابق رأيه مع المبيضة في عدة مسائل، منها: قال الرازي،

- «لما كانت عيشة الناس إنما تتم وتصلح بالتعاون والتعاضد، واقتسموا وجوه المساعي العائدة على جميعهم، فطاب للكل بذلك العيش، وتم على الكل بذلك النعمة، وإن كان بينهم بون بعيد وتفاضل كثير، غير أنه ما من أحد إلا مخدوم، مكفى كل حوائجه، وإن من سعى باكتساب ما يفضل من المال عن نفقته ومقدار حاجته وجمعه فقد خسر واستبعد من حيث لا يعلم» وهذا هو جوهر الاشتراكية الحديثة.

- وعدم خوفهم من الموت لإيمانهم بالتقمص والتناسخ، قال الرازي «وأعلم أن حالة الموت أصلح من حالة الحياة على حسب اعتقاده في النفس (أي اعتقاد الرازي) إذ لا يخاف من الموت الإنسان الفاضل الخيّر، على حسب ما وعدته به الشريعة من الراحة والوصول إلى النعيم الدائم»، ولكن الرازي كان يشك بالمعاد والحشر، رغم كتابته في هذه الموضوع، جاء في شعر له:

لعمري، ما أدري وقد أذن البلى بعاجل ترحال، إلى أين ترحالى؟

وأين محل الروح، بعد خروجه؟ من الهيكل المنحل، والجسد البالى

قد توفي الرازي في عام ٣١١ هـ الموافق ٩٢٥م.

صفوة القول: إن كل فهم صحيح للدين يقتضي، عتق عقلنا من الاعتقادات المسبقة أو الأحكام المتسرعة، لتفسير الديانة المدروسة، والخروج بها من حيز الرؤية الضيقة إلى ساحة النظر النقدي والتاريخي، بغية تفسيرها تفسيراً يرضاه العقل، وفهماً يتناسب وروح تلك الديانة، والعصر والبيئة التي نشأت وترعرعت فيهما، لأن كل ديانة مهما عظم شأنها أو قل فهي تحتوي على رؤية شاملة للحياة، وكانت ديانة المبيضّة خليط من تعاليم الإسلام والمانوية والمجوسيّة، وإن كان الطابع الصوفي الإسلامي هو الغالب عليها، وكانت تحتوي على طقوس وأسرار قديمة هي سر وجودها وعدم زوالها، بل وظهورها بشكل جديد في مجتمع إسلامي تغلب عليه الثقافة الكرديّة، في شمال العراق وفي سنجار، وقد عرفت هذه الديانة باسم (الديانة اليزيديّة) التي سأتناولها بالتفصيل في الفصول التالية.

مراجع الفصل الثالث: المانوية وأشهر الشخصيات الإسلامية

١) لسان العرب جـ١٠ ص١٤٧ ابن منظور، طباعة مصر ١٣٥٤هـ.
٢) رسالة الغفران ص٤٢٩ تحقيق بنت الشاطىء دار المعارف بمصر ١٩٦٣.
٣) كتاب ذكر المعتزلة ص٢٦ أحمد بن يحيى بن المرتضى نشر توماس أرنولد حيدر آباد الدكن ١٩٢٦.
٤) فيصل التفرقة ص١٩٢ الغزالي تحقيق سليمان دنيا دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٦١.
٥) كتاب المعارف ص٦٢١ ابن قتيبة دار الكتاب المصرية القاهرة ١٩٦١.
٦) الألفاظ الفارسية المعربّة ص٨٠ آدي شير الكلداني، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨.
٧) الشعوبيّة نشأتها وتطورها ص١٤ عبد اللطيف الحديثي وزارة الثقافة بغداد ١٩٩٠.
٨) صالح بن عبد القدوس البصري ص ٤٥ ـ ٤٦ عبد اللطيف الخطيب، بغداد ١٩٦٧.
٩) المنقذ من الضلال ص٤٧ الغزالي نشر محمد محمد جابر القاهرة.
١٠) ضحى الإسلام جـ١ ص١٥٢ أحمد أمين، القاهرة ١٩٥٤.
١١) مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٥ المسعودي نشر أسعد داغر بيروت ١٩٥١.
١٢) الزندقة والشعوبية ص٢٢ سميرة مختار الليثي مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨.
١٣) مجلة النهج عدد/٤٧ ص٧١ دمشق ١٩٩٧.
١٤) ماني والمانوية ص٧٠ جيووايد نغرين ترجمة د. سهيل زكار دار حسان دمشق ١٩٨٥.
١٥) ثمار القلوب ص٢٣ الثعالبي طبعة مصر ١٩٠٨.
١٦) آمالي المرتضى جـ١ ص١٤٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧.
١٧) صالح بن عبد القدوس البصري ص٣٦.
١٨) تاريخ الرسل والملوك جـ٨ ص٢٢٠ الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر ١٩٥٨.
١٩) الملل والنحل جـ١ ص٧٠ الشهرستاني تحقيق محمد عبد العزيز الوكيل القاهرة ١٩٦٨.
٢٠) من تاريخ الالحاد في الإسلام ص٣٦ د. عبد الرحمن بدوي دار سينا القاهرة ١٩٩٣.
٢١) الحسن البصري ص٦ إحسان عباس دار الفكر العربي القاهرة ١٩٥٢.
٢٢) إحياء علوم الدين جـ١ ص٦٨ ـ ٦٩ أبو حامد الغزالي القاهرة ١٩٤٦.

٢٣) الطبقات جـ٧ حـ١٥٧ عمر بن خليفة بن خياط حققه أكرم ضياء العمري المطبعة العثمانية حيدر آباد ١٣٠٥ هـ.

٢٤) الطبقات الكبرى جـ٧ ص٧٤ محمد بن سعد دار صادر بيروت ١٩٥٧.

٢٥) أنساب الأشراف (غرر الفوائد) جـ٥ ص١٩٦ أحمد بن جابر البلاذري دار المعارف بيروت ١٩٧٧م.

٢٦) آمالي المرتضى جـ١ ص١١١- ١١٢ الشريف المرتضى مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٥٤م.

٢٧) رجال الفكرة والدعوة جـ١ ص٧٤ أبو الحسن الندوي دار العلم الكويت ١٩٨٣.

٢٨) العيون والحدائق ص٥٣ (المؤلف مجهول) نشر دي جويه بريل ١٩٢٦.

٢٩) تاريخ الرقة ص٢٢ القشيري تحقيق الشيخ طاهر النعساني حماة ١٩٥٩.

٣٠) تاريخ دول الإسلام جـ٤ ص١٠٣ الذهبي دار المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ١٣٦٤ هـ

٣١) البخلاء ص١٨٦ الجاحظ تحقيق طه الحاجري دار المعارف القاهرة ١٩٦٨.

٣٢) عيون الأخبار جـ٣ ص٢٠ ابن قتيبة طباعة مصر، ١٣٥٨هـ

٣٣ المستظروف من كل مستطرف جـ٢ ص٤٦٠ شهاب الدين بن محمد الابشيهي دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١.

٣٤) بهجة المجالس وأنس المُجالس جـ٣ ص٣٨ أبو عمر يوسف بن عبد البر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٢.

٣٥) المعارف ص٢٣٠ لابن قتيبة تحقيق ثروة عكاشة مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٦٠.

٣٦) البيان والتبيين جـ١ ص٢١١، الجاحظ عبد السلام هارون لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٨.

٣٧) حلية الأولياء جـ٢ ص١٣٣ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني دار الكاب العربي بيروت ١٣٨٧.

٣٨) كتاب المصاحف ص١٤٠ عبد الله بن داود بن سليمان السجستاني نشر أرثر جفري المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٦م.

٣٩) تقييد العلم ص ٩٩ أحمد بن علي البغدادي دار احياء السنة بيروت ١٩٧٤.

٤٠) الحسن البصري ص٣٨٠ د. مصلح سيد بيومي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٠.

٤١) تاريخ الخلفاء ص٢٧٠ السيوطي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٦٤.

٤٢) مروج الذهب ج٣ ص٤٥.

٤٣) كتاب الوزراء ص٨٦ الجهشاري تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
٤٤) كليلة ودمنة ص١٠٧ ابن المقفع تحقيق محمد حسن المرصفي المكتبة التجارية القاهرة ١٩٣٤.
٤٥) تحقيق ما للهند ص٧٦ البيروني.
٤٦) من تاريخ الالحاد في الإسلام ص٧٣ ـ ٧٥.
٤٧) أمالي المرتضى جـ١ ص١٣٤.
٤٨) كتاب التوحيد ص١١٤ ابن بابويه القمي طبعة بومباي سنة ١٣٢١ هـ.
٤٩) إيران في عهد الساسانيين ص١٦٥ ارثركريستين القاهرة ١٩٥٧.
٥٠) كتاب الحيوان جـ١ ص٢٩ الجاحظ مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٧.
٥١) ابن المقفع ص٥ عبد اللطيف حمزة مكتبة الجامعة القاهرة ١٩٣٧.
٥٢) مجلة المشرق ص٦٨١ السنة الأولى بيروت سنة ١٨٩٨.
٥٣) التنبيه والإشراف ص٣٤٢ المسعودي تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
٥٤) الهوامل والشوامل ص٢١٣ أبو حيان التوحيدي تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر القاهرة ١٩٥١.
٥٥) البداية والنهاية جـ١٢ ص٧٤ ابن كثير مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٧.
٥٦) كتاب الانتصار ص١٠٨ أبو الحسن الخياط طباعة الجزائر ١٩٤٩.
٥٧) من تاريخ الالحاد في الإسلام ص٣٦ د. عبد الرحمن بدوي القاهرة ١٩٤٥.
٥٨) الزندقة والزنادقة تاريخ وفكر ص١٥٤ ــ ١٥٥ محمد عبد الحميد الحمد دار الطليعة الجديدة دمشق ١٩٩٩.
٥٩) كتاب الحيوان للجاحظ جـ٥ ص١٦٩ــ ١٧٠ نشر فوزي عطوي مكتبة النوري دمشق ١٩٧٦.
٦٠) الحياة الأدبية في البصرة ص٣٧٦ د. أحمد زكي كمال دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧١.
٦١) رسائل الرازي الفلسفية ص١١٠ نشر بول كراوس كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٣٩.
٦٢) الفهرست ص٣٥٧ لابن النديم تحقيق رضا تجدد طهران ١٩٧٢.
٦٣) طبقات الأمم ص٣٤ صاعد بن أحمد الاندلسي مكتبة السعادة بمصر.
٦٤) الأقوال الذهبية ص٢٥ حجة العراقين حميد الدين الكرماني تحقيق مصطفى غالب دار محيو بيروت ١٩٧٧.
٦٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٣٩ ابن أبي أصيبعة تحقيق نزار رضا بيروت ١٩٦١.
٦٦) الآثار الباقية للبيروني ص٣٩ تحقيق ادوار سخاو لندن ١٨٧٨.
٦٧) الملل والنحل للشهرستاني جـ٢ ص٤٤.

٦٨) الآثار الباقية للبيروني ص٢١١.
٦٩) الفخري في الآداب السلطانية ص١٨ ابن طباطبا دار صادر بيروت ١٩٦٦.
٧٠) الآثار الباقية ص٢١١.
٧١) أحسن التقاسيم ص٢٣٧ المقدسي البشاري تحقيق غازي طليمات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠.
٧٢) من تاريخ الالحاد في الاسلام ص٢٤٤.
٧٣) رسائل فلسفية للرازي ص١٧٨.
٧٤) من تاريخ الالحاد في الإسلام ص٢٤٤.
٧٥) في تحقيق ما للهند ص٢٢٠ البيروني، حيدر آبادر الدكن ١٩٥٨.
٧٦) كتاب الفصل والأهواء والنحل جـ١ ص٣٥ ابن حزم الأندلس طبعة مصر ١٩٦٩.
٧٧) المنهج الجدلي عند هيجل ص٤٢ عبد الفتاح إمام دار المعارف بمصر ١٩٦٩.
٧٨) كتاب الطواسين (طاسين الأزل والالتباس) أبو منصور الحلاج تحقيق لويس ماسينيون باريس ١٩١٣.
٧٩) نقد الفكر الديني ص٨٩ ـ ٩٠ د. صادق جلال العظم دار الطليعة بيروت ١٩٧٠.

الباب الثاني

الإسلام واليزيديّة

الفصل الأول، التأسيس للطريقة العدوية

الفصل الثاني، التحول للحلول ووحدة الوجود.

الفصل الثالث، الهجرة للمذهب اليزيدي

الفصل الأول

التأسيس للطريقة العدويّة

- مدخل الفصل:
- حياة الشيخ عدي بن مسافر وأهم أحداث عصره.
- حياة الحلاج ورأي المؤرخين فيه.
- خصائص الطريقة العدوية.
- طبقات المتصوفة في المذهب العدوي.
- المذهب العدوي والمرأة.
- قضية إبليس والسماع عند المتصوفة.
- الشيخ عدي بن مسافر في نظر الباحثين العرب والأكراد والأجانب.

مدخل الفصل:

يبدو لي أن كل عقيدة دينية أو مذهب فكري، تكوّن في زمن معيّـن، ساهم في تكوينه شخص ما، وعلى الباحث معرفة الأسباب التي دعت الناس إلى الإيمان به وأهم الأحداث التي كونته، يقول الفيلسوف الانكليزي الفريد نورث هوايتهيد في «تاريخ الأديان، أي دين، هو تاريخ الأجيال التي ساهمت به، وعلى الباحث الاهتمام بالأفكار العميقة التي كونته، ولا عجب أن تكون الأديان أكثر بربرية من الحضارات التي ازدهرت فيها»(١). من هذا المنطلق الفكري أرى أن المذهب العدويّ الصوفي لم يتكوّن بمعزل عن الزمان والمكان الذي نشأ فيهما، فهو نظام فكري غيبي، نشأ في مجتمع معين، وعبّر عن ثقافة جبلية رعوية وفلاحية، مجتمع ريفي صلته بالمدينة العربية الإسلامية كانت شبه معدومة، لتعدد الألسن، حيث أن اللغتين الكردية والسريانية كانتا سائدتين في القرى والريف.

وبما أن المذهب العدوي الصوفي انتشر في الوسط الكردي، فالتفاهم والشروح كانت بالانتقال من اللغة العربية إلى اللغة الكردية، التي كونت الوعي الذاتي الذي يكمن وراء معاملات الناس في السوق والحقل والزاوية.

قال الباحث والعالم فرايزر في بحثه عن الأساطير «إننا على ثقة بأن الديانة قد تتأثر بالمحيط الطبيعي أكثر من كل نظام اجتماعي»(٢) وبما أن المذهب العدوي نشأ بين قبائل كرديّة تسكن الجبال والسهول المحاذية لها، فقد التصق هذا المذهب في تلك الأماكن وما يماثلها، وقد تنبه عالم الاجتماع مونتيسكيو لهذا العامل فقال «إن الديانة المؤسسة على المحيط الجغرافي لا تنتشر في بلاد تخالف في طبيعتها الجغرافية البلاد التي وجدت فيها هذه الديانة»(٣) التي لم تتجاوز الأكراد أعني الديانة اليزيديّة التي خرجت من عباءة الإسلام ومن مذهب صوفي موحِّد، من عبادة الإله الواحد الأحد، إلى عبادة الآلهة السبعة، من عبادة منزِّهة إلى عبادة مجسِّمة.

والسؤال المهم: **كيف تم هذا التحول؟** أو كيف تخطى المذهب نفسه وشكلّ ديانة جديدة لبّت مصالح الشيوخ العدويّة القائمين عليها، وهذا يقتضي مني البحث في عملية نشوء المذهب العدوي ونموّه، ثم تخطيه لذاته عندما كوّن المذهب العدوي الحلولي، ثم زواله وتلاشيه في الديانة

اليزيديّة، التي أصبحت ديانة تبدو لا علاقة لها بالإسلام، وهي ذات لحمة إسلامية محضة، وسأبين، منشأ هذه النحلة وأوّل مبتدع لها، وما تقلبت فيه من أطوار حتى وصلت إلى ماهي عليه الآن، مزيلاً عنها الغموض، وبذلك أحقق رغبة العلامة أحمد تيمور باشا الذي مات وفي نفسه غصة، قال «وكل ما أوردوه عن اليزيدية، جاء مضطرباً، مبتوراً لا يصدر عنه الباحث بغناء»(٤) ولكي أصل إلى تلك النتيجة سأتوقف بالمراحل التالية:

الفصل الأول: المذهب الصوفي العدوي.

الفصل الثاني: المذهب العدوي الحلولي.

الفصل الثالث: التحول الكبير من المذهب العدوي إلى الديانة اليزيديّة.

حياة الشيخ عدي بن مسافر وأهم أحداث عصره:

ولد الشيخ عدي بن مسافر الأموي في سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٥م) في بلدة (بيت فار) بالقرب من بعلبك في البقاع، وقيل بل هي بيت فار قرب حران، خربة (مدينة الفار) شرق حمام التركمان في محافظة الرقة، وقيل أنه من بيت فار قرب بالس، وهي خربة الفار قرب بلدة مسكنة في محافظة حلب، وهذه البلدان الثلاث تعود إلى مسلمة بن عبد الملك وقد لقبه العباسيون (بالفّار) لأنه لم يصمد أمام أسوار القسطنطينية.

وقيل عن نسب الشيخ عدي بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي(٥)، وعاش الشيخ عدي في عصر مضطرب، فقد استولى الخليفة المستظهر بأمر الله الفاطمي الحكم على بلاد الشام، وصار الخليفة الطائع العباسي شديد الانحراف عن آل أبي طالب، قال السيوطي «وسقطت الهيبة في أيامه جداً حتى هجاه الناس»(٦). وفي سنة (٥٠٣هـ/١١١٠م) أخذ الفرنجة مدينة طرابلس من المسلمين وقتلوا من فيها من الرجال وسبوا الحريم والأطفال، ثم أخذوا مدينة جبلة، فهاجر الشاب عدي بن مسافر وعائلته إلى دمشق وفيها درس الفقه الشافعي وعلوم القرآن والحديث النبوّي، ودرس كتاب أبي بكر الشاشي (المتوفى (٥٠٧هـ ١١١٤م) المسمّى (حلية العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء) وحفظ من شعره قوله:

تعلم يا فتى والعود غض ... وطينك لين والطبع قابلْ

فحسبك يا فتى شرفاً وفخراً ... سكوت الحاضرين وأنت قائلْ

درس الشاب عدي بن مسافر على يد أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي (٤٤٨هـ/٥٠٧هـ) آخذاً طريقته في التصوف والزهد، وهو القائل:

دع الزهد الذي اشتغلت به، خوارج أقوام من الناس
وعج على دير دار يا فان به الر هبان ما بين قسيس وشماس
واشرب معتقه من كف كافرة تسقيك خمرين من لحظ ومن كاس
ثم استمع رنة الأوتار من رشأ مهفهف طرفه أمضى من الماس
لولا نسيم بدا منكم يروحني لكنت محترقاً من حر أنفاسي

وكان هذا الشعر تغنيه في مجالس السماع الصوفيّة بعض القوالات والشباب الذين يرقون قلوب الناس، ويجعلونهم يهيمون بحب الله»(٧) عندما يسمعون ويشهدون مقامات الصدِّيقين وأحوال النبيِّين»(٨).

لقد أخذ الشيخ عدي بن مسافر خرقة التصوف عن أبي الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي، وكانت هذه الخرقة قد وصلت عن رسول الله (ص) وقد منحها لعلي بن أبي طالب وهي خرقة الفقر، ثم منحها الإمام علي إلى ابنه الحسن ومن ثم منحها الحسن لأخيه الحسين رضوان الله عليهم أجمعين، ثم منحها الحسين لكميل بن زياد، وهناك خرقة للفقر منحها الإمام علي للحسن البصري في الكوفة، وعنه ظهرت في أربعة عشرة أسرة وكان الحسن البصري يدعوا أخوانه ويغلق بابه، ويتحدث مع كل واحد بمواجيده وذوقه وما أنتجه له علمه من العلوم والأسرار، وكان يوجب كتمان علمه عن العوام، تبعاً لقول رسول الله (ص): حدِّثوا الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله» وقول علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه)! لو جلست أحدثكم ما سمعت من أبي القاسم لخرجتم من عندي وأنتم تقولون! إن علياً من أكذب الكاذبين»(٩) والخرقة الأخيرة هي التي أخذها عدي بن مسافر. لقد كانت لأبي يزيد البسطامي (٢٦٧هـ/٨٨١م) ولأبي منصور الحلاج (٣٠٩هـ/٩٢٠)، ولأبي بكر الشبلي، حتى وصلت إلى الشيخ أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي (المتوفى ٥١٨هـ/١١٢٥م) وكان من شروط الشيخ، أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون قد أخذ هذا الطريق التقي عن شيخ محقق تسلسلت متابعته إلى رسول الله (ص) وارتاض رياضة روحيّة بالغة من قلة الطعام والكلام والمنام وقلة الاختلاط مع الأنام وكثرة المداوّمة على الصلاّة والصيّام، وفي اصطلاحات الصوفيّة، الشيخ هو الإنسان الكامل في العلوم الشرعيّة والطريقة والحقيقة، البالغ حد الكمال، لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها وقدرته على شفائها، والقيام بهداها أن استعدت ووقفت لاهتدائها.

ومن شروط المريد، إذا وصل إلى الشيخ أن يحتاط ويجتهد في معرفة الشيخ: هل يصلح للشيخة أم لا؟ فإن أكثر الطالبين هلكوا في هذا المنزل لاقتدائهم بالأئمة المضلِّة.

وعلى المريد أن يتحقق أن الشيخ متبع الشرع وعلى الطريقة والحقيقة، وإلا لبس المريد خرقه الباطل، وضل الطريق.

وقد روى الحسن البصري (٢٢هـ/ ١١٠هـ) قولاً للإمام علي، «قد أظهر رسول الله، مذهب الشريعة لكل شخص، ولم يظهر مذهب العشق إلا لي».

وعندما لبس الشيخ عدي بن مسافر خرقة التصوف من يد شيخه المقدسي، دخل في إرادته وتاب على يده، ولبس لباس التقوى ظاهراً وباطناً. قال تعالى «قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سؤاتكم، وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير» سورة الأعراف: ٢٦. ويصبح الشيخ للمريداً أباً روحياً قال عليه السلام: الآباء ثلاثة: أب ولدك، وأب علّمك، وأب ربّاك»(١٠).

وصل الشيخ الزاهد عدي بن مسافر إلى بغداد في عام (٥١٥ هـ/١١٢٢م) ودرس في المدرسَة المستنصريّة على يد عدة شيوخ ومنهم الشيخ أبو الفتح أحمد بن محمد الغزالي درس عليه شرح كتابه المسمى (لباب الأحياء) وكان كتاباً في التصوف، وكان هذا الشيخ واعظاً مفوّهاً ذا حظ من الكلام والزهد والتأني، قال عنه ابن خلكان «كان واعظاً مليح الوعظ، حسن المنظر صاحب كرامات، وكان من الفقهاء الشافعية، وعظ مرة في دار السلطان، فأطلق له ألف دينار، وخرج فإذا على الباب فرس الوزير بسرجها المذهّب، فركبها وبلغ ذلك الوزير، فقال: دعوه ياخذها، وسمع مرة ناعورة تئن فألقى عليها رداءه فتمزق قطعاً قطعاً، وكان يتعصب لإبليس ويعتذر له»(١١) وكان الحنابلة يتعصبون ضده ويوردون عنه أشياء منكرة. ومن معلمي الشيخ عدي الشيخ حماد بن مسلم الرحبي الدبّاس (المتوفى ٥٢٥هـ/١١٣٣) وكان صاحب أحوال ومكاشفات واطلاع على المغيِّبات وكان الشيخ علي بن عقيل الحنبلي (٤٣١هـ/٥١٣هـ) شيخ الحنابلة في بغداد ينفر منه، ويشنع عليه فيقول حماد الدباس (ابن عقيل عدويّ) وتابعه في العداوة ابن الجوزي (المتوفى ١٢٠٠م) الذي قال عنه «كان الناس ينذرون لحماد فيقبل ذلك ويأخذها وينفق على أصحابه، وكان عريان من العلوم الشرعية، وإنما كان علمه ينفق على الجهال»(١٢) وكان الحنبالة يوصمون الصوفية بالجهلة، ولكن الأمر ليس كذلك، فقد كان الشيخ عبد القادر الكيلاني (٤٧٠هـ /٥٦١هـ) حنبلياً ومن أهل الأحوال والمكاشفات وكان أحد الأبدال السبعة في التصوف بل يقال عنه غوث زمانه وكان مرافقاً للشيخ عدي بن مسافر في السياحة والحج، وكان الشيخ عبد القادر طويل القامة له سمت حسن، ذو هيبة في مجلسه قال عنه ابن كثير «وكان يتكلم على الناس في بغداد ويعظهم، وانتفعوا به انتفاعاً كثيراً، وكان فيه تزهد كثير وله أحوال صالحة، ويذكرون له أفعالاً ومكاشفات، وقد صنف كتاب الغنيّة، وفتوح الغيب، وهما كتابان حافلان بالمعارف، وبالجملة كان من سادات المشايخ»(١٣).

من هو الشيخ عبد القادر الكيلاني؟ وما علاقته بالشيخ عدي بن مسافر؟

كان الشيخ عبد القادر من نسل الحسن بن علي (رضوان الله عليهم)، عاش في شمال إيران بمحاذاة بحر قزوين في منطقة (جيلان) وانتقل إلى بغداد في أول شبابه ودرس في المدرسة المستنصرية، وكان رفيق عدي بن مسافر في الدراسة، وهو القائل عن زميله ورفيق صباه «لو أن النبوة تنال بالرياضة الروحية لنالها عدي بن مسافر».

وكان الكيلاني ذا مهابة تخافه الخلفاء لعظم مكانته عند العوام، قال الباحث والمفكر هادي العلوي «كان يأخذ خلعاً من الخلفاء ويوزعها على الفقراء، وكانت علاقته سيئة بالخليفة المقتفي الذي تولى طرد السلاجقة وانتصر عليهم فنزع إلى التسلط بعد أن استعاد السلطة الفعلية على الخلافة، وكان الجيلي (الكيلاني) يهدده فيخاطب نخلة في مجلسه يقول لها «يا نخلة لا تجوري. أقطع رأسك». وكان نفوذه أقوى من نفوذ الخليفة لأن عوام بغداد كانوا يتابعونه ويتحركون بأمره فلم يجرأ الخليفة على التحرش به»(١٤).

وكان للكيلاني شعر جميل في الحب الإلهي وهو القائل:

ما في الصبابة منهل مستعذب ... إلا ولي منه الألذ الأطيب

أنا بلبل الأرواح أملأ روضها ... طرباً وفي العليا باز أشهب

مازلت أرتع في ميادين الرضا ... حتى وهبت مكانة لا توهب

أفلت شموس الأولين وشمسنا ... أبداً على فلك العلى لا تغرب

واتجه الكيلاني إلى تبرئة إبليس ولكن في تحفظ مثل شيوخه أصحاب الخرقة البصريّة كالحلاج وأبي الفتح الغزالي، قال في كتابه فتوح الغيب «رأيت إبليس في المنام فهمت بقتله فقال لي: وما ذنبي أن جرى القدر بالشر فلا أقدر أن أغيره إلى خير وأنقله إليه؟... ثم تبسم في وجهي تبسم خجل وجل. وذلك في ليلة الأحد ثاني عشر ذي الحجة من سنة ست عشرة وخمسمائة». ما هذا التبسم أليس هو مظنة تواطؤ؟»(١٥) وكان مثل الحسن البصري رضى الله عنه لا يحب البوح بأسراره في الهوى الإلهي، قال:

مزجنا بها التقوى لتقوى نفوسنا ... فيا من رأى خمراً يمازجها التقوى

شربنا فبحنا فاستبيحت دماؤنا ... أيقتل بواح بسر الذي يهوى

وما السر في الأحرار إلا وديعة ... ولكن إذا رقّ المدام فمن يقوى؟

وعاش الشيخ عبد القادر في شبابه في الخلوات وفي الصحارى وبين القبور، ومع ذلك كان يغبط الشيخ عدي بن مسافر لتمكنه في الرياضة الروحية، وفي حبه للخلوات أكثر منه، وأكثر من الشيخين عقيل المنبجي وأبي الوفا الحلواني.

كان الشيخ عدي بن مسافر جميل الصورة ربع القامة، ولجماله كان رفاقه من السادة الصوفية يلقبونه (بطاووس المتصوفة)، وكان له صوت جميل في الإنشاد، وينظم الشعر العذب، ولكنه ترك بغداد وذهب إلى الشمال إلى جبال الموصل لأنها كالبيئة التي نشأ فيها في (بيت فار) في بعلبك في لبنان، قال مظفر الدين صاحب أربيل «رأيت الشيخ عدي بن مسافر وأنا صغير بالموصل وهو شيخ ربعه، أسمر اللون، وكان يُحكى عنه صلاحاً كثيراً». وقال عنه ابن كثير «عدي بن مسافر شيخ الطائفة العدوية، دخل بغداد فاجتمع فيها بالشيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ حماد الدباس، والشيخ عقيل المنبجي وأبو الوفا الحلواني، ثم انفرد عن الناس وتخلى بجبل هكار (شرق الموصل) وبنى له هناك زاوية، وأعتقد به أهل تلك الناحية اعتقاداً بليغاً، حتى أن منهم من يغلو غلواً كثيراً منكراً ومنهم من يجعله إلهاً وشريكاً، وهذا اعتقاد فاحش يؤدي إلى الخروج من الدين جملة، مات ودفن في زاويته وله من العمر سبعون سنة رحمه الله»(١٦).

وقال عنه ابن خلكان في كتابه وفاة الأعيان «سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد، حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها، وذخيرتهم في الآخرة التي يعولون عليها، ثم انقطع إلى جبل الهكّارية من أعمال الموصل، وبنى له هناك زاوية، ومال إليها أهل تلك النواحي كلها ميلاً لم يسمع لأرباب الزوايا مثله»(١٧).

وقبره يزار الآن في قرية باعدرى من قرى الموصل تبعد حوالي أحد عشر ساعة، وحفدته لا زالوا بموضعه يقيمون شعاره، ويقتفون آثاره والناس معهم على ما كانوا عليه زمن الشيخ من جميل الاعتقاد وتعظيم الحرمة»(١٨).

وكذلك أثنى عليه الشعراني في كتابه المسمى (لواقح الأنوار) ذكر فيه أنه أقام في أول أمره زماناً في المغارات والجبال والصحارى مجرداً سائحاً يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات، وهو أول من قصد بالزيارات وتربية المريدين الصادقين، وقصده الناس من سائر الأقطار، وذكروا له كرامات وخوارق، سكن جبل الهكار واستوطن لالش ومات فيها ودفن بزاويته المنسوبة إليه وقبره بها ظاهر يزار»(١٩).

أما ابن العماد الحنبلي (المتوفى ١٢٦٣) قال عنه في كتابه شذرات الذهب، «تجاوز أصحابه الحد في اعتقادهم به حتى زعموا، أنه إذا ذكر على الأسد وقف أو على البحر الهائج سكن وقال عنه تلميذه الشيخ الصديق بن محمد المقرّي في رسالته الوسيلة الجامعة:

بجاه عدي ذلك ابن مسافر ... به تسكن الأمواج في لجج البحر

وإن قلته لليث لم يخطُ خطوة ... ولا الشبر من قاع ولا القاع من شبر

ودونك شيخ الإسلام ابن تيمية (المتوفى ٧٢٨هـ /١٣٢٨م) وهو خصم وعدو للصوفية خصّه برسالة هي الرسالة العدوية. قال فيها عن طريقته هي طريقة السنة المحمديّة ولكنه حذّر من اتباعه قائلاً «وفي زمن الشيخ حسن بن عدي زادوا أشياء باطلة نظماً ونثراً، وغلو في الشيخ عدي وفي يزيد بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدي قدّس الله روحه، فإن طريقته كانت سليمة ولم يكن فيها من هذه البدع شيء يذكر،.. واعتقدوا في يزيد أنه كان من الأنبياء وهم يقولون: من وقف في يزيد وقفهُ الله في نار جهنم، ويروون عن الشيخ حسن بن عدي أنه كان كذا وكذا ولياً وإنهم وقفوا في النار لقولهم في يزيد»(٢٠).

لِمَ هذا الغلو في الشيخ عدي بن مسافر؟ وكيف تحوّل من شيخ زاهد إلى أسطورة،؟ أعني في مرحلة الديانة اليزيدية. شوّهت الأخبار وتحوّل التاريخ إلى خرافة، ذكر أحمد تيمور باشا أنه وردت في النسخة الأمريكية لكتاب الجلوة «في زمان المقتدر بالله سنة (٢٩٩هـ ٩١٢م) كان منصور الحلاج والشيخ عبد القادر الكيلاني، في ذلك الوقت ظهر إنسان اسمه الشيخ عادي بن مسافر من جبال الهكارية، أصله من أطراف حلب أو من بعلبك جاء وسكن، جبل لالش قرب مدينة الموصل على بعد نحو تسع ساعات، والبعض قالوا: كان من أهل حران، ونسبته إلى مروان الحكم»(٢١).

حياة الحلاج:

إذا تمعنا في النص السابق، نجده قد جمع بين الحسين بن منصور الحلاّج الذي (قتل ٣٠٩هـ ٩٢٢) وهو شخصية من القرن الرابع الهجري، نشأ بواسط ودخل بغداد وتردد إلى مكة وجاور بها في وسط المسجد الحرام سنة كاملة في البرد والحر، وكان يصوم السنة كلها ولا يفطر إلا على قرص خبز ويشرب قليلاً من الماء وقت الفطور، وكان يجلس على صخرة في أعلى جبل أبي قبيس في شدة الحر، وأخذ بطريقة الحسن البصري، وصحبه جماعة من سادات المشايخ كالجنيد بن محمد وعمرو بن عثمان المكي وأبي الحسين النوري وأبي بكر الشبلي والصوفية والفقهاء مختلفون فيه.

رأي الصوفية فيه:

قال عنه محمد بن خفيف الشيرازي، الحسين بن منصور عالم رباني، وقال أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي: سمعت إبراهيم بن محمد النصر آباذي وقد عوتب في شيء حكي عن الحلاّج في الروح فقال للذي عاتبه، إن كان بعد النبيين والصدّيقين موّحد فهو الحلاج. وقال أبو عبد الرحمن السلمي أيضاً، سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت أبا بكر الشبلي يقول: كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر وكتمت، وروي عن أبي بكر الشبلي: أنه خاطب الحلاج وهو مصلوب، ألم أنهك عن العالمين؟..

لِمَ ارتبط اسم عدي بن مسافر باسم الحلاج والشيخ عبد القادر الكيلاني؟ لأنهما صاحبا طريقة واحدة تعود إلى الحسن البصري، وتلك الطريقة مليئة بالأسرار والألغاز الصوفية وكان الشيخ عدي يغالي فيه ويعتبره غوث زمانه، ويردد شعره.

جبلت روحك في روحي كما | يجبل العنبرَ بالمسك الفتقْ
فإذا مسّك شيء مسّني | وإذا أنت أنا لا نفترقْ

أو قوله:

مزجت روحك في روحي كما | تمزج الخمرة في الماء الزلالْ
فإذا مسّك شيء مسّني | فإذا أنت أنا في كل حالْ

وقد شرح شعر الحلاج الذي بدا لمعاصريه كفراً، لقوله بالحلول، علله عدي وبيّن فيه طريق التوحيد الإلهي، خصوصاً قوله:

سبحان من أظهر ناسوته | سر سنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا في خلقه ظاهراً | في صورة الآكِل والشّاربِ
حتى قد عاينه خلقهُ | كلحظة الحاجب بالحاجب

وروي عدي بن مسافر عن الحلاج، عندما سئل: كنت تدّعي النبوة فصرت تدّعي الربوبية؟ فقال: لا ولكن هذا عين الجمع عندنا.

وسأل القاضي بن لك الحلاج عن كتاب الإخلاص للحسن البصري الذي وجده في حوزته، فأقر الإيمان بمضمونه، قال ابن عطاء، وكان ذلك سبب جلده، وسأله الوزير حامد بن العباس وهو يجلده، ويحك تصوّب مثل هذا القول وهذا الاعتقاد؟ وضرب الوزير ابن عطاء فقال: اللهم اقتله واقطع يديه ورجليه وأحرق داره، وقيل تمت دعوة ابن عطاء بحذافيرها»(٢٢).

وروى ابن عطاء (أحمد بن محمد) قول الحلاّج قبل قتله «اللهم.. نحن شواهدك فلو دلتنا عزتك، لتبدي ما شئت من شأنك ومشيئتك، أنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله، كيف أنت إذا مثلت بذاتي عند حلول لذاتي ودعوت لذاتي بذاتي، وأبديت حقائق علومي ومعجزاتي صاعداً في معارجي إلى عروش أزلياتي»(٢٣).

وعندما سمعه المشايخ وهو يجلد وتقطع يداه ورجلاه وهو في ذلك كله ساكت، بكوْا له وزاد ألمهم عندما قطع رأسه وطيف به في مدن خراسان، وكان أصحابه يقولون:

سيعود بعد أربعين يوماً، وقال بعضهم، إن الذي صلب هو شيطان على صورة الحلاج ليضل الناس به. وكانت المبيضّة وهم بالأساس من أتباع ماني دخلوا الإسلام واختلطت تعاليمهم بتعاليم الإسلام وكانت أسطورتهم الحلاّج.

رأي الحنابلة في الحلاج والصوفية عموماً:

يقولون: كانت بداية الحلول وظهورات الآلهة السبعة من خطرفات الحلاج وأتباعه عندما اعتبروا اللاهوت والناسوت مجرد وجهين لحقيقة واحدة، وأصبح الإنسان هو الكون الجامع لحقائق الوجود وأصبح الرمز معنى باطناً مخزوناً تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله. قال الطوسي في كتابه لمع الصوفية، ومن هذه الرموز تتكون الأسطورة وتؤدي إلى الخطرفة أحياناً.

وقال أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي عن الحلاج وترقّى به الأمر وادعّى الربوبيّة، وسُعي بجماعة من أصحابه إلى الخليفة (المقتدر) فقبض عليهم وأمر الخليفة بتسليمهم إلى الوزير حامد بن العباس وأمره أن يكشفه بحضرة القضاة والعلماء ويجمع بينه وبين أصحابه وأفتى العلماء بقتله واحراقه بالنار، وقال الحلاج عند قتله: طهري حمى، ودمي حرام ولي كتب في السنة موجودة في الوراقين، فالله الله في دمي»(٢٤).

قال عيسى القصار: آخر كلمة تكلم بها الحلاج «حسب الواحد إفراد الواحد له».

خصائص طريقة التصوف العدويّة:

عاش عدي بن مسافر الأموي، في عصر مضطرب سياسياً واجتماعياً، وقد انعكس ذلك على مفهوم التصوف الذي كان هو البؤرة الثقافية السائدة واعني بالبؤرة الثقافية كل ما يهتم به شعب من الشعوب اهتماماً رئيسياً، وكان التصوف هو ميدان النشاط والاعتقاد الذي تدور فيه أكثر المناقشات حول القيم، وفيه أوسع الخلافات في البنيان الثقافي،(٢٥) ومن هذه المسائل الخلافيّة:

- الله (ذاته وصفاته)
- مجاهدة النفس أو علم السلوك.
- مرتبة النبي والولي أو طبقات المتصوفة.
- الجنة والنار أو الحشر والمعاد.
- قضية إبليس عند المتصوفة.

الله ـ ذاته وصفاته:

التوحيد هو تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام أو يتخيل في الأوهام والأذهان. وهو الاعتقاد بوحدانية الله. أي ما يعتقد المسلم المؤمن بما أخبر به محمد (ص) الصادق الأمين، وسلّم به القلب من دون شبهة أو حيرة، وهو أن الله واحد، قال الجنيد عن الله (تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ويكون الله كما لم يزل»(٢٦).

ولكن للصوفية رأي خاص يقول محي الدين بن عربي (المتوفي ٦٣٨هـ١٢٤١) «لولا ظهورات الحق في أعيان الخلق، ما كانت صفاته وأسماؤه المتخيلة في الكون»(٢٧). وقال أبو بكر الشبلي وقد سأله شاب: لِمَ تقول (الله) ولا تقول (لا إله إلا الله).؟ قال: استحي أن أوجه إثباتاً بعد نفي. فقال الشاب: أريد حجة أقوى من هذه، فقال: أخشى أني أو خذ في كلمة الجحود (لا إله) ولا أصل إلى كلمة الإقرار (إلا الله)(٢٨) والصوفيّة يرون أن الله تعالى يتجلّى في كافة مخلوقاته فالكون والإنسان والحيوان والشجر كلها من مظاهره»، رأى أبو الحسن النوري رجلاً قابضاً على لحيته فقال له: ارفع يدك عن لحية الله، فرفع ذلك الرجل الأمر إلى الخليفة، فلما دخل عليه أبو الحسن النوري قال له: بلغني أنه نبح كلب، فقلت لبيك، ونادى المؤذن، فقلت «طعنه سم الموت»! قال: نعم قال عزّ وجل «وإن من شيء إلا ويسبِّح بحمده» سورة الإسراء: ٤٤.

فقلت لبيك لأن الكلب ذكر الله، فأما المؤذن، فإنه يذكر الله وهو متلوث بالمعاصي، غافل عن الله ويأخذ على ذلك الأجرة ولولاها ما أذّن، فقلت: طعنه سم الموت. وقولك للرجل: ارفع يدك عن لحية الله؟ قلت: أليس العبد لله، ولحيته لله وكل ما في الدنيا والآخرة له»(٢٩).

وللصوفية شطحات، والشطح عبارة تصدر من أهل المعرفة اضطراراً، كقول الحلاج «أنا الحق» وقول أبي يزيد البسطامي «سبحاني سبحاني ما أعظم شأني» نقل الخبر إلى الجنيد، فقال «إن الرجل مستهلك في شهود الجلال، فنطق بما استهلكه أذهله الحق عن رؤيته إياه فلم يشهد إلا الحق فنعته»(٣٠) وقيل لأبي يزيد: إنك من الأبدال السبعة، الذين هم أوتاد الأرض، فقال: «أنا كل السبعة»(٣١) وكان عدي بن مسافر يعلِّم مريديه بأن الوجود الحقيقي هو الله، وظهوراته السبعة هم الحقيقة، والخلق شبح زائل أو ظل للوجود الحقيقي، ولله صفات كونه خالقاً ورازقاً ومدبراً، وصفات ذاته كونه واحداً وقديماً، والله هو النور الحق الذي بيده الخلق، والأمر وسائر الأنوار منه مستفاده، ويقابل نوره الظلمة وهي العدم المحض من هنا لا تعارض بين النور والظلمة. كانت دعوته تجذب كل مؤمن بالله، ويقال أنه تاب على يديه خلق كثير من المسيحيين والمانويين وغيرهم.

وكان الشيخ عدي يقول «للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام». وفي اعتقادي أن هذه الأقوال مأخوذة من كتاب أحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ولم يكن الشيخ عدي مبتكراً في التصوف وإنما هو أستاذ منظمٍ ومتكلم مفوّه يغير على كتب الصوفية، وينُظمها أحياناً بشعر رقيق ضاع أكثره وحفظ أتباعه بعضه.

مجاهدة النفس أو علم السلوك:

احتلت فكرة النفس أو الروح مكاناً هاماً في التفكير الصوفي، علماً أن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عنها سوى قوله تعالى «ويسألونك عن الروح قل الروح من علم ربي» سورة الإسراء آية ٨٥ وقد أمسك جمهور الفقهاء عن الخوض فيها، ولكن المتصوِّفة أخذوا علمها عن الفكر اليوناني، وقد ميزوا بين (النفس والروح والعقل)، قال أبو حامد الغزالي: تطلق النفس بثلاثة معاني:

ـ **أحدها**، أن تطلق على الروح ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة، وهي القوى الحيوانية، المضادّة للقوى العقلية، وهذا المفهوم عند عموم الصوفية فيقال أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك، وإلى هذا المعنى أشار رسول الله (اعدى عدّوك نفسك التي بين جنبيك).

ـ **والثاني**، يطلق على النفس، ويراد به حقيقة الآدمي، فإن نفس كل شيء حقيقته وهي الجوهر الذي هو محل المعقولات، وهو من عالم الملكوت ومن عالم الأمر ومنه الكلام المأثور (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

ـ **والثالث**، يطلق على العقل والمراد به النفس الإنسانية، وهو العقل المستفاد أيضاً وهو لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم تبيّن إلا بالعقل، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء»(٣٢).

يقول الشيخ عدي بن مسافر وهذا العقل قابل للزيادة والنقصان إلا عقل النبي فهو فوق العقول كلها، وإلى مثل هذا القول أشار يحيى النحوي بقوله «إن الذي يفيض على العقل المستفاد ويصل به إلى رتبة عقول الكاملين الإلهام الإلهي أو هو الوحي» من أين وصلت هذه المقولة إلى عدي بن مسافر؟ لاشك أنه وجدها في بيئته، فقد ذكرها الفيلسوف اللاهوتي موسى بن كيفا (المتوفي ٩٠٣) وقد عرض فكرة الإنسان الكامل المرموز إليه بآدم عليه السلام، وقال عدي بن مسافر من بعده «لما أوجد الله العالم كان شبحاً لا روح فيه كالمرآة غير المجلوّة وعندما تم الأمر وخلق آدم تمت الجلوة لتلك المرآة» فكأن الله خلق الإنسان ليكون جلاء تلك الصورة، وروح ذلك الجسم الذي تظهر فيه الذات الإلهية متعيِّنة بجميع صفاتها، والإنسان هو الغاية القصوى لأن بوجوده تحققت المشيئة الإلهية بإيجاد مخلوق عرف الله حق معرفته.

«وأظهر الله منه كمالاته». وهذه هي خلاصة كتاب (الجلوة لأرباب الخلوة). الذي وضعه الشيخ حسن بن عدي.

وقد استخدمت في الكتاب لغة الرمز والإشارة، فالنفس طائر يحن أبداً إلى الرجوع إلى وطنه الأصلي عالم الغيب والشهادة، والرمز لا يمس العقل إلا من حيث يثير فيه الخيال والوجدان، وتتعمق المعاني بتكرار المجاهدات الروحية بالذكر والدعاء ومداومة الصلاة، والذكر أعلى من الصلاة لقوله تعالى «ولذكر الله أكبر» سورة العنكبوت: ٤٤.

والصلاة الحقيقية عند الشيخ عدي بن مسافر هي التفكير بخلق العالم حيث تنجلي مرآة النفس وتدرك من الحق ما يليق بمقامه الأقدس لقوله صلى الله عليه وسلم (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وقول ذو النون المصري (من ذكر الله على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء). ومجاهدة النفس هي حياة التطّهر والنسك لأن النفس هي العدو الأكبر الذي يجب مجاهدته، وعن تلك المجاهدة تنبجس أنوار الإشراق والمشاهدة الروحية التي هي الطريق لكشف المعاني والأسرار، وتتم في فناء جانب من شخصية المريد في شخصية الشيخ الروحاني الذي يهدي مريده في عروجه نحو مقام الوجد، وتبقى المواصلة بينه وبين الشيخ ويبقى بينهما الاتصال القلبي والمحبة دائماً.

طبقات المتصوفة في المذهب العدوي:

المتصوف هو الذي يجاهد نفسه للفناء بالله، قال الجنيد الصوفية هم القائمون مع الله بحيث لا يعلم قيامهم إلا هو، وقيل أول التصوف علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله. وقال الشبلي: التصوف هو حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك. وقال عدي بن مسافر «الصوفي هو الذي يكون له ذكر معروف، ووجد مسموع وعمل متبوع وهو دائماً مع الله دون غرض».

والصوفية طبقات تبعاً لمجاهدتهم الروحية.

الطبقة الأولى: الواصلون الكاملون: وهذه هي الطبقة العليا، لأن العناية الإلهيّة أنقذتهم من براثن الفناء بعد استغراقهم في عين الجمع وأوصلتهم إلى ساحل البقاء وميدانه، ومن هؤلاء القطب الرباني الذي يكون قلبه **(قلب محمد)** وهو الوارث للعلم اللدني، ومنهم الأولياء المقتفون آثار الأنبياء، وإذا انتقل من العالم جاء بديله ليحل وهؤلاء سافروا من عالم الشهادة ووصلوا إل فضاء غيب الوجود (وهم أوتاد الأرض القائمون لله بالسنة والفرض، والصدِّيقون في أعلى درجات الولاية وأدنى درجات النبوة).

الطبقة الثانية: السالكون طريق الكمال: وهم الذين لم يكفوا بعد الوصول إلى مرتبة الكمال عن الرجوع إلى الخلق وهدايتهم فأصبحوا غرقى بحر الجمع وذابوا في بحر الفناء، فلم يصلوا إلى ناحية البقاء وهم يطلبون الجنة والآخرة. ومنهم أناس يكلمون الأصفياء ويخبرون بالمغيبات

وسكناهم الجبال والقفار والأودية وأطراف الأنهار إلا من كان منهم متمكناً في ضبط النفس فإنه يتخذ من المدن مسكناً غير متشوق إليه ولا معول عليه. ومنهم أهل الكشف والحجاب ولكن لا يؤبه لأقوالهم ولا يتشوق لأمثالهم فهم بين الخطأ والصواب.

الطبقة الثالثة: المقيمون على الأرض: وهذه هي الطبقة الدنيا، وأفرادها يجعلون كل همهم تربية البدن، بالحصول على مطالب النفس وشهوات البطن وليس لهم نصيب من العبادات. ومنهم يخرج طالبوا الآخرة بالمجاهدة والرياضة الروحية، وهؤلاء يتدرجون في أربعة طوائف:

١) **طائفة الزهاد**، الذين شاهدوا، بنور الإيمان واليقين حقيقة الآخرة، وجمال العقبى، وهم الذين صاروا يعدون الدنيا قبيحة ويعرضون عن مقتنيات النفس أعراضاً تاماً بعد أن كانوا للدنيا عبيداً.

٢) **طائفة الفقراء**، وهؤلاء لا يتعلقون بملك شيء من الدنيا، لأنهم إما يطلبون الحق تعالى وهم تاركون للدنيا لأحد أمور ثلاثة (لأمل في الفضل، أو تخفيف الحساب، أو الخوف من العقاب) غير أن خلاصة مقام الفقر في مقام الدرج، لأن لكل شيء مقام يرتقي منه الصوفي، ليكتسب صفاءه ويمكن وجود الزهد بدون وجود الفقر، وهؤلاء هم رجال الغيب.

٣) **طائفة الخدّام**، هم الذين يختارون خدمة الشيوخ والفقراء طالبي الحق، ويقضون أوقاتهم بعد أداء الفرائض في تفريغ خاطرهم عن الاهتمام بأمور المعاش والإعانة على الإستعداد لأمر معاشهم ويقدمون على هذه النوافل سواء بالعمل أو بالسؤال.

٤) **طائفة العّباد أو المريدون:** ومن هؤلاء طائفة يواظبون على أداء الفرائض والذكر والنوافل من أجل الثواب الأخروي، ويظل باطنهم مشتاقاً دائماً لهذا المقام رغم مزاولتهم لأعمالهم الدنيوية كالرعي والزراعة أو الحرف والتجارة. وهم الجمهور الأعظم الذين لم يتخلّصوا من عوائق الدنيا.

مقام النبوة ومقام العارفين:

النبي إنسان اصطفاه الله من عباده، وخصه به، وأوحى إليه بشرع، وأمره بتبليغه، ودعا الناس إلى توحيد الله وتنزيهه عما لا يليق بالألوهية، ويبلغ الأحكام للعباد، **وكرامة النبوة:**

- إمّا تفضل من الله على من يشاء والكل فيه سواء على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص.

- وأمّا إفاضة حق(٣٣).

وعند الصوفية هناك مقام العارف أو الولي أو القطب الرباني الذي هو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره، وعبادته رياضة لهممه وقوى نفسه المتوهِّمة والمتخيِّلة

حتى يصير الإطلاع على نور الحق ملكة مستقرة له، وإذا ما اطلّع العارف على اسم الله الأعظم تبطل عنده الأحكام، لأنه يتوَّحد بالله، وتنكشف له الحجب، قال أبو حامد الغزالي «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشفها ــ سبحان وجهه ــ لأحرقت كل من أدركه بصره»(٣٤). ويرفع الصوفية مقام العارف بالله فوق مقام النبوة، قال أبو الريحان البيروني «وهم يزعمون أنه يحصل للعارف روحان:

- روح قديمة لا يجري عليها تغير ولا اختلاف، بها يعلم الغيب ويفعل المعجز.
- وأخرى بشرية قابلة للتغير والتكوين وفيها يتحد (العقل والعاقل والمعقول).

حتى تكون شيئاً واحداً، ولا يتم ذلك إلا بالابتعاد عن الشر وإماتت قوى (الشهوة والغضب) اللتين هما أعدى عدو الإنسان ويثبت نور قلبه، كثبات نور السراج الصافي الدهن، في كن لا يزعزعه ريح، ويشغله ذلك عن الإحساس بمؤلم الحر، والبرد لعلمه ما سوى الواحد الحق، خيال باطل»(٣٥).

والعارف بالله هو الإنسان الكامل الذي يستطيع أن يؤثِّر في أحداث الكون، وهو أعلى من النبي حيث كان موسى عليه السلام يسير خلفه، ويعمل بهديه. ويطلق على العارف أسماء منها الغوث أو القطب أو البدل قيل لأبي يزيد البسطامي وكان أحد الأبدال السبعة: بلغنا أنك من السبعة قال: أنا كل السبعة، وقيل له: إن الخلق كلهم تحت لواء محمد (ص) فقال: والله إن لوائي أعظم من لوائه، لوائي من نور تحته الجن والإنس كلهم مع البنين»(٣٦).

كان الشيخ عدي بن مسافر من الأبدال السبعة، «إذا ذكر اسمه على الأسد وقف أو على البحر الهائج سكن»، ومع ذلك لم تبدر منه أية شطحة كما حدث لأبي يزيد البسطامي الذي قيل له «أن للنبي معراج، فقال: لي معراج كما للنبي معراج»، فأخرجوه من بسطام وأقام بمكة سنتين، رجع بعدها إلى جرجان.

وشهد أهل دمشق أبو حامد الغزالي وهو يصنّف كتابه المفصح بالأحوال، ذكر فيه أن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى بهم الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطاق»(٣٧)، وصار القطب عند الصوفية هو الصدِّيق أو الحكيم الإلهي عند المانوية الذي يتلقى الامر من عالم الأنوار وهو الواسطة بين عالم الأمر وعالم الخلق، وكان زاد الشيخ عدي كتاب الخلاص المنسوب للحسن البصري، وهو الذي حوى علم الباطن، وعمل بنصيحته في كتم علمه إلا للُخلّص من أتباعه، وقد حفظوه في صدورهم، ويسميه اليزيدية اليوم (علم الصدر الرحماني). وفيه تعاليم الحلوليّة، يقال أن أبا نصر السرّاج صاحب كتاب لمع الصوفية ندم في آخر عمره

وقال: «بلغني أن جماعة من الحلوليّة زعموا أن الحق تعالى، اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعاني الربوبية، وأجازوا أن يكون الله في صفة الآدميين ولم يأبوا كونه حالاً في الصور الحسنة حتى استشهدوه في رؤيتهم في الغلامِ الأسود»(٣٨). وكان الشيخ عدي بن مسافر ممن مهدوّا للقول بالحلول وأن لم يفصح كثيراً كما أفصح الشيخ حسن بن عدي من بعده، وسنرى ذلك في الفصل التالي.

المذهب العدوي والمرأة:

كل المذاهب الصوفية ساوت بين المرأة والرجل، وراضوا النساء كالرجال بالزهد والورع وكثرة المجاهدة، وكانت النساء تلبس كالرجال وكانوا يقولون تابت فلانة وألبسها الشيخ الخرقة وقد صارت من بناته، وكانت النسوة تجتمع بالشيوخ ويحضرن دروس الوعظ، في خلوات خاصة بهن، وقد رماهن خصوم الصوفية بالفاحشة قال علاء الدين القونوي عن اليزيدية العدوية «وإنهم يمكنون شيوخهم من زوجاتهم ومحارمحهم، ويستحلون ذلك ويعتقدونه»(٣٩). وهذه التهمة قد رمى بها ابن الجوزي كل المذاهب الصوفية، فهذه أم علي زوجة أحمد بن حضروية طلبت من زوجها زيارة أبي يزيد البسطامي، فلما قعدت بين يديه أسفرت عن وجهها، وعند الخروج قال أبو يزيد لزوجها: تعلم الفتوة من زوجتك».

إن مجرد مشاهدة أبي يزيد للمرأة اعتبرها ابن الجوزي خطيئة، بل وفاحشة، ويروي عن ابن خفيف البغدادي شيخ الصوفية، الخبر التالي: قام بزيارة امرأة صوفية مات زوجها، واجتمعت عندها نساء صوفيات. وجاء ابن خفيف ومعه بعض أصحابه إلى الدار، وأخذ يُعزِّي المرأة بكلام الصوفية إلى أن قالت: قد تعزّيت فقال لها: ها هنا غير، فما معنى إلزام النفوس آفات الغموم وتعذيبها بعذاب الهموم؟ ولأي معنى نترك الامتزاج، لتلتقي الأنوار، وتصفوا الأرواح وتقع الاخلافات. فقالت النساء، إذا شئت». ثم يعلق أبو الفرج، فاختلط جماعة الرجال بجماعة النساء طول ليلتهم حتى السحر، فخرجوا، ومعنى قولهم، ترك الامتزاج، كناية عن الممازجة في الوطء، ولتلتقي الأنوار عندهم أن في كل جسم نوراً إلهياً، ويقع الاخلافات، أن يكون خلف ممن مات أو غاب من أزواجهن»(٤٠). هذه القصة تلصق بكل طائفة تمارس شعائرها بسرّية، وقد رأيناها من قبل توصم بها جماعة المبيّضة من المانوية والصابئة. وهي فريّة ينكرها العقل والحس السليم. فهذا ابن تيمية قال عنهم «وغلوا في الشيخ عدي بن مسافر بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدي الكبير قدّس الله روحه فإن طريقته كانت سليمة. لم يكن فيها من هذه البدع».

الحشر والمعاد أو الجنة والنار:

الحشر أو القيامة لا يتحقق بمفارقة النفس للجسد ولكن عند مفارقة كل النفوس لأجسادها وكأن المعاد هو رجوع النفس الجزئية إلى النفس الكلية، وتعود النفس الكلية إلى الله فيبطل الوجود ما عدا الله، وبذلك تتحقق القيامة الكبرى ويتم خراب العالم. هذا التصور الذي نجده في الديانة اليزيدية اليوم يخالف التصور العام للمسلمين، حيث البعث والنشور يحصلان بأمر الله تعالى، وما هذا التصور إلا تصور المنانيّة الذين يؤمنون بالتناسخ وقد لحق بالمذهب العدوي عندما تحوّل إلى الديانة اليزيدية.

والجنة عندهم هي عالم الأرواح السعيدة، وهي صورة روحانية لا هيولى جرمانية بل حياة محضة، وراحة ولذة وسرور وغبطة لا يعرض لها الكون والفساد والتغيّر والبلى. والجنة لا يوجد فيها زواج وسفاد.

أمّا النار فهي العذاب الذي تلاقيه الأجساد قبل تطهرها وظهورها بالاجساد الحيوانية وتظل تتردد دون فلك القمر، وتغير أجسادها عملاً بقوله تعالى (كلما نضجت جُلودهم بدلّناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) سورة النساء، آية ٥٦.

وبعد مكوث أهل الجنة مدة لا يعلمها إلا الله يعود الفيض الإلهي من جديد وتخلق دنيا جديدة، وأقواماً أخرى في العالم الأرضي حسب الأدوار والأكوار الفلكية.

أما اعتقاد المذهب العدوي الصوفي في بدايته لا يخالف التصور العام للإسلام فهم يروون أنه لما نزلت آية (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) الحجر: ٤٣. صاح سلمان الفارسي صيحة عظيمة، ووقع على رأسه، ثم خرج هارباً ثلاثة أيام خشية عذاب جهنم، إلا أن أبا يزيد البسطامي وهو شيخ يجلونه قال «وددت أن قامت القيامة، حتى انصب خيمتي على جهنم، فسأله رجل، ولِمَ ذاك يا أبا يزيد؟ فقال: إن جهنم إذا رأتني تخمد فأكون رحمة للخلق، وحكي عنه أيضاً أنه قال: وما النار والله لئن رأيتها لأطفئها بطرف مرقعتي»(٤١). ولليزيدية مثل هذا الاعتقاد في شيخهم عدي بن مسافر. إن ما يرويه علاء الدين القونوي عن الشيخ عدي «أن الشيخ عدي يجعل أمته يوم القيامة في طبق ويحمله على رأسه، ويذهب بهم إلى الجنة».

وقد روى أحمد بن العباس المهلبي، أن العارفين بالله في الآخرة على طبقتين.

- طبقة تزوره متى شاءت وأنى شاءت.

- طبقة تزوره مرة واحدة ثم لا تزوره بعدها، فقيل لأبي يزيد البسطامي كيف ذلك؟

قال: إذا رآه العارفون مرة جعل لهم سوقاً، فمن دخل منهم السوق لم يرجع إلى زيارة الله أبداً. ثم قال: في الدنيا يخدعك في السوق فأنت أبداً عند السوق»(٤٢).

أما الشيخ عدي كما يروي عنه أتباعه فقد زار الله سبحانه وتعالى عدة مرات وجلس معه وأكل معه خبزاً وبصلاً وأسقط عنه وعن أتباعه الفرائض(٤٣). بل كان يزوره مع أتباعه شيوخ المذهب العدوي، ومرة ركبوا خيولهم وعرجوا نحو السماء، وفي الطريق تذكروا أنه لا يوجد عليق أو علوفة لدوابهم، فعاد الشيخ أبو بكر مسرعاً ومعه التبن، الذي تناثر في الطريق في السماء وكوّن (طريق التبانة) Milky Way، وهذه علامة على أكرام الله سبحانه للشيخ عدي وأتباعه، أظهرها للعالم لتكون للدين اليزيدي حجة على العالمين.

ولليزيدية اعتقاد هو أن كل ما وصلت إليه البشرية من علوم ومخترعات حديثة أخذت من كتاباتهم المقدسة التي حوت كل الحقائق(٤٤) التي علّمهم إياها الشيخ عدي بن مسافر.

قضية إبليس والسماع عند المتصوفة:

كان عدي بن مسافر ينهج نهج شيخه أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي ويلوم كل من يزعم أن الخير من الله تعالى والشر من إبليس، وكان يقول: أن البارىء لا يقدر إلا على فعل الخير وإبليس يقدر على فعل الخير والشر معاً، ويقول عنه «أنه سيّد الموّحدين ومن لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق أمره الله أن يسجد لغيره فأبى وقال:

ولست بضارع إلا إليكم وأمّا غيركم حاشا وكلا

وعندما التقى إبليس بموسى عليه السلام عند عقبة الطور، قال موسى: يا إبليس لِمَ لم تسجد لآدم؟ قال: ما كنت لأسجد لبشر أوجده الله ثم اسجد لغيره. ولكنك يا موسى سألت رؤيته، ثم نظرت إلى الجبل، فأنا أصدق منك في التوحيد»(٤٥).

شاعت بين المتصوفة نزعة تعظيم إبليس منذ أيام الحلاج، وكانوا يحتالون على الرأي العام بما يرونه في الرؤيا، قال أبو الحارث الأولاسي «رأيت إبليس في المنام على بعض سطوح أولاس وأنا على السطح المقابل، وعلى يمينه جماعة وعلى يساره جماعة وعليهم ثياب لطاف فقال لطائفة منهم: قولوا وغنّوا. فاستغرقني طيبه حتى هممت أن اطرح نفسي من السطح. ثم قال: ارقصوا أطيب ما يكون. ثم قال لي، يا أبا الحارث ما أصبت منكم شيئاً أدخل به عليكم إلا هذا». يعني أنه يدخل عن طريق السماع والذكر والرقص والعزف وكانت هذه عادة شائعة عند الصوفية لاسيما المولويّة، قال الجنيد عند السماع يسمعونه ويشهدونه حقاً أي الله.

يذكر المسلمون أن لله تسعة وتسعون اسماً وله اسم مكتوم لا يعرفه إلا أوليائه المخلصون وهم العارفون لاسم الله الأعظم، ومن عرف اسم الله الأعظم تحكم في الكون وما فيه.

وكشفت للعارف الحجب وعرف الصور الشبحيّة التي قد تتخذ مظاهر هذا العالم ومنهم الشياطين، ذكر السهروردي الشهيد (المقتول ٥٩٨هـ ١٢٠٢) أن أهل دربندر شهدوا قوماً في مدينة (ميانج) بصورة الأشباح، يقاومون الناس ويصارعونهم ولا تصل إليهم أيديهم ويمكن لهذه الصور الشبحيّة أن تعبرٍ عن صور إلهية كما أدرك موسى بن عمران الله في صورة النار وإبليس في صورة الإنسان وكما أدرك رسول الله (ص) جبرائيل في صورة دحيّة الكلبي»(٤٦).

فالجن والشياطين من الصور الشبحيّة الخالدة التي لا يعتريها البلى والقادرة على فعل الخير والشر معاً، وكان سهل بن عبد الله التستري يقول لأصحابه: إذا أردت أن تشتكي فقل (آوه) فهو اسم من أسماء الله تعالى، ولا تقل (أفرج) فإنه اسم من أسماء الشيطان»، قال ابن الجوزي «إنما تلاعب الشيطان بأقوام أبعدوا العلم، وأقبلوا على الرياضة الروحية بما ينهي عنه العلم، وكان منهم رجل يقول القرآن حجاب، والرسول حجاب، وليس إلا عبد ورب، فافتتن به جماعة، واهملوا العبادات»(٤٧). وما أراه أن عدي بن مسافر، كان هو وأصحابه لا يذكرون في خلواتهم اسم الله صراحة «لا يجوز أن تلفظ كلمة (شيطان) لأنه اسم إلهنا». كما يقول المبيضة من قبل وسوف أعود لبحث هذه النقطة فيما بعد في الاسم المئة.

لماذا اكتفى الشيخ عدي بالتلقين ولم يخلّف إلا رسالة صغيرة في اعتقاد أهل السنة والجماعة؟

باعتقادي أن الشيخ عدي أراد أن يجنّب نفسه الأذى، لأن من يضع كتاباً فقد استهدف، واكتفى بالرياضة الروحية، وبنظم القصائد الشعرية، وقد ذاع صيته بين الناس وحكوا عنه صلاحاً كثيراً قال ابن خلكان «وتبعه خلق كثير جاوزوا حسن اعتقادهم فيه الحد حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها، وذخيرتهم في الآخرة التي يعوّلون عليها».

ولأنه كان قد ورث خرقته الصوفية عن الشيخ حسن البصري الذي روى عن النبي «أن علم الباطن سر من أسرار الله، عزّ وجل ـ وحكم من أحكامه يقذفه الله في قلوب من يشاء من أوليائه، والعلم عند الحسن البصري علمان، علم ظاهر حجبه الله تعالى عن خلقه وعلم باطن هو العلم النافع». وكان أبو يزيد البسطامي يقول عن علماء الحديث «مساكين أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت».

لأن العلم نور يقذفه الله في الصدور، والعدوية يفرقون بين العلم اللدّني الذي مصدره الله الحي الذي لا يموت وعلم الورق، وكان الصوفية إذا طالبهم الفقهاء بالدليل يقول أحدهم (حدثني قلبي عن ربي) قال أبو بكر الشبلي:

إذا طالبوني بعلم الورق   برزت إليهم بعلم الخرق

أي علم خرقة التصوف التي ورثوها عن النبي (ص). قال أبو حامد الغزالي «إعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهيّة دون التعليميّة ولذلك لم يتعلموا ولم يحرصوا على دراسة العلم،

وتحصيل ما صنفه المصنفون بل قالوا: الطريق إلى الله تقديم المجاهدات.. ولا يقرن همهُ بقراءة قرآن ولا بالتأمل في نفسه، ولا يكتب حديثاً ولا غيره»(٤٨).

وهكذا لم يدعُ الشيخ عدي بن مسافر أتباعه إلى القراءة أو الكتابة واكتفى بالوعظ والذكر وإنشاد الشعر، خصوصاً شعر أبي بكر الشبلي الذي رأى تلميذه الحسين بن أحمد الصفّار يحمل محبرة فقال له، غيِّب سوادك عني يكفيني سواد قلبي وأنشده:

تسربلت للحرب ثوب الغرق ... وجبت البلاد لوجد القلق

ففيك هتكت قناع الغوى ... وعنك نطقت لدى من نطق

إذا خاطبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بلعم الخرق

وكان الشيخ عدي وأتباعه يحيون الطقوس الوثنية القديمة عن غير علم أو قصد كايقاد النار في المقابر أو على الشواطىء في ليلة النصف من شعبان، وكانوا يريقون الطيب أو ماء الورد على قبور الأولياء والصالحين، والويل لمن لا يتمسح بأجرة مسجد المأمونية يوم الأربعاء، وقد وصف حالهم أبو الوفا بن عقيل الحنبلي «لما صعبت التكاليف على الجهال عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع القبور، وايقاد النيران عندها وخطاب الموتى، وأخذوا التراب منها تبركاً وإفاضة الطيب عليها، والويل عندهم لمن لم يرق ماء الورد علىالقبر»(٤٩).

وفي زمنْ أحفاد الشيخ عدي بن مسافر صار العدوية يقلدون الآباء والأسلاف في اعتقاداتهم، على ما نشؤوا عليه من العادة، ولعل أحدهم يصلي ولا يقيم الفاتحة ولا يدري ما الواجبات، من جريانهم على العادة»(٥٠).

وكان العدوية يهتمون بالسماع والإنشاد العذب على الزمر والناي والعود والدف والسرنا والرباب معتمدين على أشعار السادة الصوفية مثل محمد بن طاهر الذي وضع كتاباً سماه (الاقتراح على القوّال والسنة فيه) وفيه ذكر أن سعد بن عبد الله الدمشقي اشترى جارية قوّالة للفقراء وكانت ذات صوت رخيم سمعها بعض المريدين تقول:

كل يوم تتلون ... غير هذا بك أجمل

فصاح الفقير ومات شهيداً.(٥١) وفي الأجيال التالية حرّمت اليزيدية القراءة والكتابة على أتباعها، وتفشي بينهم الجهل وكثرت الخرافات، واكتفوا بأغاني القوالين. قال المؤرخ الكردي شاكر فتوح:

«إن الديانة اليزيدية الحالية عبارة عن تراجع عن الإسلام إلى ديانة الآباء. والاجداد القديمة، الديانة الزرادشتية، مع تسرب أفكار أخرى من ديانات قديمة مثل المانوية وعبدة الطبيعة والإسلام»(٥٢).

إن الأفكار الدينية تعمل بآلية خاصة، فهي حينما تنتقل من شخص ذو أهمية إلى أشخاص آخرين دونه، تتغذى من الوسط الثقافي المحيط، وتستمد منه أسباب بقائها، وتشحن بنزعة وجدانية، وشحنة عاطفية تعمل على تبلور الأفكار الرئيسية وتظهر فجأة بشكل مغاير للأصول الأولى، وتتحول إلى اعتقاد مقدس، لا علاقة له بالأصول الأولى، وهذا ما تمَّ وحدث بالنسبة لطريقة الشيخ عدي بن مسافر عبر مسارها التاريخي، في وسط كردي مغاير، من حيث اللغة، التي هي عنصر أساسي في عملية التفكير، إذ أنها تتدخل في تصنيف وتسمية الأشياء، والأحاسيس في عوالمنا الداخلية والخارجية، وتقوم بعمليات الربط بين الرموز الذهنية الناتجة، والتي لولا اللغة لاستحال علينا تشكيل تلك الرموز.

الإسم المئة:

منذ بداية القرن الرابع الهجري، جرى صراع حاد في حلقات المتصوفة بينهم وبين علماء التفسير، ثم انتقلت تلك الحمى إلى قصور الخلفاء والأمراء، حول معنى الاسم الأعظم الخفي الكامن، في تفسير آية «فسبح باسم ربك العظيم».

قال المفسرون وعلماء الحنابلة، أن كلمة «العظيم» تنسب للخالق ـ جلّ جلاله ـ وأنه لا يوجد اسم خارج أسماء الله الحسنى.

وقال المتصوِّفة كالحلاج وأتباعه، لا بل إن الله في هذه الآية يحضّنا على تمجيد اسمه، مما يوحي، أن هناك اسم أعظم من كل أسمائه الحسنى المعروفة، التسعة والتسعين، وأن هذا الاسم هو الاسم المئة، وهو اسمٌ مخبوء تؤكده الأحاديث النبوية الشريف، ويكفي النطق به، لإبعاد كل الأخطار، وأن نوحاً عليه السلام عرفه فنجا به وذريته من الطوفان، والسؤال المحيِّر! إذا كان ذلك كما تقولون، فلماذا لم ينفع الحلاج العلم باسم الله الأعظم؟

كتب الأديب المعروف أمين معلوف، رواية بديعة باسم (رحلة بالداسار)(٥٣) روى فيها قصة ذلك التاجر الجنوّي الذي يتاجر بالأشياء الطريفة، وقد جاء إلى بلدة جبيل اللبنانية عام ١٦٦٥ يقتفي أثر الكتاب المشهور «كشف الاسم المئة المخبوء» وهو مؤلف أبي ماهر عباس المازندراني، جاء بالداسار امبرياتشو إلى بلاد الشرق، ليمنح الخلاص للعالم لأن عام ١٦٦٦ هو عام الوحش، وقد يموت العالم في حريق هائل، حصل بالداسار على الكتاب وتصفحه، وقال متسائلاً:

ـ لماذا أراد الله، الغموض لاسمه الأعظم، ولماذا أناط تلك المعرفة بعباده المخلصين، وجعلهم يلجون ذلك الباب الضيّق، ثم كشف لهم السر بعدها؟

ـ وهل اسم الله الأعظم، مدوّن بالعبريّة؟ أم بالسريانيّة؟ أم بالعربيّة؟!

ـ وكيف نتعرف عليه، إن سمعناه أو قرأناه؟ وما هي القدرات التي يمنحها الاسم المئة لمن يمتلكه؟ هل يحقق الأعاجيب لمن ينطق به، ويبعد كل الأخطار، وينزل نعمة من السماء؟(٥٤).

تجري أحداث القصة، وتنتهي ولم يستطع بالداسار قراءة الاسم المئة، ولم نطلّع عليه فيكتفي المؤلف بالقول على لسان التاجر الجنوّي «يبدو لي أن كتاب المازندراني، كان سراباً، ما كان عليّ أن أركض وراءه أبداً»(٥٥) في هذه العبارة الأخيرة تكمن مرارة الحيرة، التي جرى خلفها كل الصوفية العظام في الإسلام والمسيحية، ولكن أتباع الطريقة العدوية (اليزيديّة) توصلوا إلى الاسم المئة، ولكنهم حرّموا التلفظ به، لأنه إسم إلهنا السري، ودونوه حسب حروف الجمل، وهو يعادل العدد ثلاثمائة وستون، وفي الحروف العربية (شطان)، وهم على عكس المازندراني الذي ذكر لنا «أن القرآن لا يكتفي بإخبارنا وجود اسم عظيم بل يدعونا للتسبيح بهذا الاسم جهرة»(٥٦).

ملخص رسالة اعتقاد أهل السنة والجماعة:

هذه الرسالة لعدي بن مسافر، قال عنها ياقوت الحموي (رسالة صغيرة الحجم كبيرة النفع) ثم حققت ونشرت في بغداد عام ١٩٧٥م: قال رحمه الله تعالى:

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا يغيِّره الأمد، ليس له والد ولا ولد، لا تجري ماهيته في مقال، ولا تخطر كيفيته ببال، جلّ عن الأنداد والأضدّاد والأمثال والأشكال صفاته كذاته ليس بجسم، جلّ أن يشبه بمبتدعاته أو يضاف إلى مصنوعاته (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) سورة الشورى: ١١. خلق الخلائق وآجالهم وقدّر أرزاقهم وأفعالهم، لا سمي له في أرضه وسماواته ولا عديل في حكمه وإرادته.

حرام على العقول أن تمثله، وعلى الظنون أن تحده، وعلى الفكر أن يحيط به، وعلى العقول أن تصوره إلا ما وصف به ذاته في كتابه وعلى لسان بنيه، فإن كل ما تمثّل في الوهم، فهو مقدّره قطعاً وخالقه، على العرش استوى وعلى الملك احتوى وعلمه محيط بالأشياء:

طريق العلم بالله:

أمّا طريق العلم فمن وجهين:

أحدهما، طريق السمع: من الله أو من سفير بينه وبين خلقه، وهو ما نطقت به كتبه وأخبر به رسله، عليهم الصلاة والسلام، بأنه موجود قديم أول بنفسه، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض وهو العلم ذاته.

الثاني: **طريق العقل والبرهان**، وهو البحث في المخلوقات والاعتبار بالمصنوعات والتدّبر بالأخبار والآيات وتفهّم الحكم والأحاديث والمسندات.

ثم يقع النظر في المخلوقين والاعتبار بالمصنوعات فيشاهد العلم ما صدق به القلب، فيزداد الايمان، وتعظم المعرفة بحصول اليقين، وذلك يعرف ببداهة العقول، فإن كل عاقل يجد بنفسه افتقاره للعبودية، وأنه لابد لهذا التدبير المحكم من مدبر حكيم.

إرادة الله وقدرته:

وثبت بالبرهان العقلي والدليل القطعي أن الله يعلم جميع العالم (كلياته وجزئياته) وأن القدرة لو لم يتأثر عنها الكون كله لأدى ذلك إلى أن القادر عاجز وأن العاجز أقدر وهو محال. وأن الاعمال كسب للعباد لأنها خلق لهم وعلى ذلك يقع الثواب والعقاب.

وبما أن الكل خلق الله، ولأنه لا يريد شيئاً كرهاً، لا يفعل إلا باختياره ويخلق جميع ما أراد، لكان الذي يريده إبليس وجنوده من مراده. ولكان خلق غيره أكثر من خلقه لأن الشرور والقبائح أكثر من الخبر في العالم فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر أعظم شعب الإيمان، ولابد من التوحيد بإضافة الأفعال كلها إلى الله تعالى، وأنها صادرة عن قدرة لا شريك له فيها فمن أضافها إلى غير الله فقد أشرك به، وكذلك القرآن والحديث من كذّب بهما فقد كذب الله ورسوله، ولذلك كانت القدريّة، مجوس هذه الأمة يقولون: لا قدر، ومن مات منهم فلا تشهدوا جنائزهم، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهو شابهوا المجوس بقولهم للشر خالق وللخير خالق،. قال رسول الله (سيكون في أمتي قوم يكفرون بالله وهم لا يشعرون. قيل كيف يا رسول الله؟: قال: لأنهم يقولون، الخير من الله، والشر من الشيطان ومن أنفسنا وهم يقرأون القرآن، ولو كان الشر بغير إرادة الله لكان عاجزاً.

القرآن كلام الله ومعاوية كاتب الوحي:

إن جميع المسلمين، وجميع مثبتي الشرائع اتفقوا على أن الله تعالى متكِّلم، واتفق أهل الحق منهم على أنه تكلم بكلام أزلي قائم بذاته، ليس من جنس الحروف والأصوات غير متحيِّز، منافٍ للسكوت، وهو به آمرنا مخبر، وهذه العبارات مخلوقة لأنها أصوات وهي أعراض، وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديته بها، وإن عبّر عنها بالعربية فهو قرآن، وإن عبّر عنها بالعبرانية فهو توراة، واختلفت العبارات لا الكلام.

ونؤمن بما ورد في الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل، فلما ظهرت البدع وانتشر في الناس التشبيه والتعطيل فزع أهل الحق إلى التأويل وتقرر فذهب السلف، كما جاء في الكتاب من غير تمثيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا حمل على ظاهر ولا تمثيل، وأن خير الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم أجمعين، وأن **معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه**، خال المؤمنين ورديف رسول الله، وكاتب وحي الله تعالى، وأمين على وحيه، شهد له

رسول الله بالجنة، ومات وهو راض عنه، وكان هو وعلي إمامين مجتهدين، وقتالهما كان باجتهاد لطلب لا لحظوظ النفس، ولم يكن أحد منهما حريصاً على قتل أخيه، وقتلاهم جميعاً في الجنة.

عذاب القبر والانذار والتبليغ:

إن ضغطة القبر حق، وأن عذاب القبر حق، ونعيمه حق، وإن الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد حق لقوله (إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني ادخرت دعوتي وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي). وأن الباري منزه عن الضرر وعن الحظوظ والأعراض، فإذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد، ولم يتنفع بها لم يكن للوجوب بحقه معنى يعود عليه، ويجوز أن يكلف الله عباده بما لا يطيقونه خلافاً لقول المعتزلة، وهذا مشاهد ومعلوم بالسمع، فإن الله يقول في كتابه (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنابه) البقرة آية: ٢٨٦. فإنهم لم يسألوه محالاً، ولو كان تكليف ما لا يطاق محالاً لكانت الآية لغواً، لأن الرسل خاطبت الكفار بالإيمان وهم لا يطيقونه، وقد أمره الله تعالى بالانذار والتبليغ والدعوة للكل إلى الإيمان.

الصراط المستقيم:

إن الصراط حق، وصفته كما ورد في الشريعة حق، وإنه ممدود على متن جهنم كما جاء في الحديث، لّما سئل رسول الله عن صفة الصراط فقال، إن جواز الخلق كلهم عليه، وهم على قدر أعمالهم من الحسنات والسيئات ممر الخلق عليه، وهم ما بين ماش وراكب وسابح، ثم زاحف وساحب، وإن عليه كلاليب وشوكاً مثل شوك السعدان، وقال أيضًا في صفة الصراط «أدق من الشعرة وأحد من السيف وأحر من الجمر، طوله ثلاث مئة سنة من سني الآخرة، تجوزه الأبرار وتزل عنه الفجّار.

الجنة والنار:

الجنة نعيم الأولياء، والنار عقاب للأعداء من أهل الكفر والمعاصي إلا من رحم ربي، وإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، والكل ينظرون إليه، ثم ينادي مناد من قبل الله تعالى، يقول يا معشر العباد. هذا الموت، يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت.

أمّا عن الحوض المكرّم قال رسول (حوضي طوله وعرضه مثل ما بين عدن وعُمان مسيرة شهرة، حافتاه خيام الدر المجوّف، وآنيته عدد نجوم السماء، طينه مسك أذفر ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، من شرب منه لا يظمأ بعدها أبداً حتى يدخل الجنة، فيذاد عنه يوم القيامة كما تذاد الغريبة. من الإبل، فأقول: هلموا آلا هلموا. فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: وما أحدثوا؟ فيقال لي: قد غيروّا وبدلوّا. فأقول آلا سحقاً وبعداً. وقد

أنكرت المعتزلة ذلك، بتأولهم فلا يسقون منه إلا أن يتوبوا ويرجعوا عن مقالتهم السوء. فالجنة والنار مخلوقتان خلفاً للبقاء لا الفناء».

من الرسالة السابقة، نستنتج أن الشيخ عدي بن مسافر كان أشعرياً وهو يناهض المعتزلة والقائلين مثلهم بالتأويل، ولكن الشعر الذي نسب إليه يناقض فكره السابق، وله قصيدة أوردها عبد الوهاب الشعراني في االطبقات الكبرى، قال عدي:

شربت بكاس الحب من قبل نشأتي سكرت بها من قبل توجد خلقتي

وعارضه الشيخ عبد القادر الجيلاني:

شهدت بأن الله والي الولاية وقد منّ في التصريف في كل حالةِ

قال هذه القصيدة وهو في طريقه إلى الحج مع الشيخ عبد القادر الجيلاني وكانا في أول شبابهما وبداية تعارفهما في بغداد، قال الشيخ عبد القادر: فلما كنت عند المنارة المعروفة بأم القرون، لقيت عدي بن مسافر وهو شاب يومئذ، فقال لي: إلى أين؟ قلت إلى مكة! قال: هل لك في الصحبة؟ قلت إني على قدم التجريد (أي ماشياً) قال وأنا كذلك.

وعندما حج الشيخ أحمد البدوي (٥٩٦هـ/٦٧٥هـ) عارض قصيدة الشيخ عدي بن مسافر، قال:

شربت بكاس الحب من طيب خمرتي فلذ لي المشروب في خير خلوتي

ومن الشعر الذي نسب إلى الشيخ عدي قوله:

علمي أحاط حقيقة الأشياء وحقيقتي قد مازجت آيائي
أنا الذي أنزلت حقاً صادقاً مني كتاباً أهدى الثقلاء
وأنا الذي أشرعت شرعاً حاكماً كما شرعت فكان من إعطائي
وأنا عدي الشام ابن مسافر قد خصنّي الرحمن بالأسماء
والعرش والكرسي والسبع والثرى في طي علمي لا إله سوائي
من مات فيّ مغرماً لقيته وسط الجنان مشيئتي ورضائي
وأنا الذي من مات عني غافلاً يلقى العذاب بذلة وعناء
سبحان ذاتي والأمور مشيئتي والكون قد أشرق ببعض عطائي
إني أنا الملك المعظم شأنه وجميع رزق الخلق تحت ردائي
وأنا الذي أظهرت زمزم بتلطفي وبقدرتي سميتها البيضاء

ومن قصائده الصوفية التي خرجت عن اعتقاد أهل السنة والجماعة قوله:

يعلم العالمون أن علوم الناس   فيها من بعض سحر علومي
سدرة المنتهى محل مناجاتي   فلهذا أنا السميع العليم
عزّ قدسي وجلّ اسمي إن الجنّة   راحي والنار حرسومي
وسجدت لي الأفلاك حتى تعاليت   سجود الخدام للمخدومِ
وجميع من في الوجود قال لي   يا رب أهدنا إلى الصراط المستقيم
والبرايا طويتها من بعد نشر   طي فتيان كهفها للرقيم
وأبو مرة اللعين عزازيل   أبى السجود فكنيته بالرجيم
آمنوا يا عبادي ولا تكفروا   إنما الكفر من طباع اللئيم
أنا أسقي الكفار ناراً حميماً   والذين آمنوا بي من التنسيمِ

وله قصيدة هي بحكم المذهب السني كفر صريح، منها قوله:

أنا وحدي فلا إله سوائي   جلّ وصفي لكنهم وصفوني
ورجال التحقق خرّوا سجوداً   وأرباب الحضور قد شاهدوني
هذه حالة الجهالة حقاً   ما عليهم لوم إذا جهلوني

هذا الشعر يناقض ما جاء في رسالته في وصاياه للخليفة، التي يوصيه فيها بالتباعد عمن تظهر له الكرامات، إذا لم يوفق بين أعماله وسلوكه وبين أوامر الشرع ويزدجر عن نواهيه، ولا يوافق التساهل مع أحد ولو صدرت عنه بدعة خفيفة، أليس قوله هذا يتناقض مع تلك الشطحات والادعاءات التي تبلغ حد الكفر، كما في قصيدته:

أنا ذات الذوات وكل الذوات   أنا كاف الأكوان في الكائنات
أنا رب الأرباب والعرش جمعاً   والسموات جميعها مبتدعاتي

وقوله أيضاً:

سقاني بكاسات الهوى خمرة الصفا   فأصبحت فرداً ليت يثبت ما أمحا
فسبحان سبحاني وتعظيم قدرتي   وجلّ جلالي ها أنا ملك الأبطحا

أما في رسالته في آداب النفس، وهي التي تضم عشر خصال، يعلمها لمريديه ومن وصاياه لمريده، قايد (يا قايد أوصيك بمراعاة الأحكام الشرعية، فلا تتجاوزها، والتزم الشرع، وراعِ التقوى، وجانب من يركض وراء الدنيا، والجوع مفتاح الزهد وحياة القلب

كما قال عيسى لحواريه : سترون الله إذا اجعتم البطون وأظمأتم الكبود وجعلتم اللباس التقوى».

وأظن أن هذه القصائد منحولة قد ألصقت به بعد أن تحوّل أتباعه نحو المذهب اليزيدي وقطعوا كل علاقاتهم بالإسلام: قال عدي بن مسافر:

أنا خالق الأكوان بأسرها واسمي طاووس الملائكة برضائي

وأنا كشفت سر الرجيم في العلا وأنا عالم الأسرار والخفائي

وأنا الذي أسكنت آدم جنتي وأسكنت نمرود نار لضائي

الشيخ عدي في نظر الباحثين العرب والأكراد والأجانب:

أصاب المؤرخون العرب القدماء والمحدثون في تأريخهم للشيخ عدي بن مسافر وللمذهب العدوي وتاه المؤرخون الأكراد والأجانب وجانبوا الصواب. فما سبب ذلك؟

السبب في اعتقادي، أن العرب أبدوا اهتماماً كبيراً بالتاريخ عند ندرة النصوص الدينية التي خلّفها المذهب العدوي، وقد ربطوا وأولوا ما وجدوه وأعطوه اهتماماً خاصاً بغية فهم البنية الكلية التي أفرزت تلك النصوص. في حين أن الباحثين الأكراد وغيرهم درسوا تلك المخلفات الفكرية بمعزل تام عن المحتوى التاريخي للقرون التي فصلتنا عن عصر عدي بن مسافر.

يقول المؤرخ الكردي شاكر فتوح «حسب بعض المؤرخين العرب، التجأ العالم المتصوف والزاهد الشيخ عدي بن مسافر الأموي في القرن السادس الهجري إلى أحد جبال كردستان واستقر في دير مهجور للنصارى يقع في وادي لالش في منطقة الشيخان معتكفاً ومنزوياً للعبادة»(٥٧) لم يقل ذلك أي مؤرخ عربي وإن من قال «إنه اعتكف في دير مهجور للنصارى» هو القس راميشوع النسطوري عام ٨٥٥هـ/١٤٥٢م) وأخذ قوله وصدّقه القس سليمن الصايغ وتابعه المستشرق فرنسوا نو الذي قال أن عدياً كان كردياً استولى على دير مار يوحنا وكان راعياً لأغنام الدير وكان قاطع طريق وسافك دماء وأرسل إلى مراغة وأعدم سنة ٦١٦هـ/١٢٢٢م.

ولكن القس بطرس نصري الكلداني ينفي ذلك ويقول «إن الأديرة التي أسسها الأساقفة السبعة يوحنا المطران ورفاقه كان من بينها دير مارايثالاها في قرية لالش لم يستولِ عليها عدي بن مسافر لأنه توفي قبل ذلك التاريخ.

وفي كتاب الرؤساء لتوما المرجي من تعريب البير أبونا «إن بعض المعاصرين ذهبوا إلى القول أن مرقد الشيخ عدي كان ديراً، ولكن الأدلة التاريخية والأثرية تنفي وجود دير هنالك»(٥٨)

ويحاول الباحث جوربج حبيب نفي وجود الدير من دراسة الطراز المعماري للمرقد المبني باتجاه طولي شرقي غربي مما يشير احتماله معبداً مثرائياً، ويزيد في صحة هذا الاحتمال وجود المحاريب السبعة التي تشير إلى الدرجات المثرائية السبعة، زد على ذلك وجود الكهف المبني على ينبوع ماء، وكانت المعابد تبنى على كهوف ذات ينابيع»(٥٩).

ولكن العالم الأثري الانكليزي أوستن هنري لايارد (١٨١٧ ــ ١٨٩٤) الذي زار المرقد المقدس سنة ١٨٣٩، وهو خبير بطراز البناء، يرى أن البناء إسلامي، في قبة القبر مكتوبة آية الكرسي، وفوق المرقد تنتصب قبتان بشكل مخروطي، وعلى الباب هناك رسوم فيها أسدان منتصبان وأفعى وفأس ومشط، وأخبره الشيخ ناصر أن بنّاءً مسيحياً قد رسمها منذ زمن قريب، ويلاحظ لايارد أن رسمي الفأس والمشط مرسومان على كثير من الأحجار»(٦٠).

تقول المصادر العربية أن عدي بن مسافر دفن في الزاوية التي بناها هو في قرية لالش، ولكن السيد عبد الرزاق الحسني يقول «احرقوا عظام الشيخ عدي وقالوا لهم انظروا من تدعون ألوهيته أنها تحرق ولا يستطيع أن يمنعنا»(٦١) وفي ١٧ نيسان عام ١٩٤٧ زار السيد عبد الرزاق الحسيني مرقد الشيخ عدي ومعه الأمير اليزيدي تحسين بك، وجد على باب المرقد زخرفة على الصخر تعلوها صورة طاووسين متقابلين يتوسطهما أسدان متقابلان مرسومان على رخامة على شكل مثلث وعليها كتابة عربية (بسم الله الرحمن الرحيم، يا خالق السموات والأرض أحفض محل الشيخ عدي الهكاري شيخ اليزيدية عام ٦٩٥هـ/١٢٩٢)، ويعلل ذلك العالمان الآثريان طه باقر وفؤاد سفر «المقام عبارة عن قبّة متأخرة البناء خالية من الزخرف سوى صورة ثعبانين في المدخل، لعلهما منقولان من بناء أقدم، ويوجد إلى جانب مزار الشيخ المتصوف حسن بن عدي (الثاني) وهو من تلاميذه، كما يوجد في أحد الكهوف ماء جار يقدسه اليزيدية ويتطهرون به ويسمونه (عين زمزم)(٦٢).

ويفرق المؤرخ الكردي محمد أمين زكي بين شخصيتين مختلفتين للشيخ عدي بن مسافر، الشخصية هي التي تكلمنا عنها من قبل والشخصية الثانية هي شخصية أبي المفاخر عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر الأموي الذي ولد في جبل الهكارية والذي خلف عمه في رئاسة المذهب العدوي والذي قتله الأمير المغولي باطو سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م). وهو مؤلف مصحف الجلوة الذي تقدسه الطائفة اليزيدية(٦٣)، وهذا التفريق لم يجانب الصواب، كما أخطأ الشيخ حسن الدارسني في كتابه مزدها روز الذي قال عن الشيخ عدي هو رجل كردي أصله من قرية بيت فار قرب مسكنة ويسكن قرية تل عرن وذهب مع أخيه (ينجوه) إلى قرية الفار من أعمال حلب، وكانت الزادشتية مضطهدة في بلاد ميديا وهكاريا وداسن»(٦٤) في هذا النص خلط كبير لا يحتمل التصحيح لأنه غلط كله، وقانا الله من سوء التفكير.

مراجع الفصل الأول: التأسيس للطريقة العدوية:

١) مغامرات الأفكار ص٢٣٠ هواتهيد ترجمة أنيس زكي حسن مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٠م.
٢) علم الاجتماع الديني ص١٣٠ يوسف شلحت مطبعة الأماني حلب ١٩٤٦م.
٣) المصدر السابق ص١٣١.
٤) اليزيدية، منشأ نحلتهم ص٢٤ أحمد تيمور باشا المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٢هـ.
٥) البداية والنهاية جـ١٢ ص٢٤٣ ابن كثير مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٧م.
٦) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٤١١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٩٦٤.
٧) البداية والنهاية جـ١٢ ص١٧٧.
٨) تلبيس إبليس ص١٧٨ ابن الجوزي تحقيق خير الدين علي مكتبة لبنان.
٩) الطبقات الكبرى للشعراني ص٢٧٥ طباعة مصر ١٣٦١ هـ.
١٠) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي جـ٤ ص٢٤٣ تحقيق لطفي عبد البديع الهيئة المصرية القاهرة ١٩٧٧م.
١١) البداية والنهاية جـ١٢ ص١٩٦.
١٢) المصدر السابق جـ١٢ ص٢٠٢.
١٣) المصدر السابق جـ١٢ ص٢٥٣.
١٤) مدرارات صوفية ص١٣٦ هادي العلوي دار المدى للثقافة والنشر دمشق ١٩٩٧.
١٥) المصدر السابق ص١٣٩.
١٦) البداية والنهاية جـ١٢ ص٢٤٣.
١٧) وفيات الأعيان جـ٨ ص٢٣٢ ابن خلكان تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٣.
١٨) الإنساب للسمعاني، ترجمة عدي بن مسافر أعادت نشره دار المثنى ـ بغداد.
١٩) الطبقات الكبرى للشعراني ص٢٧٤.
٢٠) اليزيدية ومنشأ نحلتهم ص٥٨.
٢١) المصدر السابق ص٢٩ـ ٣٠.
٢٢) البداية والنهاية جـ١١ ص١٣٨.

٢٣) المصدر السابق جـ١١ ص١٤٢.

٢٤) المصدر السابق جـ١١ ص١٣٨.

٢٥) أسس الانثروبولوجيا الثقافية ص٢٤٠ ميلفيل ج هرسكوفيتز ترجمة رباح نفاخ وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٤.

٢٦) صابئة حران والتوحيد الدرزي ص١٩١ محمد عبد الحميد الحمد دار الطليعة الجديدة دمشق ١٩٩٩.

٢٧) الفتوحات الملكية مجلة تراث الإنسانية عدد/١ ص١٦٧ القاهرة ١٩٦٧.

٢٨) تلبيس إبليس ص٣٨٠.

٢٩) المصدر السابق ٣٨١.

٣٠) المصدر السابق ص٣٨٧.

٣١) المصدر السابق ص٣٨٩.

٣٢) معارج القدس ص٤٦ أبو حامد الغزالي المكتبة التجارية الكبرى القاهرة.

٣٣) كليات أبي البقاء جـ٤ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٢.

٣٤) مشكاة الانوار ص١١١ الغزالي، تحقيق أبو العلاء عفيفي الدار القومية القاهرة ١٩٦٤.

٣٥) في تحقيق ما للهند من مقولة ص٥٦ البيروني، نشر حيد آباد الدكن ١٩٥٨.

٣٦) تلبيس إبليس ص٣٨٩.

٣٧) المصدر السابق ص١٨٦.

٣٨) المصدر السابق ص٢٩٥.

٣٩) اليزيدية، منشأ نحلتهم ص٢٧.

٤٠) تلبيس إبليس ص٤١٨.

٤١) المصدر السابق ص٣٨٧.

٤٢) المصدر السابق ص٣٨٧.

٤٣) العراق بين احتلالين جـ٣ ص٣٧ عباس العزاوي، الشركة التجارية للطباعة بغداد ١٩٣٩م.

٤٤) اليزيدية بقايا دين قديم ص٦٨ جورج حبيب، دار بترا دمشق ١٩٩٦م.

٤٥) اليزيديّة ومنشأ نحلتهم ص٦٠ - ٦١.

٤٦) حكمة الإشراق، المقالة الخامسة ص١٥٢ السهروري.

٤٧) تلبيس إبليس، ص٣٦٤.

٤٨) المصدر السابق ص٣٦٣.

٤٩) المصدر السابق ص٤٥٥.

٥٠) المصدر السابق ص٤٥١.
٥١) المصدر السابق ٢٧٣.
٥٢) اليزيديون والديانة اليزيدية ص١٩ شاكر فتاح ترجمة دخيل شمو الحكيم بيروت ١٩٩٧.
٥٣) رحلة بالدارسار، تأليف أمين معلوف ترجمة روز مخلوف، دار ورد، دمشق ٢٠٠٠م.
٥٤) المصدر السابق ص١٥.
٥٥) المصدر السابق ص١١١.
٥٦) المصدر السابق ص٣٢٨.
٥٧) المصدر السابق ص١١.
٥٨) اليزيدية بقايا دين قديم ص٦٧ جورج حبيب.
٥٩) المصدر السابق ص٦٧.
٦٠) ليارد بالانكليزية (مصدر اسبق) ص٢٨٣. Nineva and Its Remains vol I p.
٦١) اليزيديون في حاضرهم وماضيهم ص١٤٨ عبد الرزاق الحسني دار الكتاب الجديد بغداد ١٩٤٧م.
٦٢) المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة ص٤١ طه باقر وفؤاد سفر بغداد ١٩٦٦م.
٦٣) خلاصة تاريخ الكرد والكردستان ص٢٩٧ محمد أمين زكي ترجمة محمد علي عوني القاهرة ١٩٣٦م.
٦٤) اليزيديون والديانة اليزيديّة، هامش ص١٥، شاكر فتاح.

الفصل الثاني

التحوّل للحلول ووحدة الوجود

- حياة الشيخ حسن بن عدي وأهم تعاليمَه
- يزيد بن معاوية، أحد الآلهة السبعة.
- كتابي الجلوة ومصحف رش هما من وضع الراهب الكلداني أرميا شامير.
- النص الحرفي للكتابين المقدسين، الجلوة ومصحف رش.

حياة الشيخ حسن بن عدي وأهم تعاليمه

لعبت العائلة العدويّة دوراً مميزاً في تاريخ التصوف الإسلامي وفي تاريخ منطقة الموصل، ساعدها على ذلك وضع مجتمع متخلف ذو خصائص خاصة به (قبائل كردية وقرى سريانية مسيحية). وكانت العلاقات الانتاجيّة راكدة، والثقافة حكر على بعض العائلات المستنّيرة، ولكي تؤمّن العائلة العدوية لنفسها استمرار التفوق جعلت القراءة والكتابة حكراً عليها بينما حرمتها على اتباعها مكتفية بالوعظ والإرشاد باللغتين العربية والكردية، وإنشاد الأشعار على الآلات الموسيقية المتوفرة (الناي والسرنايا والدفوف والعود) وجعلتها أساساً في ممارسة الطقوس الدينية التي لعبت دوراً هاماً في القديم أكثر مما هي عليه الآن.

ذكر شمس الدين السخاوي (١٤٢٧ - ١٤٩٦) في كتابه تحفة الأحباب أن أول خليفة للشيخ عدي بن مسافر هو أخوه صخر، الذي أقيم خليفة له وهو في بلدته بيت فار في البقاع بأرض الشام. وعند وفاة الشيخ عدي عام (٥٥٨هـ/١١٦٣) هاجر إلى جبال لالش.

ولكن لأبي الحسن علي بن عبد الله اللخمي رأي آخر فهو في كتابه بهجة الأسرار يذكر، أن أول خليفة على الطائفة العدويّة بعد الشيخ عدي ابن أخيه أبو البركات بن صخر بن مسافر، ولد في لالش وصحب عمه وتخرج عليه في زاويته بلالش، وكان الشيخ عدي يثني عليه ويقدمه بقوله (أبو البركات ممن دعي في الأزل، وكان من السابقين إلى الحضرة) وكان مثل عمه في المناقب والفضائل(١).

ثم ولد لأبي البركات عدي ولداً سمّاه حسن عام (٥٨٤هـ١١٨٩)، كان ذكياً يجيد العربيّة والكرديّة درس في الموصل على الشيخ محيي بن عربي سنة (٦١١هـ١٢١٥)، ثم أرسله والده إلى حلب وهو في التاسعة عشرة من عمرة سنة (٦١٦هـ/١٢١٩) لدراسة مذهب الشيخ أبو الفتح السهروردي، وقد انعكست تعاليمه في كتاب (الجلّوة لأرباب الخلّوة) جاء فيه «سلام على قوم صاروا حيارى وسكارى في شوق عالم، وهل يمكن لنور الأنوار أن يظهر أثره في عالمنا؟ أجاب الشيخ حسن بن عدي نعم يظهر في الهياكل النوارنية وهم الناطقون باسم العالم الأعلى وهم رؤساء العالم الروحاني وقد صدروا عن الواحد (نور الأنوار) ولكل هيكل معشوقه أي نوره القاهر، وهذه الهياكل هم أصحاب السادات المعظمّون.

الهيكل الأول:

هو الجوهر الذي لا يتجزأ (هورخش) أي الشمس باللغة البهلوية، وانبجس عن الهيل الأول، الهيكل الثاني، كما يأخذ السراج من السراج من غير أن ينقص من الأول شيء.

الهيكل الثاني:

وهو كيان النفس، محل الشعور، وله قوى الحواس الخمس وله قوى أخرى باطنة هي قوى العقل (المخيّلة والمفكرّة والقوة الوهميّة والذاكرة)، ويرمز لهذا الهيكل بالسيد الأسعد أبو البركات وهو النير الأصفر (القمر) وهو الايجاد والإبداع من غير احتذاء مثال وهو العقل الأول أو النور الأقرب.

ـ الهيكل الثالث:

جار الله الكريم، يفرض عليه تنظيم الوجود بأسره، وهو أقرب الأجسام العنصرية عند أرباب الذوق من أهل البيان، ومن ينكره فقد أنكر اللذات الروحيّة فهو كالعنين الذي ينكر لذة الجماع.

ـ الهيكل الرابع:

هو عالم المثل المغلقة، نوره من ذاته (روح القدس) مفيض نفوسنا أو العقل الفعّال.

ـ الهيكل الخامس:

هو قائد السعادات، وأشرف الموجودات والأجسام هو القديس الأب (هورخش) قاهر الغسق والظلمة رئيس السماء، فاعل النهار عظيم الهيئة الإلهية الذي يعطي الأجرام السماوية ضوءها ولا يأخذ منها ومثاله (اسم الله الأعظم) وبعده يأتي أصحاب السعادات المعظّمون لا سيما السيد الأسعد صاحب الخير والبركات، جلّ من إبداعه فتبارك الله أحسن الخالقين.

ـ الهيكل السادس، يشرح فيه الجنة والنار والنبوة والأحلام، والتناسخ وعالم البرازخ.

ـ الهيكل السابع:

هو النفس التي يمكن أن تصبح كمالاً تطيعها العوالم (وهو القطب الرباني) وعلى المؤمن المتبصر أن يعتقد بصحة النبوات التي أشار إليها القرآن الكريم (وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون) سورة العنكبوت: ٤٣. والتنزيل موكول إلى الأنبياء والتأويل أو البيان موكول إلى المظهر الأعظم الفارقليط Paraclet كما أنذر المسيح حيث قال (إني ذاهب إلى أبي وأبيكم ليبعث لكم الفارقليط الذي ينبئكم التاويل» يوحنا ١٤ : ٢٦ والشيخ صاحب الطريقة هو ظل النور المجرد، وجميع ما فيه من الصفات الروحانية هي ظلال لأربابها النورانية، وتلك مستهلكة في أحدية الذات، متكثرة في تلك المظاهر فالعالم كله ظل نور الأنوار، والشيخ ظل جسماني له يحاكي أحواله الروحانية، والله هو واجب الوجود، واحد من جميع الوجوه له من كل متقابلين أشرفهما.

ويطرح الشيخ حسن السؤال التالي: كيف يعطي الكمال من هو قاصر عنه؟ يجيب، الحق لا ضد له ولا ندّ له ولا ينسب إلى اثنين، له الجلال الاعلى، والكمال الأتم، والشرف الأعظم، والنور الأشد وليس بعرض فيحتاج إلى حامل يقوّم وجوده ولا بجوهر فيشارك الجواهر في حقيقته الجوهرية.

عندما عرضت هذه الأفكار للتأكد من صحتها، ومدى مطابقتها لفلسفة السهروردي وجدت الشيخ حسن ينهل من كتاب حكمة الإشراق للسهروردي الذي قتل لجرأته في التأويل في حلب بأمر السلطان صلاح الدين.

ثم انتقل الشيخ حسن بن عدي إلى دمشق في عام (٦١٨ هـ ١٢٢٢) وهناك درس مرة ثانية على محيي الدين بن عربي (المتوفى ٦٣٨هـ/١٢٤٠) أخذ عنه **فكرة الإنسان الكامل** وهو أن لا يبقى له في الحضرة الإلهية إلا وهو حامل به، ويصبح الإنسان الكامل هو الجامع لحقائق العالم وصورة الحق سبحانه، وعندما يبلغ الإنسان مرتبة الكمال يصبح العالم مسخرّ له بكله، لما أعطاه الله من القوة بحيث أنه ينظر من النظرة الواحدة إلى الحضرتين، فيتلقى من الحق ويلقي إلى الخلق، والإنسان الكامل هو على الحقيقة الحق المخلوق به، أي المخلوق بسببه العالم(٢). سأل الشيخ حسن بن عدي شيخه:

لِمَ خلق الله الإنسان الكامل أو القطب الرباني؟ قال ابن عربي «أراد (الهو) أن يرى نفسه روحية كماليّة يزول في حقه حكم (الهو) فتظهر الأعيان الثابتة فلم يرَ عيناً يعطي النظر إليها هذه الرتبة (الأنانة) إلا عين الإنسان الكامل، فقدّرها عليه وقابلها به، فتطابقت الصورتان من جميع الوجوه»(٣).

وعن ابن عربي أخذ الشيخ حسن فكرة تجلي الله سبحانه في كل مظاهر الكون، قال ابن عربي (سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها) وتوصل إلى فكرة دين الحب قال في كتابه فصوص الحكم وفي فص أدريس عليه السلام خاصة «إن الحق تجلّى بالحب لنفسه، فكان تجلّيه آدم وكان الحب»(٤). ومما رواه ابن عربي للشيخ حسن الرؤيا الصادقة التي رآها وهو في مراكش وقد تجلى له عرش الله ذات يوم، له قوائم نورانية، ورأى الكنز تحت العرش وقال له مؤكداً «ورأيت طيوراً حسنة تطير في زواياه (هم الملائكة) ورأيت فيها طائراً من أحسن الطيور (طاووس الملائكة) فسلم علي»(٥) وقد لعبت هذه الرؤيا دوراً هاماً في الفكر العدوّي الحلّولي، ومن الأشعار الجميلة التي حفظها عنه الشيخ حسن وكان لها تأثير كبير في الفكر اليزيدي فيما بعد، الموشح التالي(٦)

اطوِ إلى المهيمن الطرقا عساك يوماً نحوها ترقى

غريزة الإنسان قد ذلّت
عساكر الاحوال قد حلّت
أهلة الأسرار قد تجلّت

وافتـق سمـوات العُـلا فتقـا وارتق أراضي جسمها رتقـا

سفينة الاحساس اخرقها

وعروة الشيطان أطلقها

وهــم في ذاتــه عشـــقا ونــاده: رفقاً بهـا رفقا

خليفة الرحمن قد جلاّ

وعن أن يرى بالسجن قد حلاّ

أو مدبراً عنه إذا ولّى

قد أحكم الله بــه الحلقا فجلّ أن يحول أو يشـقى

وعندما توفي والده سنة (٦٢٠هـ ١٢٢٤) عاد الشـيخ حسـن مـن دمشـق، وعقـدت لـه مشـيخة الطريقة العدويّة، وراض الناس بالصلاح والتقوى، ولقب بتاج العارفين وشمـس الديـن وذاع صيتـه في البلاد، لما كان له من العلم والدهاء وفضل وأدب فصار له اتباع يبالغون فيه، قال الذهبي «وقـد بلغ من تعظيم الأكراد العدوية له أنه قدم عليه واعظ، فوعظه حتى رقّ قلبه وبكى وغشـي عليـه، فوثب مريدوه على الواعظ فذبحوه، ولما أفاق الشيخ حسن، رآه يتشخط بدمه، فقالوا له: إيش هذا الكلب حتى يبكي سيّدنا الشيخ، فصمت حفظاً لمقامه (ودسته) وحرمته».

ألف الشيخ حسن كتاباً سماه (الجلْوة لأرباب الخلْوة) وهو كتاب حافل بالمعرفـة الباطنيـة فيـه طلاسم منقوش عليها أشكال وروسوم، وفيها ترى أسماء الله الحسنى، وآيات مـن القـرآن مأوّلـه، وعلامات فلكية وحروف أبجديـة ذات مدلـول خـاص وهـي مكتوبـة بـالاحرف العربيـة، حسـب قيمتهـا العدديـة، وإلى جـانب أسمـاء الله الحسـنى وردت عبـارة أن الله أظهـر أسمـــاءه التسـعة والتسعين وله اسم غير معروف للناس لم يوحِ به إلا لأنبيائه وخاصة أوليائه هو اسمه الأعظم المليء بالأسرار وهو بحسب قيمته العددية يساوي (٣٦٠) وهو يطابق اسم (شِطان). وطلب أن لا يتحدث بهذا لغير الحكماء لأن العامة تتلقاه بالاستهزاء أما الابدال فيمجدون الحـي الـذي يتحرقـون إليـه شوقاً لأنهم كالفراش يتعشقون النور ويطمحون للاتحاد والامـتزاج بالكـائن الاعلـى (الكـل الحـي) الأزلي الأبدي الذي لا اسم له.

أصبح الشيخ حسن اسم يثير الرعب لدى لحكام، فجمع له بدر الديـن لؤلـؤ حـاكم الموصـل في عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧مجلساً ضم فقهاء من الروافض والشافعية وجرت مناظرة غير متكافئة، فالفقهاء يناظرون بدعم السلطة أما الشيخ حسن لا حامي له إلا العامة وهم أتباعه العدويّة، وتناول النقـاش مواضيع منها (تجلّي الإله وظهوراته في الهياكل السبعة) ومنها شعر لابن عربي في قصديته(٧):

كـل مـا أذكــره مــن طلــل أو ربــوع أو مغـــان كــل مـــا

أو نســـاء كاعبـــات نهـــد طالعــات كشـــموس أو دمـــى

وكذا ان قلت (ها) أو قلت (هو) أو (همو) أو (هن) جمعا أو هما

منه أسرار وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السما

صفة قدسيّة علويّة أُعْلِمتْ أنْ لِصدقي قِدَما

فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلما

ثم طالبوه بشرح قول ابن عربي:

ما رحلوا يوم بانوا البزّل العيسى إلا وقد حملوا فيها الطواويسا

قال له الفقهاء، ما الباطن في هذا القول، فقال الشيخ حسن: البزّل الإبل المسمنّة، وأراد بها الأعمال التي ترفع الكلم الطيب الأعلى لقوله تعالى إليه الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه). والطواويس كناية عن أحباب الله المحمولة فيه أرواحها، فإنه لا يكون العمل مقبولاً ولا صالحاً ولا حسناً حتى يكون له روح مزينة عاملة، وشبهها بالطيور لأنها روحانية، وكنّى عنها بالطواويس لتنوع اختلافها في الحسن والجمال.

وسأله الفقهاء الشيخ حسن بحضرة بدر الدين بن عبد الله (لؤلؤ) عن معنى قوله في وصف ذاته:

وصرت فرداً لا ثان أقوام به وأصبح الكل والأكوان تفخر بي

وكل معناي معناها وصورتها كصورتي وهي تدعى ابنتي وأبي

قال لهم: لولا الحب ما عبد شيء، لأن الشيء لا يعبد إلا بعد أن يخلع عليه العابد لباس التقديس، وهو لا يقدسه إلا بعد أن يحبه ويتفانى في حبه، ويصبح المعبود والمحب عيناً واحدة وأن اختلف عليها الأوصاف. وهنا حكم عليه الفقهاء بالكفر، فلم يوافقهم بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله (حكم الموصل من ٦٣١هـ/٦٥٧هـ) وهنا انتقل الفقهاء إلى مسألة أخرى وجرى نقاش حول (يزيد بن معاوية) هل هو من التابعين أم من الكفار الفاجرين لقتله الحسين بن علي بن أبي طالب، دافع الشيخ حسن عن يزيد ووصفه بالإمام الجليل، وهنا وقف بدر الدين لؤلؤ ولعن الشيخ حسن وأمر أعوانه بالقبض عليه، وخنقوه بوتر شدّ علي عنقه، وكان بدر الدين لؤلؤ يميل إلى الفكر الشيعي، ويتعصب ضد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ولازالت القاعة التي قتل فيها الشيخ حسن موجودة في الموصل وتدعى (قره سراي) وقد دوّن على أحد الجدران (مولانا الرحيم العادل المؤيد المظفر، المنصور المجاهد المرابط «بدر الدين» عضد الإسلام والمسلمين وقامع الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين، محيي العدل في العالمين أبو الفضائل لؤلؤ بن عبد الله).

قال الشيخ ابن تيمية في رسالته العدوية (وفي زمن الشيخ حسن بن عدي زادت العدوية أشياء باطلة نظماً ونثراً وغلوا في الشيخ عدي وفي يزيد بن أبي سفيان، بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ

عدي، وابتلوا بروافض عادوهم وقتلوا (الشيخ حسن) وجرت فتن لا يحبها الله ولا رسوله) وتابع ابنَ تيمية تلميذه الحافظ ابن كثير الذي قال عن الشيخ حسن بعد مقتله (وأعتقد أهل تلك الناحية به اعتقاداً بليغاً، حتى أن منهم من يغلوا فيه غلواً منكراً، ومنهم من يجعله إلهاً وشريكاً، وهذا اعتقاد فاحش يؤدي إلى الخروج من الدين جملة»(٨) كانت تلك الملاحظة صائبة جداً، فاليزيدية لازالوا يعتقدون برجعة الشيخ حسن بن عدي إلى الأرض ليملأها عدلاً بعد أن عمها الجور والظلم والفساد.

ذكر ابن طولون الحنفي (١٤٧٧ـ ١٥١٧) في كتابه ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر أن الشيخ حسن ابن عدي اختلى ست سنوات كتب فيها كتاب الجلّوة لأرباب الخلّوة، وعده أتباعه قطب رباني، وأنه غوث زمانه لأنه عرف اسم الله الأعظم وأنه كان يرى الله في كل شيء، وليست الرؤيا والإستنارة إلا تحقيقاً لحضور الله فيه، وكان يفرض سيادته على العالمين النوراني والظلماني. وإليه أشار قطب الدين الشيرازي (المتوفي ١٦٤٠) في شرحه أجنحة جبرائيل للسهروردي بقوله:

«إن الشيخ حسن هو جبرائيل وهو العقل الفعّال، ولجبرائيل جناحان، أحدهما مضيء والآخر مظلم وهو سيّد العالمين النوراني والظلماني، ثم قال: واعلم أن الشيخ الذي يحمل سجادته على صدره هو أستاذ ومربي الشيخ الثاني الذي يجلس إلى جانبه وقد أثبت اسمه على جريدته وهكذا الثاني بالنسبة إلى الثالث والثالث بالنسبة إلى الرابع حتى يصل إلى السابع وبهم يتم إعطاء الخرقة والتعليم، ألم يقل الله في التوراة (خلقت أرواح المشتاقين من نوري ونقل عن سليمان قوله: يا ساحر فقال لست بساحر، إنما أنا كلمة من كلمات الله».

وفي كتاب القس اسحق البرطلي الذي كتبه عن اليزيدية يرمز إلى الشيخ الروحاني بالساحر(٩). سأل القس اسحق البابا شيخ: أسألك أن تعلمني: هل صنع كل واحد من هؤلاء الآلهة لنفسه سنجقاً أم لا؟ فأجابه: نعم صنع كلٌ سنجقاً، وبقيت جميعها في حوزة الملك سليمان الحكيم ثم سلمها حين موته لمن بعده من الملوك، حتى استولى عليها أبناء أمتنا وشعبنا يوم ولد إلهنا البربري (يزيد بن معاوية)(١٠).

على أثر مقتل الشيخ حسن بن عدي قويت شوكت العدوية، قال ابن العبري (المتوفى ١٢٨٦) في حوادث سنة (٦٤٨هـ ١٢٥٠) ملك بدر الدين لؤلؤ جزيرة ابن عمرو وأسر صاحبها الملك مسعود بن الملك المعظم من بيت أتابك الزنكي ثم تخلص منه بأن أغرقه في دجلة، وأطلق العباد وأرباب الدين من الوثنيين (اليزيدية) والنصارى والمسلمين من جميع المؤنات والأرزاق والتكاليف»(١١). وفي سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤) جرت بين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأتباع الشيخ حسن بن عدي

محاربة كان سببها أن بدر الين كان كثير التثقيل على أولاد الشيخ عدي، يكلفهم مالاً على وجه المساعدة له، فأطلقوا ألسنتهم فيه، فأرسل طائفة من عسكره إليهم، فقاتلوهم قتالاً شديداً فانهزمت العدويّة، وقتل منهم جمع كثير، وأسر منهم جماعة، وصلب منهم مائة وذبح مائة، وأمر بتقطيع اعضاء أميرهم وتعليقها على أبواب الموصل، وأرسل من نبش قبر الشيخ عدي بن مسافر وأحرق عظامه، فجمع الأكراد جموعهم ونزلوا إلى نينوى (الموصل) يوم السبت، ونهبوا النصارى وسبوا وقتلوا، وفي حوادث سنة (٦٥٤هـ ١٢٥٦) تولى إمارة العدوية شرف الدين محمد بن الشيخ حسن وأسندت إليه ولاية خرتبرت (خربوط) وحاول أن يتصل بالسلطان عز الدين كيكاوس السلجوقي فأدركه (انكورك نوين المغولي) وقتله ومن معه»(١٢) وكان يطلق على الشيخ حسن اسم حسن البصري، لأنه وريث الخرقة البصريّة.

ترك الشيخ حسن كتاباً هو كتاب الجلّوة لأرباب الخلّوة، ورسالة صغيرة (محك الإيمان) ورسالة أخرى (هداية الأصحاب) حدد فيهما قواعد السلوك للمريدين، وديوان شعر، فيه من الإشارات الصوفية الرمزية القائلة بالحلول ووحدة الوجود، ومن ذلك قوله:

الحكمة أن تشربَ من الحاناتِ — خمراً قرنت بسائر اللذات
من كف مهفف متى تليت — آياتُ صفاته بدت من ذاتي

ومن الشعر الصوفي الذي يردده القوالون له قوله:

أصحاب الفهم من ملوك الزمان — كلنا أخوة في الواحد الرحمن
طاووس ملك اسم الله الثاني — اسم الله محبة في كل زمان
طيروا قليلاً في شمس البيان — تجدوا الحقيقة في مصحف شمساني

ومصحف شمساني هو كتاب الجلّوة لأرباب الخلّوة:

ومما يقوله القوالون حتى هذه الأيام قولهم:

رسول الحق حبيب الرحمن — شيخ حسن عليه السلامِ
طاووس ملك في ذاك المقام — قل هو الله في سر المقامي

من ربوات القدس لالش مقامي:

دير العلوم لالش نوراني — فيها عدي قطب الزمان
ننادي باسمك طاووس الحقاني — ننادي بالحق دعوة شمساني

ويقول اليزيدية في تشهدهم الصباحي (شهدي من يك الله، ملك شيخ حسن حبيب الله).

وترجمته إلى العربية (أشهد أن الله واحد، وأن الملك شيخ حسن حبيب الله).

في زمن الشيخ شمس الدين محمد بن موسى بن محمد العدوي الإربلي (المتوفى ٨٧٤هـ ١٤٦٩م) توطّد نفوذ الأسرة العدوية بين الأكراد وانقطعت صلتهم بالمسلمين خصوصاً عندما حرّم عليهم القراءة والكتابة بالعربية، واعتمدوا على مخزون الصدر الرحماني واعتبروا أن النفس المؤمنة تتقبل المعرفة من علم القدس، وأن غاية النفس التدرج في معارجها حتى تصل إلى عالم الأنوار، وكان الشيخ شمس الدين يقول للتلميذ الذي يلبسه الخرقة العدويّة (مادمت في هذه القرية أي (الدنيا) فلا يمكنك أن تتعلم كثيراً من كلام الله، ألا بتحرر النفس من عالم الظلمة وبالمعرفة الإلهيّة وتتدرج باتجاه الفضائل، ويحدد له معارج السلوك بالخطوات التالية:

- التوجه بالقلب نحو الباري سبحانه ومداومة الذكر والسهر وهذه درجة لا إله إلا.

- الاقلال من الطعام والابتعاد عن أكل اللحم وهذه درجة (لا هو إلا هو.)

- التذكر الدائم للموت الذي يقرّب الحبيب (الله) من محبِّه وهذه درجة لا أنت إلا أنت.)

- ثم يصل العبد التائب إلى مقام الرضى وتصبح النفس مهيأة للوصول وتفنى الذات العارفة في الله، وهذه درجة (لا أنا إلا أنا) وهذه درجة التوحيد المطلق وهي غاية السالكين، وهذه الرتبة لم يبلغها إلا شيوخ العدويّة.

كان الشيخ شمس الدين محمد يتكلم اللغتين الكردية والسريانية إلى جانب إتقانه للغة العربية، لأنه عاش في وسط متعدد الثقافات، وكانت تربطه بمسيحيي قريته بعشيقته صلات حسنة وقد اطلع على تعليمهم، درس الأناجيل، واختلطت تعاليم الإسلام والمسيحية عنده معاً خصوصاً في مسألة تأليه المسيح والإنسان الكامل، فالمسيحية رفعت من شأن الإنسان وجعلته ابناً لله لأنه كان على صورته بالروح، قال بولس (إن المسيح كان على صورة الله غير المنظور).

ومما أثار اهتمامه مسألة هامة هي:

كيف سقط الملاك (إبليس) إلى عالم الظلمة وهو النور المحض؟ ونتيجة مناقشاته مع رهبان قريته ومع عبد يشوع مطران الموصل، وفي هذه الأثناء زار قرية بعشيقة أحبار رومانيين (دومينكين وفرنسيسكان) ولجوا القرى والبلدان في زمن البابا آنوجنسيوس الرابع(١٣) تكوّن له الجواب التالي:

- إمّا أن يكون الملاك (إبليس) ناتجاً عن إرادة الله، وذلك من أجل تنظيم الكون والوصول به إلى غايته، وهو الاتحاد بالله وذلك في نهاية دورة كل روح تتجسد، وفي نهاية الدورة يعود الملاك إلى عالمه.

- وإما أن يكون الملاك عكس ذاته على ذاته، فقلت روحانيته، لأن نورانية الملاك مستمدة من نورانية الله وسقط الملاك لأنه لم يبق مستغرقاً في الله.

ـ وإمّا أن يكون مبدأ الوجود قائماً على الايجاب والسلب من هنا كانت ضرورة وجود إبليس (طاووس الملائكة) حتى يعرف الإنسان الخير والشر من خلاله. وهو موجود في كل مكان وجدت فيه مادة أو جسم، وهو سيد مملكة الظلمة لتحرير الإنسان منه لابد من صراع رهيب معه.

كانت أقلية مانوية تقطن تلك الديار قبل أن تهتدي وتصبح من النصارى (النساطرة) وكانوا يطلقون على اليهود اسم (شعب الشيطان) لأنهم لم يكونوا شعب الله فناموسهم لم يأت من الله بل من الملاك إبليس، وقد ظل موسى تائهاً في الصحراء أربعين سنة حتى عرف الله وخرج من الضلالة.

وكان الشيخ شمس الدين محمد يحكم ثقافته السريانية، وعقله المتفتح على الأديان كلها قد ادخل وصايا هرمس الحكيم إلى المذهب العدوي، الذي صار مزيجاً من تعاليم الحلولية والهرمسية، وهذه وصاياه السبع!

١) أطيعوا الله وأطيعو رؤساءكم، واخضعوا لسلطانهم، وأكرموا كبراءهم، ولتغلب عليكم محبة الله والحق ولا تخالفوا الرأي الصواب لتسلموا من الندامة.

٢) إذا جاءكم المخالفون لكم في الدين بألفاظ بذيئة وسوء القول، فلا تقابلوهم بمثل ذلك بل بالرفق والدلالة والهداية ولطف المخاطبة، وقولوا: اللهم أصلح بريتك.

٣) أكثروا من الصمت في المحافل ولا تطلقوا ألسنتكم بحضرة رؤسائكم، وأقلوا المراء والهذر في القول، كي لا يجعله أعداؤكم سلاحاً يضربونكم به.

٤) وإذا دخلتم في الصيام فطهِّرا نفوسكم من كل دنس، وصوموا لله بقلوب خالصة صافية متنزهة عن الأفكار السيئة، والهواجس المنكرة، فإن الله يستنجس القلوب الملّطخة والنيّات المدخولة، ومع الصيام فلتصم جوارحكم من المآثم، فإذا عيدّتم أعيادكم، وانقلبتم إلى منازلكم، فاذكروا أهل الضر والمسكنة، ومدّوا أيديكم إليهم بالبر والمؤاساة.

٥) ليكن همكم مصروفاً إلى الله رب العالمين، وارفعوا إليه صلواتكم بصفاء ضمائركم واجهدوا أن تناجوه بقلوب سليمة واعتقادات مستقيمة، يسمع منكم ويستجيب لكم، ويفتح أبواب الرشد في مساعيكم، ويعصمكم من أفكار السوء ويحفظ أنفسكم من المكاره والمخاوف وينجيكم من فخاخ الآثام، ويكب رؤوس أعدائكم تحت أقدامكم.

٦) جودوا بأموالكم، وصونوا نفوسكم عن مال غيركم.

٧) احفظوا وصية هرمس الحكيم: الحياء في الصبا أجمل من الخوف، لأن الحياء يدل على العقل والخوف يدل على الرهبة(١٤).

وارجح أن يكون كتاب مصحف رش هو من وضع الشيخ شمس الدين محمد بن موسى بن يونس بن محمد العدوي، وعلي يديه كانت بداية المذهب اليزيدي، وتحت إشرافه تم تكوين

الوضع الطبقي التراتيبي الديني للمذهب اليزيدي، وهو الذي فرض الوعظ والإرشاد والذكر باللغة الكردية، وهو الذي وضع اسطورة يزيد بن معاوية، وجعله أحد الآلهة السبعة، قال علاء الدين القونوي في كتابه حسن التصرف، إن اليزيدية ثلاث فرق:

١- إحداها، غلاتهم الذين قالوا: إن الشيخ عدي بن مسافر هو الله.

٢- والثانية الذين قالوا: إن الشيخ عدي ساهم مع الله في الألوهية، فحكم السماء بيد الله، وحكم الأرض بيد الشيخ عدي بن مسافر.

٣- والثالثة، الذين يقولون: أن الشيخ عدي ليس الله تعالى ولا شريكاً له ولكنه عند الله بمنزلة الوزير لا يصدر عنه شيء إلا بمشورته.

ثم قال علاء الدين القونوي: ومجمل مذهبهم يؤول إلى الحلول وهم يوالون النصارى، ويصوّبون عقائدهم، وأنهم يقولون لا فائدة في الصلاة ولا بأس في تركها، وهي ليست واجبة بل الواجب طهارة القلب وصفاؤه، وأنهم يمكنون شيوخهم من زوجاتهم ومحارمهم ويستحلونه ويعتقدونه»(١٥).

وفي يزيد بن معاوية كان عدي بن مسافر يذهب إلى أن يزيد بن معاوية (رض) إمام وابن إمام تولى الخلافة وجاهد في سبيل الله، ونقل عنه علم الحديث، وإنه بريء مما طعنه به الروافض من أجل قتل الحسين (رض). ثم قال في يزيد الشيخ حسن بن عدي أنه كان ولياً وقال وقفوا في النار في قولهم في يزيد، ثم قال الشيخ شمس الدين هو من الآلهة ومن وقف فيه أوقعه الله في نار جهنم، قال ابن تيمية «إن افتراق الناس في يزيد بين محب ومبغض جعله من أئمة الهدى وكبار الصلحاء، وذكر أن منشأ الاعتقاد بصلاحه كراهة بعض أهل السنة للعنة، فظن قوم ممن يتسنن أن ذلك بني على صلاحه فاعتقده ومنهم الشيخ عدي بن مسافر، واعتقد مبغضوه أنه كان كافراً زنديقاً (وهم الروافض) ورأي ابن تيمية الاقتصار في يزيد على أن لا يسب ولا يحب»(١٦).

يزيد بن معاوية:

ولد يزيد بن معاوية سنة في سنة ٢٦هـ/٦٤٧م وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٦٠هـ/٦٨٠) كان ضخماً كثير اللحم كثير الشعر، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبيّة روى عن أبيه وعنه ابنه خالد وعبد الملك بن مروان، جعله أبوه ولي عهده وأكره الناس على ذلك.

قال الحسن البصري: أفسد أمر الناس اثنان:

- الأول: عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف وتمّ التحكيم في صفين، وخلع الإمام علي (ع).

ـ والثاني: المغيرة بن شعبة يوم أشار على معاوية بالبيعة ليزيد(١٧) فلما مات معاوية بايعه أهل الشام، ثم بعث إلى أهل المدينة من يأخذ له البيعة، فأبى الحسين وابن الزبير أن يبايعاه وخرجا من ليلتهما إلى مكة، وبعث أهل العراق إلى الحسين الرسل والكتب يدعونه إليهم فخرج من مكة إلى العراق ومعه طائفة من أهل بيته، فكتب يزيد إلى واليه بالعراق عبيد الله بن زياد بقتاله، فوجه إليه جيشاً مقداره أربعة آلاف عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، فخذله أهل الكوفة، فقتل الحسين (ع) وجيء برأسه في طست حتى وضع بين يدي يزيد بن معاوية»(١٨).

وذكر أبو الريحان البيروني «دخلوا برأس الحسين إلى دمشق في اليوم الأول من صفر سنة ٦١ هـ/ الموافق ١٠ تشرين سنة ٦٨٠م، فوضع بين يدي يزيد فنقر ثناياه بقضيب كان في يده، وهو ينشد: (١٩)

لست من خندف إن لم انتقم	من بنى أحمد ما كان فعل
ليت أشياخى ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا: يايزيدُ لا تسل
قد قتلنا القرن من أشياخهم	وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشمُ بالملك فلا	مَلَكٌ جاء ولا وحيٌ نزل

وكان المسلمون يقولون أن الله أنزل جنداً من السماء وقاتلوا المشركين ببدر، ولكن يزيد في شعره ينفي ذلك، وهو فرح بمقتل الحسين (ع)، أما في كتب اليزيدية وفي كتابهم المقدس (مصحف رش) جاء في مقدمته «أن معاوية بن أبي سفيان كان خادماً لنبي الاسماعيليين (العرب أبناء اسماعيل) وحلق رأس محمد (ص) يوماً فجرحه، وأكّب على الدم فلحسه بلسانه لئلا يسيل الدم على الأرض، فقال له النبي: أخطأت، وستكون ذريتك أعداء لأمتي، فعاهده على أن لا يتزوج أبداً، ولم يكن له بنون من قبل. ولكن الله سلّط عليه عقارب لدغته في وجهه، وجزم الأطباء بموته، إن لم يتزوج امرأة في الثمانين ليأمن حملها، فلما أصبحت إذا هي بنت خمس وعشرين فحملت وولدت يزيد أحد آلهتهم السبعة»(٢٠)، وأما عن يزيد والحسين، فاليزيدية يقولون أن يزيد نزل من السماء وقاتل الحسين بن علي بن أبي طالب وانتصر عليه، أمّا الباحثون اليزيديون الجدد فيقول الأستاذ درويش حسو «بعد ظهور الخليفة يزيد بن معاوية في دمشق أحاط أمراء الازداهيين به لكونه رجلاً ذا أفكار حرة، ولم يكن خليفة من الخلفاء المؤمنين وقد طلب يزيد من الازداهيين العون مقابل الحرية الدينية لهم، فقدّم الازداهيون له المساعدة العسكريّة ضد جيش الحسين بن علي (ع) وبمساعدتهم استطاع يزيد أن يحقق الانتصار العسكري، ومنذ ذلك الوقت يُسمّى الازداهيون باللغة العربية باليزيديين وبأتباع يزيد بن معاوية»(٢١).

لا أعلم ولا أعرف رجلاً جاهلاً بالتاريخ العربي الإسلامي مثل هذا الرجل (أعني درويش حسو). وهو الذي يقول عنه الدكتور خلف الجراد في كتابه اليزيديّة واليزيديون، وهو كتاب حافل بالوصف والتحليل والحكم الصائب، كيف قال هذا القول «ونحن سنعتمد على معطيات هذا المؤلف ومعلوماته عن طقوس اليزيديين وعاداتهم ومقدساتهم حيث أنه يعد من المثقفين اليزيديين المتنورين، ومن نشطاء المركز الديني لليزيدية الزرادشتية في بون، وهو أعرف من الآخرين بديانته وأسرارها وطقوسها»(٢٢). لقد أطلعت على كتاب السيد درويش حسو وعلى كتاب السيد هوشنك بروكا وكلاهما من المركز الديني اليزيدي، وبعد التمعن في الكتابين أقول أنهما يجهلان تاريخ المذهب اليزيدي ويطلقان أحكاماً غايتها أبعاد اليزيدية عن الإسلام واعتبار اليزيديين من أتباع المذهب الزرادشتي، وبعد أن دققت ومحصت أساطير الديانة الزرادشتية تبين لي أنه لا صلة بين اليزيدية والزرادشتية، لا من حيث المعتقد ولا من حيث الطقوس والشعائر.

يقول الأستاذ هوشنك بروكا في مقدمة كتابه (دراسات في مثيولوجيا الديانة الايزيديّة)، رداً على قول اللأستاذ عباس العزاوي في كتابه الموسوم (تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم): «ونتائج ما حققته (القول للعزاوي) هو أن اليزيديين مسلمون حقيقيون يعتقدون الإمامة في يزيد بن معاوية كونه على حق، وتوارثوا تقاليد قومية ودينية صوفية، واعتيادات ممزوجة بتعصب للأمويين، مما أبعد شقة الخلاف بينهم وبين جمهور المسلمين، فأدى ذلك إلى تقاليد خاصة أفسدت جوهر إسلاميتهم» لقد علق الأستاذ هوشنك «إلا أننا نختلف مع هذا الرأي وننفيه نفياً قاطعاً كونه يفتقر إلى أبسط الأدلة التاريخية والايثولوجية، ضارباً بأصول البحث العلمي عرض الحائط، فبالرغم من إقرارانا بالدور الكبير الذي لعبه الشيخ عدي بن مسافر في مسيرة تاريخ هذه الديانة باعتباره واحداً من مبشريها وحاملاً لرايتها في مرحلة أساسية ومرتبكة من مراحل تطورها، رغم ذلك فإن اليزيدية لم تظهر بظهور هذا الشيخ الزاهد كما يُدَّعي أو قد يعتقد، فهي سابقة عليه بل هي تعود إلى ما قبل الميلاد بقرون عديدة، ونبين هذا لاحقاً في سياق البحث والدراسة»(٢٣).

وإن ما اعتمد عليه السيد هوشنك هو قول منسوب إلى الدكتور لوفريه نبو وهو يزيدي من قرية باسيفان في محافظة حلب، ذكر أن كلمة ايزيدي مكتوبة في الخط المسماري في العهد السومري وهي تعني الروح الخيرة، وعندما عرض عليّ السيد لوفريه نبو الكلمة في سنة ١٩٨٨ في منزلي مدينة الرقة، ذكرت ذلك للدكتورة ايفا شترومنغر التي نفت ذلك القول أمام طالب الدراسات العليا لوفريه نبو في مركز البعثة في تل البيعة بالرقة.

قال العلامة أحمد تيمور (١٢٨٨هـ/١٣٤٨هـ) في كتابه اليزيدية ومنشأ نحلتهم «اليزيدية طائفة من الأكراد يسكن أكثرهم في جهات الموصل وحلب، وهم من أغرب طوائف المبتدعة، يدينون بعبادة الشيطان ويقولون بالتناسخ.. ويعلل نشوء تلك الطائفة بقوله «لا يخفى أن الغالب في كثير من النحل، والمذاهب أن يطرأ عليها التغيير والتبديل بعد ذهاب الداعين إليها. إما

بـابتداع النصـوص فيهـا أو بتأويلهـا حسـب مـا توحيـه الآراء وتزينـه الأهـواء. غـير أن التغيـير يختلف قلة وكثرة تبعاً لأهواء المهيمنين على المذهب، وهذا عين مـا طـرأ علـى مذهـب اليزيديـة، فإنهم لم يكونوا في مبدأ أمرهم سوى طائفة من الصوفيّة لهم طريق خاص، كالحال في سائر طوائف القوم، غير أنهم غلو في شيوخهم غلواً تجاوز الحد وأدى إلى قولهم فيهـم بمـا لا يوافـق شـرعاً ولا عقلاً، ثم قام فيهم رؤساء طالبون للرئاسة، فتوسعوا في مذهبهم وادخلوا فيه ما اقتضتـه مصلحتهـم ووافق أهواءهم، ومازالوا ينقصـون فيـه ويزيـدون فيـه قرنـاً بعـد قـرن حتـى خرجـوا مـن الإسـلام جملة»(٢٤).

كيف حدث هذا التحول الكبير من المذهب العدوي إلى المذهب اليزيدي؟

أقول: الفكر الصوفي العدوي مثل غيره من المذاهب الصوفيّة الذين غيبّوا العقـل واعتمـدوا علـى (نور البصيرة) واستخدموا المجازات والاستعارات في التعبير عن أفكارهم وبإسـلوب غيـبي ليصلـوا إلى روح الحقيقة الموجودة في عالم الغيب والشهادة غير المدرك حسيّاً، وهنا لابد من تأويل الأقـوال والنصوص للوصول إلى تلك الحقيقة، وكثير من أقوال الصوفية فيهـا شـطح وشـرود للفكـر في عـالم الميتافيزيقا، وهو عالم غير محدد عبرت عن محتواه كلمات صدرت عن ألسنة هائمة في حب الله، أصدرها أقطاب روحانيون آلهوّا أنفسهم فألهتهم عوامهم من بعدهم.

كانت النصوص في المذهب العدوي مكتوبة اللغة العربية فيها القرآن الكريم والأحاديث النبويـة والعلوم اللدنيّة، وعندما تحوّل وعظ العدويـة مـن العربيـة إلى الكرديـة نشـأت الخلافـات وجـرت الزيادة والتغيير، تدفعها مصالح القـائمين عليهـا الذيـن ضربـوا بقواعـد تفسـير النصـوص عـرض الحائط، ذكر الشيخ محمد سعيد البوطي في كتابه (الديـن والفلسـفة) «أن قواعـد تفسـير النصـوص عند المسلمين التي لا مندوحة عن اللجوء إليها في فهم المراد بالنصوص العربية عموماً وفهـم النـص القرآني والسنة النبوية خصوصاً، وهو مثل قول العلماء:

«الأصل في الكلام الوصول للحقيقة ولا يصار إلى المجاز إلا عند تعذرهـا» ومـن ثـم فـإن العلمـاء الذين يعتد بعلمهم لم يختلفوا بشأن العربية، ولا بتفسير النصوص على ضوئهـا بـل لا يسـعهم إلا الاتفـاق»(٢٥). هـذا إن كـانت النصـوص بالعربيـة فمـا بـالك إذا حوّلـت إلى الكرديـة؟. والمذهـب اليزيدي نظام فكري غيبي نشأ في عصر مضطرب فكرياً وفي وسـط أمـي بـين قبـائل كرديـة رعويّـة وفلاحيّة، وقام دعاة المذهب مثل غيرهم من المذاهـب، ثـم قـامت بـه أجيـال ليخدمـوا مجتمعهـم ويعبروا عن حضارتهم وثقافتهم. كان المذهب العدوي اليزيدي ينظر إلى المذاهب الدينية المعاصرة له من إسلام ومسيحية أنهم كفرة لأنهم بدلّوا وحرفوّا الكتب الـتي أنزلهـا الله إليهـم وأنهـم وحدهـم حافظوا على الحقيقة الإلهية المطلقة التي حفظوها في كتبهـم أو كتـابيهم (كتـاب الجلـوة وكتـاب مصحف رش).

كتاب الجلّوة:

ينسب هذا الكتاب إلى تاج العارفين الشيخ حسن بن أبي البركات بن عدي، وضعه حوالي عام (٦٣٥ هـ١٢٣٧) وقد وسمه (كتاب الجلّوة لأرباب الخلّوة) وكان كتاباً حافلاً بالمعرفة والفكر الإشراقي الحلولي، جاء فيه «إن الله هو النور الحقيقي الأوحد وإن سائر الأنوار، هي صادرة منه، وإن الذات الإلهية انتقلت مع ذرات هذا النور إلى الهياكل البشرية، وحلت بالشيخ العارف عدي بن مسافر، وتبدل به جوهر الإنسانية، وكان أول الظهورات الإلهية السبعة»، هذا قول فخر العلماء حسن بن أبي البركات الملّقب بالحسن البصري، لأنه وارث علمه ولابس خرقته، قال علاء الدين القونوي في كتابه حسن التصرف «إنهم يصفون الله تعالى بصفات الإجسام كالأكل والشرب والقعود والقيام وغيرها، ومنها إنهم يحكون حكايات في شأن الله تعالى ورسوله والشيخ عدي بن مسافر تشتمل على تذلل الله تعالى ورسوله بين يدي الشيخ عدي وعلى تحقير شأنهما والاستهزاء بهما».

كيف حدث هذا التغيير والتبديل؟ يقال أن الشيخ حسن اختلى ست سنوات بعد سياحته في حلب ودمشق ودراسته على يد الشيخ العارف محيي بن عربي، وألف كتاب الجلّوة لأصحاب الخلّوة ووصف نفسه قائلاً:

وصرت فرداً بلا ثان أقوم به ... وأصبح الكل والأكوان تفخر بي

وكل معناي معناها وصورتها ... كصورتي وهي تدعى ابنتي وأبي

لاشك أن هذا التحول والانعطاف الكبير في المذهب جرى خلال عدة قرون لاحقة، ذكر الأثري الانكليزي أوستن لايارد أن الشيخ ناصر أخبره في عام ١٨٣٩ «أنه جرى تغير كبير في ديانتهم عام ١٥٥٠م ويقترح أنه جرى تواصل بينهم وبين المانوية، ولكن لا أستطيع أن أثبت ذلك بالنصوص المباشرة»(٢٦).

فما هي أهم الأحداث التي جرت في تلك الفترة؟

كان اليزيدية يعيشون في قراهم الجبلية مع المسيحيين النساطرة، ومع الوثنيين من المانوية والديصانية، وفي سنة ١٥٥٠م أرسل البابا يوليوس الثالث (١٤٨٧ ـ ١٥٥٥) الراهب الدومنيكي امبروسيوس مونتي، إلى الجبال المحيطة بالموصل، وعرض على الأديرة النسطورية واليعقوبية والمانوية، قانون الايمان الصحيح وعرض سر الثالوث الأقدس، وتجسد المسيح المكوّن من طبيعتين (لاهوتية وناسوتية) في شخص المسيح الإله الحي، قبل هذا الاعتقاد بعض النساطرة الذين يقولون أن السيد المسيح يتألف من طبيعتين إلهية وبشرية وعاش وهو يحمل الطبيعتين منفصلتين وإن طبيعته الناسوتية هي التي صَراخت عند الصلب (إلهي إلهي لما تركتني). وفي تلك السنة جرى

صراع عل كرسي الجثلقة وقد استولى عليه المطران شمعون برماما، عنوة دون انتخاب، واجتمع بعض المطارنة في الجزيرة العليا ورفضوا رئاسة المطران شمعون وتوجهوا إلى الموصل واختاروا مارسولاقا بن دانيال من بيت بلو من أهل مدينة العفر، وكان مطران ديرهرمز رجلاً عالماً فاضلاً، ونصبّ مارسولاقا جاثليقا في شباط عام ١٥٥١، وذهب إلى روما ورسمه البابا يوليوس الثالث وكتب له براءة رسولية في ٦ نيسان ١٥٥٣م وأصبح بطريرك الكنيسة الكلدانية واستمر في منصبه يدعو الطوائف الوثنية إلى الإيمان حتى وفاته عام ١٦٠٠م(٢٧) وتميز هذا العصر بالقتال الطائفي بين الكنيستين الكلدانية والآشورية، وبين الأكراد المسلمين واليزيدية أما المانوية فقد آمنو بتعاليم الكنيسة الكلدانية، ولكن معظم تعاليمهم أودعوها في زوايا العدوية الذين كانوا أميين محرّم عليهم القراءة والكتابة.

كتب الرحالة الغربيون ومعظمهم سواح أجانب جاءوا بدوافع عديدة إلى بلدان الشرق، وكان يتعجبون من كثرة الافكار وتعقدها وغناها، وكيف تصدر عن إناس أميين، لديهم الحكمة والمعرفة الرمزية، وعندما كتب الرحالة الدانيمركي كريستن نيبور وصف رحلته عام ١٧٦٥م وذكر عن اليزيدية وصفاً أثار الانتباه إلى هؤلاء القوم (عبدة الشيطان)، وقد أعجب الشاعر الألماني غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) بهم، وقال في كتابه الديون الشرقي للمؤلف الغربي «ليست الدعوة الدينية من شأني ولكني كنت أبحث دائماً، وبكل إخلاص عن الوحدة الدينية، ولم أجد في تاريخ العالم كله من يوم أن خلق ديناً أستطيع أن اعتنقه اعتناقاً تاماً، وها أنذا أسمع في أواخر أيامي عن شيعة متوسطة بين الوثنيين واليهود والمسيحيين والمسلمين قد أعلن أصحابها أنهم على استعداد لأن يقدروا، ويقدموا كل ما يصل إلى علمهم من كمال وسموا بل وإن يعبدوه في الحال، وأن يكون ذلك قريباً من الألوهية. وهكذا ينبثق أمام ناظري من الزمان المظلم السحيق شعاع من السرور العميق وأشعر أني أستطيع وصف نفسي بوصف هؤلاء»(٢٨) أي اليزيديّة. كان غوتيه معجباً بالشاعر حافظ الشيرازي (المتوفى ٧٩١هـ) لسان الغيب الذي رأى في المنام إبليس بصورة طاووس جميل، فسأله: لماذا يصورونك بالصورة القبيحة؟ فأجابه: إني سلبت بني آدم راحتهم فسلبوني جمالي»

لِمَ حدث هذا التبديل في المذهب العدوي فألهوا شيوخهم؟ يقول الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون «الحقيقة أن ما يريده كبار الصوفيين، يبدلوا جوهر الانسانية تبديلاً أساسياً. فيبدأون بأن يكونوا هم القدوة ويتحولوا إلى شخصيات إنسانية إلهية»(٢٩).

وعندما حرّمت القراءة والكتابة على أتباع المذهب العدوي، أصبح الموروث الشفهي هو مخزونهم الديني، من هنا لعب الخيال والتحوير والتبديل في معطيات المذهب حتى كادوا أن يفرغوه من محتواه الإسلامي.

يقول المؤرخ الكردي شاكر فتاح «وضع الشيخ حسن أسس الديـن الـيزيدي المخـالف للديـانتين الزرادشتية والإسلامية، والذي لاقى قبول واستحسان أصحابه، وآمنوا بـه وعـدّوه ذا مكانـة فـوق بشرية ثم جعلوه واحداً من الآلهة السبعة الذين يعبدونهم وأطلقوا عليه اسم الملك دردائيل)(٣٠).

هل كتاب الجلّوة الموجود اليوم هو الكتاب الأساسي الذي وضعه الشـيخ حسـن؟ لا. إنـه في نظر كل الباحثين أنه صورة محرّفة ومزّورة عن (كتـاب الجلّـوة لأربـاب الخلـوة). يقـول البـاحث العراقي صدّيق الدملوجي «إن اليزيديّة يتهامسون في أن عائلة الشيخ أبي بكر أخـذت الأمـارة مـن عائلة الشيخ حسن وذلك عندما خرج الشيخ محمد الأربلي (الشيخ شمس الدين محمـد بـن موسـى ابن محمد بن الشيخ حسن العدوي والشيخ أبو بكر هو عمه) وحارب آل الشيخ حسن وقتـل منهـم ثمانين شخصاً وقبض على الإمارة وحصرها في أسرته»(٣١) حرّف كتـاب الجلـوة بعد ذلـك، وإذا علمنا أن الشيخ محمد الأربلي هو واضع كتاب مصحف رش فمعنى هـذا أنـه حـوّر كتـاب الجلّـوة ليتوافق مع كتاب مصحف رش (المصحف الأسود).

يقول العلامة أحمد تيمور أن هذا الكتاب الموجود اليوم هو لا شك غير كتـاب الجلّـوة لأربـاب الخلّوة لأن الشيخ حسن كان ذا عقل وعلم ودهاء لا ينحط قلمه إلى مثل هذا السخف»(٣٢).

لهذا يقول نوري بك في كتابه (عبدة إبليس): إن واضع الجلّـوة هـو راهـب نسـطوري أحـدث ضجة في دير القوش عندما أعلن إسلامه كذبـاً واحتمـى بـاليزيديين، ويـرى الأسـتاذ عبـد الـرزاق الحسني «إن كتابي اليزيدية المذكورين هما من وضع الشماس إرميا، والدليل على ذلك:

ـ أن العبارات العربية المستخدمة في الكتابين تظهر أن كاتبها اعتاد الكتابية بالسريانية كقولـه مثلاً (لكي يُفَهِّم ويُعَلِّم لشعبه) فإن اللام في (لشعبه) لازمة هنا في السريانية وممنوعة في العربية.

ـ ثم إن الشماس إرميا ألحق بالكتب التي نسبها إلى اليزيديّـة أشـياء مـن عقـائد عبـدة إبليـس وعاداتهم، وجرى في كتابتها مجرى السـريان، كقولـه في كتـاب الجلّـوة (لأنكـم لسـتم تـدرون مـا يفعلون الأجانب». قال الدكتور خلف الجراد «ونحن نتفق مع الاستنتاج الذي توصل إليه الباحث الرزين السيد عبد الرزاق الحسني من حيث أن الكتابين المذكورين لم يوضعـا أصـلاً بالعربيـة وقـد يكون الشماس إرميا ترجمهما إلى العربية بإسلوبه السرياني»(٣٣).

كتاب مصحف رش (المصحف الأسود)

دوِّن كتاب مصحف رش وكتاب الجلّوة بصيغة كتابين أرضيين يقتربان من القرآن إلا أنهمـا لا يتفقان معه من حيث النتيجة. لا نعرف لماذا سمي بالمصحف الأسود؟ ربما أرادوا بــه الوحـي مـن إله الظلمة، كما سميّ ماني كتابه (الانجيل الحي) لأنه موحى به من إله الحياة.

كان اليزيدية يتكتمون على كتبهم وقد حاول الأثري أوستن لايارد التعرف على كتابهم فلم يستطع، واكتفى بالقول أنهم يقرون (بكائن سامٍ) لم أستطع التعرف لماذا يتقربون إليه في صلاتهم، وإن كانوا يتلفظون دائماً بآيات قرآنية وبجمل عربية إسلامية لا تفارق أفواههم وهم لا يلفظون اسم الشيطان مطلقاً(٣٤)... ولهم على ما أظن كتاب مقدس فيه طقوسهم وتراتيلهم وتعاليمهم وأمور أخرى تتعلق بالديانة، وهذا الكتاب قد يكون محفوظاً في بحزاني أو بعشيقة وهو يعتبر عندهم بالغ القداسةإلى درجة أسطورية، بحيث أني بذلت كل جهد للحصول على نسخة منه أو حتى مشاهدته، وهناك شخص أو شخصان من الطائفة ممن يعرف القراءة والكتابة المحرّمة دينياً، يستطيع قراءة الكتاب المقدّس والرجوع إليه في احتفالات الطائفة (٣٥).

لهذا قال صديق الدملوجي، الأرجح أن مؤلفي هذين الكتابين ليسا من المسلمين بل هما مسيحيان من قرى (بحزاني أو بعشيقة) أو من قساوتهم بعد أن حصلوا عليها من شيوخ اليزيدية، وقد كتباها بلغة عربية ركيكة جداً.

كيف ظهر كتابهم (مصحف رش) إلى الوجود؟ روى لي المرحوم مصطفى حمويّة (من أهل منبج) القصة التالية يوم الثلاثاء في ١٩٧٦/٥/١١ قال إن أول من اكتشف مصحف رش هو الضابط الانكليزي مود Moode وقد أحدث اكتشافه ثورة بين فقراء اليزيدية وقد قال لي المدعو (حمو شيرو) بأن الكولونيل مود قد رأى حلماً متوالياً مدة ثلاثة أيام بأنه توجد صخرة كبيرة في أعلى الجبل في سنجار دفن فيها الكتاب. ووجد كما جاء في الحلم.. انتهى.

وحسب رواية المؤرخ الكردي شاكر فتاح أن حمو شيرو كان صنيعة الانكليز وهو من طبقة الفقراء وفي زمنه أصبح الفقراء مجموعة متسلطة ومهيمنة أرهبت اليزيدية، وكان (حمو شيرو) واحد من هؤلاء الفقراء كان يقطن قرية (خانك وقباغ) التابعة لمنطقة الشيخان ثم رحل إلى سنجار، إذ فرض سيطرته على المنطقة وأصبح حاكماً على سنجار أيام الاحتلال للعراق(٣٦) وقد ترجم مصحف رش الأب انستاس الكرملي إلى اللغة الفرنسية وطبعه مع مؤلفاته في مجلة المشرق البيروتية، وكان المستشرق الفرنسي فرنسوا نو قد سبقه إلى ترجمة ونشر كتابي (الجلْوة ومصحف رش) عام ١٨٧٢ في باريس. وترجمت المستشرقة الأمريكية (أليريا جوزيف) النصين من العربية إلى الإنكليزية ونشرتها في مجلة اللغات السامية في نيويورك عام ١٩١١ وأعاد صياغتها ونشرها السيد عيسى يوسف المقيم في نيويورك.

عاش اليزيدية مع المسلمين والمسيحيين عدة قرون، ولم تظهر لهم كتابات سوى ما ذكره علاء الدين القونوي حول كتاب الجلْوة لأرباب الخلْوة، للشيخ حسن بن عدي (الثاني). وفيه عرض للمذهب العدوي بعد تحوله للحلول ووحدة الوجود، ووصفهم بالكفر، وعندما دوّن حاجي خليفة (المتوفى ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) كتابه كشف الظنون، دون فيه أسماء الفرق والكتب المعتمدة لديها، اكتفى بالقول «اليزيدية قوم من مريدي الشيخ عدي بن مسافر من ذرية الخلفاء المروانية، وقد

زاغوا عن مسلكه، وهم زنادقة ملحدون، وأكثرهم جهلة لا يقرأون، ومن يكون شيخاً عندهم يعتم بعمامة سوداء ولذلك يسمى (قرة باش) ويشتري منه اليزيدية مواضع من الجنة، وهم يجتنبون لعنة الشيطان ويزيد ولعنة كل شيء ويقولون: إن الشيطان ملك مقرّب، وإن الشيخ عدي قد تكفلّ بصومنا وصلاتنا ودخولنا الجنة يوم القيامة بدون حساب، ولهم عداوة شديدة لعلماء الظاهر»(٣٧).

ولم يذكر حاجي خليفة أن لليزيدية كتاباً خاصاً بهم.

وعندما زار العالم الأثري أوستن هـ لايارد عين سفني سنة ١٨٤٢ بدعوة من الأمير حسين بك والشيخ ناصر واطلع على أعيادهم وطقوسهم ودوّن عاداتهم وتقاليدهم، وسألهم عن كتابهم المقدس فلم يطلعوه عليه فقال: ولهم على ما أظن كتاب مقدس فيه تقاليدهم وتراتيلهم وتعاليمهم في كيفيّة ممارسة طقوسهم وأمورهم الدينيّة وهذا الكتاب قد يكون محفوظاً في بعشيقة في بيت الجلوة وهو يعتبر عندهم بالغ القداسة إلى درجة خرافيّة بحيث باء بالفشل كل جهد بذلته للحصول على نسخة منه أو حتى مشاهدته، وهناك شخص واحد أو اثنان بين اليزيديّة لديهم معرفة القراءة والكتابة يستطيع قراءته، وحتى الشيخ ناصر لم يكن يعرف الألف باء»(٣٨).

والسؤال الملح: **متى وكيف ظهرت كتب اليزيديّة المقدسة؟**

جاء في مذكرات الخوري بهنام بدريّة (١٨٣٨ ـ ١٩٢٤) حول مداهمة الملازم عاصم ابن الفريق الركن عمر وهبي لعين سفني سنة ١٨٩٢م قال «أمر علي بك بن حسين بك أن يحضر كتاباً وقنديلاً من بيت أخته فأحضرهما، وإذا على القنديل آية من القرآن الكريم فقبّله قائلاً هذا من آثار نبينا (ص) أما الكتاب فوجد عليه مكتوباً «الله هو الله وملك فخر الدين هو الله، وشيخ سجادين هو الله، والشيخ بكر هو الله، وقد كان الكتاب من جلد الغزال وتجليده من جلد ذئب، فقال الملازم هذا كفر وحرقه بالنار»(٣٩). ثم أرسل إلى قرية (يزدين) في طلب مصحف رش من الشيخ ميزره بن مامكي المسمى الشيخ مما، فلما أحضره، وجده القرآن الكريم وقد طمست بالسواد كل الآيات من قبيل (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وكان على ما قيل اسم الشيطان مغطى بقطعة من الشمع، فقال لهم: أنكم تزعمون أن هذا الكتاب نزل من السماء، فإذا كان الشيطان لا يجوز أن يلفظ، فلم كتبه الله فيه؟ وإذا كتبه فلم تغطونه بالسواد ولا تقرأونه ولا تلفطونه؟ يعني اسم الشيطان، فرد عليه الشيخ ميزره هذا كتاب تركه عندي رجل اسمه (شستر المهندس) وهو نسخة عن الكتاب الذي تطلبونه مني، وأن شستر أخذ أصل الكتاب»(٤٠).

فهل مصحف رش هو القرآن الكريم وقد غطيّت أسماء الشيطان واللعنة بالسواد أو بالشمع؟ أم أن هناك كتاباً آخر هو مصحف رش الذي أظهره الشماس إرميا شامير؟

الشماس الكلداني إرميا شامير (١٨٢٤ ـ ١٩٠٦).

كان الشماس إرميا من أهل قرية (كاوا) وقد ترهب في دير هرمز، وكان رجلاً ذكياً متعدد اللغات يعرف السريانية والعربية والكردية والتركية والفارسية، وكان يتقن اللغة الانكليزية تعلمها

على يد السائح الأمريكي هنري فيلد Henry Field الذي زار العراق في عامي ١٨٤٣ و١٨٤٤. وكان الشماس إرميا يحب السياحة وتجارة الكتب القديمة قال عنه الرحالة الانكليزي سرواليس بج Sir wallis Budge عندما زار الموصل عام ١٨٨٩م، «كان إرميا يجنح للطائفة اليزيدية، لأنه يعني بمخطوطاتهم عناية خاصة، ولقد اعتاد على شراء الكتب والمخطوطات لبيعها عاجل ما استطاع إلى ذلك سبيلا، استعمله الرحالة الألماني توماس سخاو عام ١٨٨٠م لجمع المخطوطات للمتحف الملكي في برلين، ثم تعامل معي في جمع المخطوطات، فجاب آسيا الصغرى وأرمينية وفارس وكردستان، وكان يعرف الشيء الكثير عن اليزيدية ومعتقداتهم ومنه حصلت على مخطوطة عربية ضخمة تضم أكمل تاريخ لهذه الطائفة الممتعة اشتريتها للمتحف البريطاني»(٤١) وقد ترجم هذا المجلد الضخم جورج براون إلى الانكليزية عام ١٨٩٥ وفيه كتابي الجلْوة ومصحف رش، ثم نشرهما المستشرق الايطالي الفونسو منجانا Alphonse Mingana عام ١٩٣٠ في بحثه عن عبدة الشيطان، مؤكداً أن من كتب كتابي الجلْوة ومصحف رش هو الشماس إرميا شامير، مدعماً ذلك بعدة ملاحظات جديرة بالاعتبار منها:

- هل هناك كتب يزيديّة مقدّسة يعرفها أحد من الناس قبل زمن إرميا؟. وهذا الرحالة برسي بيجر G. Percy Badger الذي زار الهكارية عام ١٨٤٢ ذهب إلى إنكار وجود الكتابين المقدسين أصلاً، ويرجح أن أبناء الطائفة كتبوها ليظهروا أمام المسلمين أنهم أصحاب كتاب وإن الشماس إرميا هو الذي وضعهما لليزيديّة»(٤٢).

- لا يعرف أحد من الغربيين أنه عند اليزيديين قبل عام ١٨٦٥ توجد كتب مقدسة وحتى الوثيقة السريانية المخطوطة والموجودة في دير القوش لا تسبق سنة ١٨٦٥م.

وقد ذهب من أكدّ لي أن تأليف الكتابين (الجلْوة ومصحف رش) هما من وضع الشماس إرميا وسوف أثبت ذلك بالبراهين الداخلية من داخل الكتاب أبين أن الشماس إرميا متورط في التأليف:

١) أن الكتاب متأثر بالتفكير والأسلوب الكتابي للغة السريانية التي هي لغة إرميا الأساسية حيث أنه ألحق الفعل بضمير الجمع مع ذكر فاعله كما يفعل السريان، جاء في كتاب الجلْوة (التي يسمّونها الخارجين شراً) و(لأنكم لستم تدرون ما يفعلون الأجانب) كتاب الجلْوة ف١ : ١.

وجاء في كتاب مصحف رش (لكي يُفهّم ويعلّم شعبه) فالعرب لا يدخلون حرف اللام على المفعول به، وهذا الأمر معروف باللغة السريانية، وهناك تعابير أخرى مثل (يجب الصدقة عند نفس الموتى) و(أحرك الأمور اللازمة) و(ودعى اسمه إبريق أصفر). وهذه تعابير سريانية.

٢) أطلق على العرب والمسلمين اسم الاسماعيليين وهو الاسم الذي يطلقه السريان على العرب، ولو أنه كان يزيدياً لسماهم (حسينيين).

٣) جاء في كتاب الجلّوة المنحول على لسان طاووس ملك (يرشد من غير كتاب، ومن يفد عليكم بالمستقبل بكتاب غير ما عندكم الآن فلا تصدقوه، لأنني أرشد دونما ثمة كتاب) الجلّوة ف٣: ٢٤.

كيف نسي الشماس إرميا ذلك وأظهر للناس هذين الكتابين (الجلّوة ومصحف رش)، والعرب تقول إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً، إن هذه الكتب وضعها هذا الشماس الذي قال عنه سراوليس بدج (كان مغتاباً وصاحب أخبار، فإن كان هناك خبر في اسطنبول فهو الراوي الأول له)، إن رجلاً هذه صفاته لا يتورع عن الوضع والانتحال.

٤) قال منجانا أن النسخة التي بين يديه تحمل في القسم الثالث والسطر الثاني اسم عبد العزيز وأنه كتبها عام ١٨٨٩ نقلاً عن الشماس إرميا. وهذا يصادف زمن شراء السير واليس بدج للمخطوط اليزيدي الضخم من أرميا (٤٣) كما باع إرميا المخطوطين (الجلّوة ومصحف رش) ثانية للرحالة والباحث الانكليزي ازوالد هـ بيري Oswal H. Parry عام ١٨٩٥(٤٤).

وقد توصل الأستاذ سعيد الديوه جي إلى اليقين بأن كتاب الجلّوة (كتاب حديث الوضع وضعه راهب نصراني على طلب اليزيدية، وهو كتاب سقيم العبارة ضعيف التعبير، تقرب لغته من لغة الموصل العامية، وفيه ألفاظ دخيلة تركية وكردية وفارسية وآرامية وغيرها من الألفاظ التي تسربت إلى لغة الموصل العامية في القرون المتأخرة»(٤٥).

أمّا كتاب مصحف رش، فلليزيدية أقاويل عنه، قال الأستاذ سعيد الديوه جي «أعلمني بعض ثقاتهم، أن طائفة الملالي عندهم يقرأون القرآن الكريم، وأنهم يضعون الشمع على الألفاظ التي ينفرون منها مثل (شيطان، ملعون، لعنة، أعوذ) وبعضهم يضع حبراً أسود على مثل هذه الألفاظ، لذا يسمونه (مصحف رش) أي المصحف الأسود، وهذا يختلف بعض الشيء، عما في أيدي المسلمين من القرآن الكريم، لأنه كتب بعد الشيخ عدي بمائتين سنة»(٤٦).

قصارى القول: إن اليزيدية ليس لديهم كتاب مقدس سوى القرآن الكريم الذي طمسوا فيه بعض الآيات بالحبر الأسود، وأطلقوا على القرآن الكريم كله اسم (مصحف رش). وإما كتاب الجلّوة فلا يوجد سوى كتاب الجلّوة لأرباب الخلّوة للشيخ حسن بن عدي، وهو عالم ومفكر وشاعر، وكتابه يختلف عن هذا الكتاب الذي وضعه الشماس إرميا شامير بهذا الأسلوب والتفكير الذي يتناقض ومعطيات التاريخ والمنطق السليم. مما دفع كثير من الباحثين اليزيديين إلى التنصل منه ومن كتاب مصحف رش، وأظن أن الكتاب الصحيح النسبة إلى الشيخ حسن بن عدي، هو كتاب الجلّوة الذي عثر عليه الملا أنور المائي، وهو نسخة من كتاب الجلّوة المترجم إلى اللغة الكردية، وهذه النسخة تتألف من سبعة أبواب في كل باب سبعة فصول، وكل فصل يتألف من سبعة مقاطع، وكل مقطع يتألف من سبعة أسطر، وقد ترجم الملا أنور الفصول الثلاثة الأولى إلى العربية، ولم يعثر على بقية الفصول الأربعة الباقية بعد وفاته وسألخص هذه الفصول الثلاثة التي

تتفق وحقيقة الدين اليزيدي، نقلاً عن كتاب اليزيدية للأستاذ سعيد الديوجي، وهذا يناقض كتاب الجلوة الذي أظهره الشماس إرميا شامير والمؤلف من خمسة فصول فقط، وعد كلماته (٤٩٠) كلمة.

الباب الأول:

لايوجد في هذا الباب ما ينافي التقاليد الإسلامية، بل اتبع ما جاء في القرآن الكريم من التوحيد، وصفات الله ـ عزّ وجلّ ـ بدأه بقوله إني خلقتكم أجمعين، وأحسنت خلق السموات والأرض، رفعتها بغير عمد، وبدون ركن. وكنت ولم يكن أحد، ولم يكن لي شريك، وسوف أكون ولا يكون معي أحد بلا صاحب، وسأبقى واحد، ثم يبدأ بشرح سورة الاخلاص (قل هو الله أحد).

الباب الثاني:

في هذا الباب نجد لبّ الديانة اليزيديّة وفيه مذهب الحلول ووحدة الوجود واضحة المعالم، خصوصاً في تبرئة إبليس من امتناعه للسجود لآدم، وعلى هذا الباب اطلع الشماس إرميا وصاغه بعباراته السقيمة وأضاف إليها ما ظهرت له من معلومات تاريخية في عصره.

قال تعالى: أنا الرب خلقتكم أجمعين، وأحسنت لكم خلق السموات والأرض، وخلقت الملائكة، وجمعتهم جمعاً، وفصلّت لهم كل شيء، وأوصيت يوماً بأنني أنا الذي استحق الصلاة والخضوع والعبادة لي وحدي، ومضت أربعون ألف سنة ثم خلقت آدم، في أحسن تقويم، وأردت أن امتحن الملائكة، فأمرتهم بالسجود له، ونسوا ما كنت أمرتهم به قبل أربعين ألف عام فسجدوا لآدم إلا (تاووساً) وحده، فإنه تذكرّ أمري فلم يسجد له، فجازيته بأن سميته (ملك تاووس) وجعلته رئيساً لجميع الملائكة، واستاذاً مرشداً لأدم في الجنة، وسلمته مفاتيح اللوح المحفوظ لكي يستمد منه أوامره ونواهيه في ملكوت السموات والأرض، وجعلت من الملائكة ستة معاونين لتاووس ملك وخصصت لكل منهم وظيفة، وهم:

١ـ **ملك دردائيل:** جعلت وظيفته قبض الأرواح، وتفريق الجماعات، وجعلته حاكماً على الملائكة والبشر.

٢ـ **ملك نورائيل:** جعلته حاكماً على الجن، يتقلد سرهم حسبما يشاء، وجعلت له عليهم سلطاناً.

٣ـ **ملك إسرافيل:** فوضت إليه أمر الشمس والقمر والنجوم والأفلاك وتقدير الزمان.

٤ـ **ملك جبرائيل:** جعلته ساعداً (لتاووس ملك) ورسولاً لما يؤمر به.

٥ـ **ملك ميكائيل:** جعلت بيده أمر المطر والثلج والسيطرة وهو يستمد الأوامر من ملك تاووس دائماً.

٦ـ كلك شامنائيل: جعلت بيده الخضروات والنباتات والفصول الأربعة في السنة.

وخلقت من فيض طاووس ملك الشيخ آدي (عدي) ولما كان وقته ظهر في هذه الدنيا وأخذ بيده رئاسة الأنبياء.

ومن فيض نور الملك جبرائيل خُلق زرادشت النبي، وقد ظهر في مكان بالقرب من لالش.

ومن فيض نور إسرافيل خُلق الشيخ شمس الدين الذي طلع كالشمس وانتشر شعاعه ونوره في جميع الدنيا.

ومن فيض نور الملك شامنائيل خلق الشيخ أبو بكر ، وأخذ السبحة واتكأ على عصا الطاعة.

ومن فيض نور الملك دردائيل خلق (سجادين) الذي ظهر في مدة قصيرة في لالش حيث قضى نحبه.

ومن فيض نور الملك نورائيل خلق ناصر الدين، وفي زمانه عمرت الداسن (الجبال الواقعة شرق الموصل) من أدناها إلى أقصاها وعمت الديانة ديارها.

ومن فيض نور الملك ميكائيل خلق فخر الدين وبشّر في دوره بالداسين، وممن آمنو به ظهر (شرف الدين) من داسن العليا.

وخلقت سحابة سوداء ومنها خلقت عالم الجن وجعلت زمامهم بيد الملك نورائيل. يهابونه ويطيعونه، وسترتهم عن أعين البشر، ولو لم يكن خوفهم عظيماً من رؤسائهم الثلاثة وهم (خمو وكمو وعمو) وجعلت هؤلاء الثلاثة أن لا يعصوا أوامر الملك نورائيل. هذه هي سنتي في الخلق. وهذا العالم ملكي اتصرف به كما أشاء، هذه هي سنتي في الخلق. وهذا العالم ملكي أتصرف به كما أشاء، لا يسألني أحدٌ لِمَ هذا؟ وكيف ذاك؟.. وجعلت كل شيء متعلقاً بشيء آخر أخذاً بالأسباب كحلقات السلاسل بعضها فوق بعض.

وأوصيت أن لا تحلفوا كذباً بالشمس والقمر، ولا تحلفوا كذباً بأي نور لأنه من نوري تتدفق الأنوار، وأبارك أهل الأرض مع الاشعاع الأول في كل صباح مرة واحدة.

وفي النوروز سبع مرات، وأنزل رحمتي مع آخر شعاع مساء.

وأوصيت صلوا لنا كل يوم مرتين، واذكروني في أعماق قلوبكم ولا تنسوني في ليلة النوروز سبع مرات، وأقرأو الأدعية بإيمان ويقين وخشوع وخضوع، واذكروني دوماً ودائماً في أعيادكم واشكروني عند المصائب.

وخلقت العرش والزمان في يوم السبت، وزينتها بعقدة ذهبية، وفي يوم الأحد خلقت الملائكة والأفلاك ودائرة الزمان، ونظمتها في حلقة العرش، وفي يوم الاثنين خلفت الشمس والقمر، وركزتهما متقابلين، وصقلتهما بنوري، وفي يوم الثلاثة خلقت زحل والأرض، وملأتها بالحور والبشر، وقدرت لهم السعادة والشقاوة وفي يوم الأربعاء خلقت المريخ ونظمته في سلسلة العرش وخلقت المريخ كالأرض وزحل وفي يوم الخميس خلقت الجبال كإطار للأرض، وفي يوم الجمعة

خلقت السحاب والجون وملائتهما بالأفراح والآلام وأمطرت منهما حسبما أشاء وعلى من أشاء، ثم خلقت العناصر الأربعة وهي (الماء والتراب والنار والهواء) في سنين معلومة وجعلتهما واسطة لبقاء الحياة، خلقت هذه العناصر من العدم إلى الوجود بأمري ومشيئتي.

الباب الثالث:

يقول الرب: كنت ولم يكن أحد ولا شريك لي، وسوف أبقى حياً إلى الأبد، وعلى العالم كله الفناء، وأنزلت عليكم الجلّوة وفصلتها لكم تفصيلاً وفق ما تقتضيه مصالحكم، وجعلت الجلّوة مرشدة للداسنين، فاعلموا بما فيها لكي لا تضلوا يا أهل داسن، وبعثنا من الداسنين ثلاثة أنبياء عظام، وجعلناهم مرشدسن ومصلحين وأسياداً لجميع اليزيديين وهم (واردوس وآدي وشيرأفون) وأوحينا إلى (نوح) أن يضع الفلك ويعبر بها خطر الماء، وأبردنا النار على إبراهيم ونجيناه من فتنة نمرود ونجينا موسى من شر فرعون وهامان وقارون، وجعلناه سيداً على مصر بدون منازع.

ولقد جعلنا هارون خليفة لموسى في فلسطين ويسّرنا له الاستيلاء على عرشها الذهبي وورثناها داود وسليمان من بعده، وأرسلنا محمداً من مكّة وجعلنا سيِّداً ورسولاً وعلمنّاه ما لم يعلم، وفجرنا له ماء الكوثر وزمزم.

وخلقت الروح خفيفة لا يعلم حقيقتها أحد غير الله، فلا يتعب أحد وراءها أبداً.

أيها الإنسان ارجع إلى رشدك واجمع عقلك ثم فكر في نفسك بدقة، تجد نفسك ترجع إلى قطرة ماء، فلا تيأس ولا تفرح بالفقر والغنى، ولا تخف من ضعفك، وكن حذراً من أهواء نفسك وأمسك لسانك مما لا يعنيك، وكن وفياً وأميناً، وقدّم حاجة صاحبك على حاجتك، وأوسع صدرك ولا تغضب سريعاً واترك اللهو كي لاتزل وتخطىء، وافعل ما فيه الصلاح، وأتعب نفسك وراء الإصلاح، واخرج الناس من الظلمات، وارفع مواضع النور.

أيها الإنسان: «قل الحق إن كنت شريفاً ولو كان فيه هلاكك ولا تخشى الناس ولا تخشى إلا الله واجتنب الفساد، بئس أهل الفساد، فكم من مدينة وقرية أصبحت خاوية بالفساد، وكم من أقوام أبيدوا بهاء واجتنب الفاحشة، فالزنى أقبح الأعمال، ولا تتكلم مع الفاحشين، واجتنب الخيانة واحذرها فإنها وصمة عار لا تمحى، واذكر الله صباحاً ومساءً، وتب إلى الله عن الكذب والسرقة، وإياك والنهب والسلب، ولا تخالط السفهاء والأشرار.

أيها الإنسان: فاز من اعتز بنا، وخاب من تولى عن أمرنا، وهلك من لم يطعنا. انصح الناس بالخير، وأقبل نصائح الخير من الناس، ولا تتعب نفسك وراءها ولا تغضب عند سماعها، أنصح الغنى السكران أن يقصد لالش ليغتسل من الذنوب».

وهذا النص الحرفي لكتابي الجلّوة ومصحف رش اللذين هما من تأليف الشماس إرميا شامير السرياني الذي اعتمد على النص السابق في خلق الكتابين المنحولين التاليين.

النص الحرفي لكتاب الجلّوة المنحول:

المقدمة:

١- الموجود قبل كل الخلائق هو ملك طاووس.

٢- وهو الذي أرسل عبطاووس (عبد طاووس) إلى العالم، لكي يُميّز ويفهم ويعلِّم لشعبه الخاص، وينجيه من الضلال والوهم.

٣- وأول ذلك كان بتسليم الكلام شفاهاً ثم بواسطة هذا الكتاب (أي كتاب الجلّوة) الذي لا يجوز لأحد من الخارجين عن الملة أن يقرأه أو يراه.

الفصل الأول:

١- أنا كنت وموجود الآن، وليس لي نهاية، ولي تسلط على الخلائق، بتدبيري مصالح وأمور كل الذين تحت حوزتي.

٢- أنا حاضر، سريعاً للذين يثقون بي ويدعونني عند الحاجة.

٣- لا يخلو عني مكان من الكون.

٤- أنا مشترك بجميع الوقائع التي يُسمِّيها الخارجون (عن الملة) شروراً لأنها ليست مصنوعة حسب مراميهم.

٥- كل زمان له مدبِّر وذلك بشوري، وفي كل جيل يتغيَّر رئيس العالم، والرؤساء كل واحد بدوره ونوبته يكمل وظيفته.

٦- أعطى رخصة للطبيعة المخلوقة.

٧- يندم ويحزن الذي يقاومني، وحتى الآلهة ليس لهم مداخلة بشغلي ومنعي عما قصدته.

٨- الكتب الموجودة بيد الخارجين عن الملة ليست حقيقية وهي محرَّفة، بدّلوا فيها وزاغوا عنها ونسخ كل مرسل منهم شريعة الآخر وأبطلها.

٩- الحق والبطل معلومان عندي حين وقوعهما بالاختيار والتجربة.

١٠- أعطي ميثاقي للذين يتكلون عليَّ وأعطيتهم رأي المدبِّرين الحذّاق لأني وكلّتهم لأوقات معلومة عندي. أذكر أموراً وأحرّم الأشغال اللازمة بحينها.

١١- أرشد وأعلّم الذين يتبعون تعليمي، ويجدون لذّة وفرح بموافقتهم معي.

الفصل الثاني:

١- أنا أكافِئ وأجازي نسل آدم بأنواع أعرفها.

٢ـ بيديّ قوة التسلط على جميع ما في الأرض وما فوقها وتحتها.

٣ـ ما أقبل مصادقة غير العوالم (يعني العلماء).

٤ـ وما أمنع خير الذين هم خاصتي وبطوعي.

٥ـ أسلّم شغلي بيد الذين جربتهم وهم حسب مرادي، وأظهر ببعض الأشكال والأنواع الذين هم أمينين وتحت شوري.

٦ـ أخذ وأعطي، أغني وأفقر، أسعد وأشقي حسب الظروف والأوقات.

٧ـ ليس لأحد الحق، أن يتدخل بشيء من تصرفي.

٨ـ أجلب الأوجاع على الذين يضادوني.

٩ـ لا يموت من هو حسبي كسائر بني آدم الخارجين عن ملتي.

١٠ـ لا أسمح بسكنى هذا العالم الأدنى، أكثر من الزمن الذي حددته، وإذا شئت لأحد، أرسلته تكراراً إلى هذا العالم بتناسخ الأرواح.

الفصل الثالث:

١ـ أرشد بلا كتاب، وأهدي غيباً أحبائي وخواصي، جميع تعاليمي بلا كلوفة.

٢ـ موافقة الحال والزمان أقاصص الذين يخالفون شرائعي بالعوالم الأُخر.

٣ـ بنو آدم لا يعرفون الاحوال المزمعة، لذلك يسقطون في أوقات كثيرة بغلط.

٤ـ حيوانات البر والبحر وطيور السماء جميعاً بيدّي وتحت ضبطي.

٥ـ الخزائن والدفائن تحت الأرض معلومة لديّ وأخلّفها لمن أريد.

٦ـ أظهر معجزاتي وعجائبي للذين يقبلونها ويطلبونها مني في حينها.

٧ـ مخالفة ومضادة الاجانب لي ولأتباعي هي ضرر عليهم، لأنهم لا يدرون الثروة والغنى الذي هو بيدّي، وأنا أختار من يليق لها من نسل آدم.

٨ـ تدبير العوالم وانقلاب الأجيال، وتغيير كل مدبّريهم منظومة مني منذ القديم.

الفصل الرابع:

١ـ حقوقي لا أعطيها لغيري من الآلهة.

٢ـ العناصر الأربعة، والأركان الأربعة والأزمنة، سمحت بها لأجل ضرورات المخلوقات.

٣ـ كتب الاجانب (اليهود والنصارى والمسلمين) اقبلوا منها ما يوافق ويطابق سنتي، وما يخالفها فلا تقبلوه لأنهم غيرّوه.

٤ـ ثلاثة أشياء هي ضدي، وثلاثة أسماء أبغضها.

٥ـ الذين يحفظون أسراري ينالون مواعيدي.

٦ـ الذين يحتملون المصائب بسببي لابدّ أن أكافيهم بأحد العوالم.

٧ـ جميع أتباعي أريدهم أن يتحدّوا برباط واحد لئلا يضادّهم الأجانب.

٨ـ يا أيها الذين اتبعتم وصاياي أنكروا أقوال وتعاليم الأجانب التي ليست من عندي.

٩ـ لا تذكروا اسمي وصفاتي لئلا تذنبون، لأنكم لا تدرون ما يفعل الأجانب.

الفصل الخامس:

١ـ كرِّموا شخصي وصورتي لأنهم يذكرونكم بي، الأمر الذي اهملتموه من سنين.

٢ـ احفظوا سنني وشرائعي، وأطيعوا واصغوا لخدامي ربما يلقنوكم من علم الغيب الذي هو من عندي، واحتفظوا بالعلم الذي يلقنوكم إياه، ولا تظهروه قدّام الاجانب، لأنهم لا يدرون ما هي تعاليمي.

٣ـ لا تعطوا للأجانب من كتبكم لئلا يغيرّوها وأنتم لا تعلمون، واحفظوها غيباً لئلا تتغيرّ عليكم. انتهى الكتاب.

النص الحرفي لمصحف رش (المصحف الأسود) المنحول:

خلق العالم: ـ في البداءة خلق الله الدرّة البيضاء من سرّه العزيز، وخلق طائراً اسمه (انغر) وجعل الدّرة فوق ظهره وسكن عليها أربعين ألف عام.

ـ أول يوم خلق الله فيه العالم يوم الأحد، وخلق ملكاً اسمه (عزازيل) هو طاووس ملك رئيس الجميع.

ـ ويوم الاثنين خلق ملك (دردائيل) وهو شيخ حسن.

ـ وجعل الله (ملك طاووس) رئيساً عليهم.

ـ ثم خلق بعده صورة السبع سماوات والأرض والشمس والقمر.

ـ وخلق فخر الدين الإنسان والحيوان والطير والوحوش، ووضعهم في جيوب الخرّقة، وطلع من الدرّة ومعه ملائكة، فصاح صيحة عظيمة على الدرّة فانفصلت، وصارت أربع قطع ومن بطنها خرج الماء وصار بحراً، وكانت الدرّة مدورة بلا تخلل.

ـ وخلق الله جبرائيل بصورة طائر، وأرسله وبيده زوايا الأرض، ثم خلق مركباً، ونزل بالمركب ألف سنة، وبعدها جاء وسكن لالش، ثم صاح في الدنيا فجمدت، وصارت الدنيا أرضاً وجعل فيها

شمساً وقمراً، وخلق نجوماً من نثريات الدرّة البيضاء، وعلّق في السماء زينة، وخلق أشجاراً مثمرة، ونباتات في الأرض والجبال لأجل زينة الأرض ثم خلق العرش على الفرش.

خلق الإنسان وملة عزايل:

- قال الرب العظيم للملائكة: إني خالق آدم وحواء واجعلهما بشراً ومنه ملة (عزازيل) ملة اليزيديّة، ثم أرسل عدي من أرض الشام وأتى إلى لالش.

- ثم نزل الرّب إلى الجبل الأسود، وخلق ثلاثين ألف ملك، وفرّقهم ثلاث فرق، وبدأوا يعبدونه أربعين ألف سنة، ثم أرسلهم إلى طاووس ملك وصعد بهم إلى السموات.

- ثم نزل الرب في أرض القدس، وأمر جبريل بجلب التراب من أربع زوايا الدنيا فجاء بتراب وهواء ونار وماء، فخلق من كل هذا آدم الأول، وجعل فيه روحاً من قدرته، وأمر جبريل أن يدخل آدم إلى الفردوس، ويأكل من ثمر الشجر أمّا من الحنطة فلا يأكل.

- وبعد مئة سنة، قال طاووس ملك لله: كيف يكثر بنو آدم، وأين يسكن نسله؟ فقال له الله: الأمر والتدبير سلمته بيدك، فجاء طاووس ملك وقال لآدم: أأكلت حنطة؟ قال: لا، لأن الله نهاني، قال طاووس ملك: كل منها يصير لك أحسن، وبعدما أكل، انتفخ بطنه في الحال، فأخرجه طاووس ملك من الجنة وتركه وصعد إلى السماء، فتضايق آدم من بطنه لأنه ما كان له مخرج. فأرسل الله طائراً فجاء ونقره وفتح له (دبراً) فاستراح.

- وغاب جبرائيل عن آدم مائة سنة، فحزن وبكى مائة سنة، حيئنذ أمر الله جبرائيل أن يخلق حواء من تحت إبط آدم الأيسر.

- ثم نزل ملك طاووس إلى الأرض، لأجل طائفتنا المخلوقة، وأقام لنا ملوكاً ما عدا ملوك الآثوريين القدماء، نسروخ وهو ناصر الدين. وكاموش وهو الملك فخر الدين. وارطيموس وهو ملك شمس الدين. وبعد ذلك صار لنا ملكان شابور الأول وشابور الثاني. ودام ملكهما مائة وخمسون سنة ومن نسلهما قام أمراؤنا إلى الآن. وبغضنا لأربع ملوك [من بعدهما].

المحرمات على ملة عزازيل:

- حُرِّم علينا الخس لأنه على اسم نبيتنا الخاسيّة، واللوبياء، والصبغ الأزرق (النيلة) ولا نأكل السمك لأجل احترامنا ليونان النبي، والغزال لأنه غنم أحد أنبيائنا.

أمّا الشيخ (عدي) وتلامذته لا يأكلون لحم الديك احتراماً لطاووس ملك. وطاووس ملك هو واحد من الآلهة السبعة المذكورة وإن صورته تمثال الديك، والشيخ وتلاميذه لا يأكلون القرع. وحرام علينا البول وقوفاً، ولبس الثياب قعوداً، والاستخلاء في الأدب خانه (الطهّارة) والغسل في

الحمام، ولا يجوز أن تلفظ كلمة شيطان لأنه اسم إلهنا، ولا كل اسم يشابه ذلك، مثل قبطان وشط وشر، ولا لفظة ملعون، ولعنة ونعل وما أشبه.

ملة عزازيل وبقية الملل:

- قبل مجيء المسيح (عيسى) إلى هذا العالم، كانت ديانتنا (تسمى ثنوية) واليهود والنصارى والإسلام ضادوا ديانتنا والعجم أيضاً، وكان من ملوكنا (آحاب) فأمر كلاً من كان منّا أن يسميّه باسم خاص به، فسموه الإله آحاب أو بلعزبوب والآن يسمونه عندنا (بيربوب). وكان لنا ملك في بابل اسمه بختنصر، وفي العجم (أحشويرش) وفي القسطنطينية (اغريقالوس).

خلق الكون من آلهة متعددة:

- إنه قبل كون السماء والأرض، كان الله موجوداً على البحار، وكان قد صنع له ركباً وكان يسير به في بيوتات البحار متنزهاً في ذاته، ثم خلق الله منه درّة وحكم عليها أربعين سنة، ومن بعد ذلك غضب على الدرّة ورفسها، فيا للعجب إذ صار من ضجيجها الجبال، ومن عجيجها التلال، ومن دخانها السماوات، ثم صعد الله في السموات وجمدّها وثبتّها بغير عواميد، ثم قفل راجعاً إلى الأرض، ثم أخذ قلماً بيده، وبدأ في كتابة الخليقة كلها، ثم خلق ستة آلهة من ذاته ومن نوره، وخلقتهم صارت كما إذا أوقد أنسان سراجاً من سراج آخر.

- قال الإله الاول للثاني، أنا خلقت السماء فاصعد أنت إلى السماء واخلق شيئاً فصعد وصار شمساً، وقال للآخر قم أنت: فصعد وصار قمراً، وكذلك الإله الرابع خلق الفلك والخامس صار نجم الصبح، والسادس خلق الفراغ يعني الجو (تمّ مصحف رش) وهذا ملحقه:

خصومة آدم وحواء:

تخاصم آدم وحواء على تناسل الجنس البشري، وكل ادعى النسل له، وبعد ذلك ألقى كل منهما شهوته بجرة وسدّ فمها بختمه، وصبروا تسعة أشهر، وبعد ذلك فتحوها فنظروا وإذا بجرة آدم زوج صبيان، ولما فتحت حواء جرتها وإذا فيها دود معفنة مكروهة الرائحة، وانبع الله لآدم ثديين وارضع الصبيان الذين خرجوا من جرته، لأجل هذا صار للرجل ثدي. وبعد هذا عرف آدم حواء وضاجعها، فولدت ولدين ذكراً وأنثى، وهم الذين منهم (نسل اليهود والنصارى والإسلام وغير ذلك من الطوايف)، أمّا شيث ونوح وآنوش أناس أبرار هم آباؤنا الأولون ومن آدم تناسلوا.

طوفان نوح:

ـ اعلموا أن الطوفان الذي صار وقت نوح، تلاه طوفان آخر بهذا العالم، وأمتنا اليزيدية تناسلت من (نعمي) لوجه الملك المكرّم للسلام الذي يدعى عندنا (ملك ميران).

وبقية الطوائف والملل تناسلوا من حام الذي أهان أبيه. ومن الطوفان إلى الآن سبعة آلاف سنة، وبكل سنة ينزل إلهاً واحداً من الآلهة السبعة، يضع لنا آيات وقوانين وشرائع ثم يصعد إلى مكانه، وجميع المكانات المقدسة هي عندنا وفي هذا الزمان نزل الله عندنا أكثر من الزمان الماضي، وثبت لنا الأولياء وكان يكلمنا بلساننا الكردي.

مراجع الفصل الثاني: التحول للمذهب الحلولي:

١) اليزيديّة ومنشأ نحلتهم ص٣٧ أحمد تيمور باشا المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٢هـ.

٢) الفتوحات المكيّة جـ٢ ص٣٩٦ ابن عربي تحقيق د. عثمان يحيى الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٢م.

٣) المصدرالسابق جـ٢ ص٦٤٢ ـ ٦٤٣.

٤) في التصوف الإسلامي ص٨٥ نيكلسون ترجمة د. أبو العلا عفيفي لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٩م.

٥) الفتوحات المكيّة لابن عربي جـ٣ ص٥٧٣.

٦) الديوان الأكبر لابن عربي ص٢١٣ طباعة بولاق القاهرة ١٢٧١هـ.

٧) ديوان ترجمان الأشواق لابن عربي ص١٠ ـ١١ طباعة دار صادر بيروت ١٩٦٦م.

٨) البداية والنهاية جـ١٢ ص٢٤٣ ابن كثير دار المعارف بيروت ١٩٧٧.

٩) اليزيدية بقايا دين قديم ص١٢٥ جورج حبيب دار البتراء دمشق ١٩٩٦.

١٠) المصدر السابق ص١١٠.

١١) مختصر تاريخ الدول ص٢٨٣ ابن العبري تحقيق الأب صالحاني دار المسرة بيروت ١٩٨٦م.

١٢) المصدر السابق ص٢٨٣.

١٣) ذخيرة الأذهان جـ٢ ص٦ القس بطرس نصري الكلداني طبع الموصل ١٩١٣.

١٤) هرمس الحكيم بين الالوهية والنبوة ص١٠٢ نشر أحمد غسان سبانو دار قتيبة دمشق ١٩٨٢.

١٥) اليزيدية ومنشأ نحلتهم ص٢٧.

١٦) المصدر السابق ص٥٨ ـ ٥٩.

١٧) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٠٥ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة القاهرة ١٩٦٤.

١٨) المصدر السابق ص٢٠٧.

١٩) الآثار الباقية ص٣٣١ البيروني تحقيق ادوار سخاو لايبزيغ ١٩٢٣م.

٢٠) اليزيدية ومنشأ نحلتهم ص٢٨.

٢١) الازداهيون اليزيديون ص١٥ درويش حسو، بون ألمانيا ١٩٩٢.
٢٢) اليزيدية واليزيديون ص٣٢ د. خلف الجراد دار الحوار اللاذقية ١٩٩٥.
٢٣) دراسات في ميثولوجيا الديانة الايزيدية ص٩-١٠ هوشنك بروكا ألمانيا ١٩٩٥.
٢٤) اليزيدية ومنشأ نحلتهم ص٢٦.
٢٥) قضية الفلسفة ص٥٦٩ جمع وتحرير كامل الخطيب دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٨.
٢٦) أوستن لايارد بالانكليزية (مصدر سابق جـ٢ ص٣٠٣) Nineva and its Remains vol II P 303.
٢٧) ذخيرة الأذهان جـ٢ ص٢٠.
٢٨) الديوان الشرقي للمؤلف الغربي ص٤٢ ــ ٤٣ جيته ترجمة عبد الرحمن بدوي مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٤.
٢٩) منبعا الأخلاق والدين ص٢٥٥ ـ ٢٥٦ برجسون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم المطبعة المصرية العامة ـ القاهرة ١٩٧٠.
٣٠) اليزيديون والديانة اليزيدية ص٢٢ شاكر فتاح (مصدر سابق).
٣١) اليزيدية بقايا دين قديم ص٧٦ جورج حبيب.
٣٢) اليزيدية ومنشأ نحلتهم ص٢٤.
٣٣) اليزيدية واليزيديون ص٤٤.
٣٤) أوستن لايارد (بالانكليزية) جـ١ ص٢٩٧.
٣٥) المصدر السابق جـ١ ص٣٠٦.
٣٦) اليزيديون والديانة اليزيدية ص٩٠ شاكر فتاح.
٣٧) مجلة لغة العرب مجلد/٧ ص٤٤٩ بحث عن اليزيدية يعقوب سركيس بغداد ١٩٢٩م.
٣٨) أوستن لايارد جـ١ ص٣٠٦.
٣٩) اليزيدية ص٢٢٨ سعيد الديوجي بغداد ١٩٧٣.
٤٠) المصدر السابق ص٢٢٩.
٤١) رحلات إلى العراق جـ١ ص٣٢٢ سروايس بدج ترجمة فؤاد جميل دار الزمان بغداد ١٩٦٦.
٤٢) اليزيديون، واقعهم وتاريخهم ومعتقداتهم ص١٩٥، د. محمد التونجي المكتبة الثقافية بيروت ١٩٩٩.
٤٣) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص١٨٧ د. سامي سعيد الأحمد بغداد ١٩٧١.
٤٤) Oswal H. Parry. Sixmonths In Syrian Monstry. p. 380 London 1890.
٤٥) اليزيدية ص١٤٣ سعيد الديوه جي.
٤٦) المصدر السابق ص١٤٤.

الفصل الثالث

الهجرة للمذهب اليزيدي

- ما هو أصل الديانة اليزيدية؟
- تأثير الأكراد في الديانة اليزيدية،
- الأكراد، وديانة أهل الحق،
- التركيب الاجتماعي للطبقات عند اليزيدية،

أصل الديانة اليزيدية:

اختلف الباحثون في أصول الديانة اليزيدية، وفي ماهيّة تلك الأصول، وانقسموا إلى ثلاثة أصناف:

ـ المؤرخون والباحثون العرب، اعتمدوا على التدوين التاريخي، معتبرين أن اليزيديّة ناس أحياء لهم خصوصيتهم، يعيشون في أعماق التاريخ.

ـ والباحثون الأكراد من السنة واليزيديّة، أهملوا التأريخ ولجأوا إلى تفسيراتهم الأسطوريّة، ولهم أسبابهم وأغراضهم الخاصة بهم.

والباحثون من المستشرقين، افترضوا فرضيات كان فيها الصواب والخطأ متعادلان، وفروضهم تدور حول أن الديانة اليزيديّة هي ديانة زرادشتية أو مانوية.

المؤرخون والباحثون العرب:

من أوائل الباحثين الذين أرّخوا للديانة اليزيدية العلامة أحمد تيمور باشا الذي كتب كتابه «اليزيديّة ومنشأ نحلتهم» عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٢٢م، قال عنهم: «اليزيديّة من أغرب طوائف المبتدعة، بدعة يدينون بعبادة الشيطان، ويقولون بالتناسخ ولهم في كتم نحلتهم والاحتفاظ بأسرارهم مبالغة شديدة، طوت أمرهم عن الناس زمناً، ثم أتيح لبعض من خالطهم من رواد الإفرنج وغيرهم كشف القناع عن كثير من دخائلهم، ولكن وقع في عباراتهم من الاختلاف ما لا بد من وقوعه في كل أمر يحاط بالخفاء والكتمان(١)، وإنهم لم يكونوا في مبدأ أمرهم سوى طائفة من الصوفيّة لهم طريق خاص وقام فيهم رؤساء توسعوا في مذهبهم وأدخلوا فيه ما اقتضته مصلحتهم وما زالوا يتعصبون فيه ويزيدون قرناً بعد قرن حتى خرجوا من الإسلام جملة»(٢).

قد أشار العلامة أحمد تيمور إلى أهم مصدرين أخذ عنهما في تأريخ هذه الديانة:

المصدر الأول: الرسالة العدويّة لشيخ الإسلام أحمد بن تيميّة (المتوفى ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) والتي جاء فيها أنهم في زمن الشيخ حسن بن عدي زادوا أشياء باطلة نظماً ونثراً، وغلوا في الشيخ عدي ويزيد بأشياء لما كان عليه الشيخ عدي الكبير ـ قدس الله روحه ـ فإن طريقته كانت سليمة، ولم يكن فيها من هذه البدع، وابتلوا بروافض عادوهم وقتلوا الشيخ حسن وجرت فتن لا يحبها الله

ولا رسوله، وقد حدد ابن تيمية معالم المرحلة الثانية في تطور الطريقة العدوية حين انتقالها من المذهب السني إلى الطريقة الصوفية الحلوليّة، وفيها تفرغ الشيخ حسن بن عدي إلى كتابه الجلّوة لأرباب الخلّوة والذي قال فيه:

وصرت فرداً بلا ثان أقوم به   وأصبح الكل والأكوان تفخر بي
وكان معناي معناها وصورتها   كصورتي وهي تدعى ابنتي وأبي

والمصدر الثاني: كتاب علاء الدين القونوّي المعروف بحسن التصرّف وشرح التعرّف لمذهب أهل التصوّف للكلاباذي، وفيه بيان مذهب الطائفة اليزيدية قال فيه: «اعلم أنهم متفقون على أباطيل وأقاويل كلها مما يوجب الكفر والضلال، منها أنهم ينكرون القرآن والشرع ويزعمون أنه كذب وأنه مثل هذيانات وأقوال الشيخ فخر (فخر الدين محمد بن موسى بن محمد بن الشيخ حسن بن عدي) التي يجب التمسك بها دون غيرها، وإن وقعت الكتب الإسلامية في أيديهم يلقونها في القاذورات بل يمزقونها ويتغوّطون ويبولون عليها، ويحلّون الزنا إذا جرى بينهم بالتراضي، ويفضّلون الشيخ عدياً على الرسول بمراتب، ويمكنّون شيوخهم من زوجاتهم ومحارمهم ويستحلون ذلك ويفتقدونه، ويصرحون بأن لا فائدة في الصلاة ولا بأس في تركها وهي ليست واجبة بل الواجب طهارة القلب وصفاؤه، وحجهم إلى جبل لالش وهو أفضل من الكعبة عندهم.

وإنهم ثلاث فرق:

- إحداها غلاتهم الذين قالوا الشيخ عدي بن مسافر هو الله نفسه.

- والثانية الذين يقولون إنه مساهم في الألوهية فحكم السماء بيد الله وحكم الأرض بيد الشيخ عدي بن مسافر.

- والثالثة الذين يقولون إن الشيخ عدي بن مسافر ليس الله تعالى ولا شريكاً له ولكنه عند الله تعالى بمنزلة الوزير الكبير لا يصدر من الله تعالى أمر من الأمور إلا برأيه وبمشورته(٣).

نلاحظ أنهم لا يتهمون بعبادة الشيطان ولا بحمل الأصنام (تماثيل طاووس ملك) ولا بالتناسخ، وإنما اتهموا بالحلول والظهورات الإلهية في رؤسائهم.

وقال المحامي عباس العزاوي في كتابه تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم: «ونتاج ما حققته هو أن اليزيديين مسلمون حقيقيون، يعتقدون الإمامة في يزيد كونه على حق»(٤).

وإلى مثل هذا الرأي ذهب الباحث السيد عبد الرزاق الحسني في كتابه «اليزيديون في حاضرهم وماضيهم» الذي اعتبر أن الأكراد العدويّة عادوا إلى ما كانوا عليه من عاداتهم القديمة ومن ثم عادوا كل الفقهاء من جراء حرق قبر الشيخ عدي وإخراج عظامه على مرأى من (الصحبتية) وقالوا لهم انظروا عظام من تدّعون ألوهيته؟(٥) وكان ذلك في سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٥م).

وكانت هذه الحادثة وأمثالها من أسباب انقطاع اليزيدية عن الإسلام، وصار الوعظ والإرشاد باللغة الكردية حيث لا ضرورة لقراءة كتب الفقه باللغة العربية، بل وحرموا القراءة والكتابة معتمدين على تراثهم الشفوي الذي يسمونه (علم الصدر) لأن العلم الحقيقي ما ادخرته الصدور لا ما حوته السطور. ومنذ أن كتب الشيخ فخر الدين محمد كتابه (مصحف رش) لم يعد لليزيدية صلة بالإسلام السني، وصاروا يلجأون إلى التأويلات لتبرير تعاليمهم.

أما الأستاذ جورج حبيب فله رأي آخر في كتابه (اليزيدية بقايا دين قديم) قال: إن الديانة اليزيدية هي مزيج من الزرادشتيّة والمانويّة، وأرجع أسطورة طاووس ملك إلى ملك النور (ملكاد نهورا) إله المانويّة، والقرين المرافق له إله الظلمة، الذي يساعده ولا يعاكسه، ولكن المؤرخ الكردي شاكر فتاح لا يقر له بذلك لأن الديانة المانويّة هي ديانة تؤمن بإلهي الخير والشر وإلهة قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم بينما الديانة الزرادشتية عبادة الله الواحد(٦).

الباحثون الأكراد:

الأكراد أمة لها تراثها وتقاليدها، ولسانها الخاص بها، وهم متعددوا الديانات مسلمون ومسيحيون ويزيديون، ولكنهم يجمعون على أن الديانة اليزيدية هي حصيلة تراث الأكراد الديني ويختلفون في نسبة هذا الدين.

فالباحث اليزيدي **هوشنك بروكا**، أعلن عن منهجه في دراسته للديانة اليزيدية أنه يعتمد على المثيلوجيا الايزيدية المرتكزة على التراث الشفاهي (علم الصدر) وهو بالرغم من إقراره بالدور الكبير الذي لعبه الشيخ عدي بن مسافر في مسيرة هذه الديانة، باعتباره واحداً من مبشريها وحاملاً لرايتها في مرحلة أساسية من مراحل تطورها فإن الإيزيدية لم تظهر بظهور هذا الشيخ الزاهد، فهي سابقة عليه بل هي تعود إلى ما قبل الميلاد بقرون عديدة»(٧). ويحدد هذا القدم معتمداً على نص سومري ترجمه الباحث اليزيدي لوفريه نبو الذي قال: «إن كلمة (إيزيدي) ذكرت في الألواح السومرية وهي تعني (الروح الخيِّرة) والناس غير المثلوثين الذين يمشون على الطريق القويم، وحسب اعتقاده فإن تاريخ الإيزيدية يرجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد وهم من بقايا ديانة كردية من منطقة الحضارات الشرقية»(٨).

تعليقي على النص السابق، إن الباحث السيد لوفريه نبو هو صديق لي وقد ناقشته مرة في هذا الأمر في صيف ١٩٨٨ في منزلي، ولم يجزم لي بهذا ولم يذكر لي أن الشعب الكردي يعود إلى العهد السومري لأن هذا الرأي هو تزوير خطير في التاريخ وقد نسبه الباحث هوشنك إلى الدكتور خليل جندي في مقاله «نحو معرفة حقيقة الديانة اليزيدية» الحلقة الأولى ص٤ من مجلة (سه هلدان) في عدديها ٤ و٥ عام ١٩٩٣. والله أعلم.

أما الباحث الكردي المسلم السنّي شاكر فتاح في كتابه اليزيديون والديانة اليزيدية، فكان أقل تطرفاً ممن سبقه قال: «إن اليزيدية هم على حق عندما يقولون، إن أصل ديانتنا هي الزرادشتية، وإننا نعبد الله ولسنا عبدة الشيطان.. وإن ما هو ضروري الآن غربلة الدين اليزيدي الحالي لإزالة كل الأفكار والمعتقدات الغريبة العالقة به ليعود إلى الدين الزرادشتي الطاهر المقدس فقط إلى سابق عهده، عندئذ لا يمكن لأحد انتقاده أو الطعن به»(٩) والشوائب والمعتقدات الغريبة هي رواسب الطريقة العدوية الإسلامية، ولو زالت تلك الشوائب لعاد «الدين الزرادشتي الطاهر المقدس فقط».

وكذلك الباحث اليزيدي درويش حسو يرجع الديانة اليزيدية إلى اعتقاد الشعوب الآرية في المنطقة والذين يعتقدون «بالإله الواحد» ويسمون أنفسهم بالإزداهيين، وانقسمت الديانة الزرادشتية إلى شطرين، الشطر الشرقي الزرادشتي والشطر الغربي اليزداني أو الإزداهيين(١٠).

أصل التسمية للديانة اليزيدية:

يقول الكاتب الكردي إحسان نوري «الإيزيديون طائفة من الأكراد، وهم أكثر الطوائف الكردية تعلقاً بدينهم القديم، ولقد حافظوا عليه واشتهروا باسم (إيزيدي) والأكراد يطلقون عليهم (إيزيدي) إلا أن الشعوب الأخرى المجاورة لهم حرفوا التسمية إلى (يزيدي)(١١). وفي اللغة الكردية يطلق على الله كلمتا (إيزد) و(يزدان)، ومنه فإن اسم اليزيدية لا تعود إلى اسم (يزيد بن معاوية) البتة.

بينما يذهب الباحث اليزيدي درويش حسو إلى أن (اليزيديين كانوا على شريعتهم الإزداهية وبعد ظهور الخليفة يزيد بن معاوية في دمشق، اتصل به أمراء الإزداهيين لكونه رجلاً ذا أفكار حرة، ولم يكن خليفة من الخلفاء المؤمنين، وقد طلب منهم يزيد المساعدة والعون في مقابل الحرية الدينية لهم، فقدموا له المساعدة العسكرية، وبمساعدتهم استطاع يزيد أن يحقق الانتصار العسكري على أبناء علي بن أبي طالب (وقتل الحسين) ومنذ ذلك الوقت يسمى الإزداهيون باللغة العربية باليزيديين، وبأتباع يزيد بن معاوية»(١٢).

في هذا النص جهل مطلق بالتاريخ العربي الإسلامي، فيزيد انتصر على الحسين في معركة مشهورة (مذبحة كربلاء) وإننا نعرف كل من اشترك فيها خصوصاً من القادة ولا ذكر للأكراد بينهم. وعندما يتعرض اليزيدية للخليفة يزيد بن معاوية يمر تاريخه بمرحلتين:

المرحلة العدوية: على إثر مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما، أجمع الناس على بغضه وقد غالت الشيعة في ذلك الكره، وذكروا استهتاره بالدين وإكثاره من الشراب ومجالس الفسق وأجازوا لعنه، ولكن الشيخ عدي بن مسافر خالفهم وقال: «إن يزيد بن معاوية رضي الله عنه إمام وابن إمام وليّ الخلافة وجاهد في سبيل الله ونقل عنه العلم الشريف وإنه بريء مما طعن فيه الروافض من أجل قتل الحسين رضي الله عنه وغير ذلك والطاعن فيه منبوذ وملعون»، وفي زمن الشيخ حسن بن عدي (الثاني) قال ابن تيمية «بلغوا به مرتبة النبوة واعتقدوا

أنه كان من الأنبياء ويقولون من وقف في يزيد وقفه الله على نار جهنم، ويروون عن الشيخ حسن بن عدي أنه كان ولياً وهذه مرتبة عندهم أعلى من النبوة، وفي زمن الشيخ فخر الدين محمد، أصبح يزيد أحد الآلهة السبعة، وزعموا أن معاوية أبوه كان خادماً لنبي الإسماعيليين أي نبيّنا محمد (ص)، وحلق رأسه يوماً، فجرحه وأكبّ معاوية على الدم فلحسه بلسانه لئلا يسيل على الأرض، فقال له النبي: أخطأت وستكون ذريتك أعداء لأمتي فعاهده معاوية على أن لا يتزوج أبداً ولم يكن له بنون من قبل، ولكن الله سلط عليه عقارب لدغته في وجهه، وجزم الأطباء بموته إن لم يتزوج فتزوج امرأة في الثمانين ليأمن حملها، فلما أصبحت إذ هي بنت خمس وعشرين سنة فحملت وولدت يزيد أحد آلهتهم السبعة»(١٣).

النص السابق هو من نتاج الثقافة اليزيدية وهو أقرب إلى الخرافة منه إلى التاريخ العربي الإسلامي، الذي ينص على أن شيوخ اليزيدية يعودون بنسبهم إلى مروان بن الحكم الأموي، وليس إلى يزيد بن معاوية.

والمرحلة اليزيدية:

في المرحلة العدوية كان يزيد بمرحلة النبوة، وفي هذه المرحلة، عند اليزيدية صار أحد الآلهة السبعة، لهذا أطلق عليهم اسم اليزيدية، ولكن الباحث اليزيدي (هوشنك بروكا) يحمّل المسلمين وزر هذه التسمية يقول: «إن تسمية الإيزيدية لا تخرج من إطار النظرة الإسلامية الضيقة، التي تجهل الحقائق التاريخية والأثنولوجية، ولا تذهب بالتاريخ إلى ما قبل الإسلام، لتوهمنا بأن كل التاريخ هو الإسلام، مما يحول دون الوصول إلى النواة الحقيقية لأصل الديانة الإيزيدية»(١٤)، وفي هذا القول منتهى التحامل على المسلمين والإسلام، والصواب أن اليزيدية هم الجهلة بالتاريخ لتحريمهم القراءة والكتابة على أتباعهم.

ذكر أبو الريحان البيروني (المتوفي ٤٤٢هـ/ ١٠٤٢م) في كتابه الآثار الباقية عن الأمم الخالية، «أنه كان بديار الإسلام فرقة بسمرقند معروفة بالصابئة، من أتباع ماني(١٥). وفي أيام المنصور ظهر منهم رجل حدد المهور بأربعمائة درهم وأمر أتباعه بتعمير الطرق وإصلاح القناطر من ريع أموالهم وكسب أعمالهم، قتله أبو مسلم الخرساني، ولكن ظل من أتباعه قوم يدعون (بالبايزيدية) من أتباع بهاء يزيد بن ماه فروذين (من نسل ملوك ساسان) وكانوا يعادون المجوس(١٦) وكان منهم في نواحي خوارزم أقوام يقال لهم المبيضة مذاهبهم تقارب الزندقة (المانوية)(١٧) شاهدهم الرحالة محمد بن أحمد المقدسي عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م في مدينة هيطل ومن تعاليمهم القول بمبدأين للعالم:

أحدهما، إله الخير (إله النور) ملك الجنان والسموات العُلى، وله صفات أزلية هي الحب والإيمان والوفاء والمروءة والحكمة.

والآخر، إله الظلمة (العظيم الأول) حاكم الأرض ومن عليها.

فاليزيدية فرقة قديمة وهي من الفرق المانويّة، التي انتشرت بين الفرس والأكراد والتركمان، وعنها ظهرت الديانة اليزيدية بين الأكراد وديانة أهل الحق بين التركمان، فبينما تميل الأولى إلى الأمويين، تميل الثانية إلى العلويين.

قال عبد الكريم السمعاني (المتوفى ٥٦٢هـ/ ١١٦٣م): «لقيت جماعة كثيرة بالطرق في جبال حلوان ونواحيها من اليزيدية وهم يتزهدون في القرى التي في تلك الجبال، ويأكلون الحال (طعام عند الصوفية يقرأون عليه قبل أكله) وقل ما يخالطون الناس، ويعتقدون الإمامة في يزيد بن معاوية كونه على الحق. ورأيت جماعة منهم في جامع المرج، وسمعت أن الأديب الحسن بن بندار البروجرودي وكان فاضلاً سفاراً، نزل عليهم بسنجار، ودخل مسجداً لهم، فسأله أحدهم: ما قولك في يزيد؟ فقال: إيش أقول بمن ذكره الله في كتابه بعدة مواضع حيث قال: يزيد في الحق ما يشاء، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى، قال: فأكرموني وقدّموا إلي الطعام الكثير»(١٨).

قصارى القول:

إن فرقة اليزيدية كانت موجودة قبل مجيء الشيخ عدي بن مسافر إلى جبال لالش، وهم فرقة كردية مسلمة متأثرة بالديانة المانويّة. ذكرهم ابن العبري في حوادث سنة ٤٥٦هـ ١٠٦٣ قال «حدّث بعض الصيادين من الأكراد ببغداد أنهم لمّا كانوا في البرية يقتنصون، شاهدوا خياماً سواداء وسمعوا أصوات عويل ونواح وصوتاً يقول (اليوم مات بعلزبوب) رئيس الشياطين فسمعت نساءهم ببغداد وهرولن إلى المقابر ومكثن ثلاثة أيام ينحن ويمزقن ثيابهن وانتشر هذا الخبر في أرض سنجار والموصل وأرمينية(١٩).

تأثير الأكراد في الديانة اليزيدية:

اليزيدية طائفة من الأكراد يسكن أكثرهم في جهات الموصل وسنجار ومنهم أقوام يسكنون في نواحي الجزيرة وحلب وولاية أورفا في تركية، والأكراد شعب آري قديم حافظوا على استمرار وجودهم منذ الألف الثاني قبل الميلاد في تلك المناطق. وكانوا يعيشون مع الآشوريين والآراميين فتكونت لهم صفات ثقافية ولغوية ونفسية ميّزتهم عن التشكيلات السلالية الأخرى. وللأكراد شعور قومي أشد من شعورهم نحو الأخوة المبنيّة على الدين، وقد امتازوا بالصدق والإخلاص والاحترام اللامتناهي للمرأة والثأر، والميل للنهب والسلب، وهم محبّون للضيف، وتمتاز حياتهم القبلية بالصفات التالية:

ـ التفافهم حول الزعيم (الآغا) وقد يكون غريباً عنهم، وهم يذكرون أن كثيراً من الأسر الكردية النبيلة ذات أصل عربي ولكن كان لسانها كردياً، فعائلة (البدرخان) نسبها كتاب شرف نامة

(عام ١٥٩٩) إلى عبد العزيز بن سليمان بن خالد بن الوليد المخزومي(٢٠) وعشيرة الشيخان عربية تعود إلى الحسين بن علي بن أبي طالب(٢١).

وطبقاً لما ورد في كتاب الشرف نامة للبدليسي، أن أشراف الأكراد من أصول يزيديّة وظلوا يتمسكون بعاداتهم وديانتهم القديمة حتى بعد إسلامهم، وربما تطابق اسم الشيخ عدي بن مسافر مع اسم (آدي) أحد حواري ماني، وأدعيتهم كانت بالعربية، وهي اليوم مزيج من الكردية والعربية ويعتقدون أنهم جاءوا من أسفل نهر الفرات من منطقة البصرة ثم هاجروا إلى ديرة لالش وسنجار وعندما نشر العالم الإنكليزي (باري) كتاب الجلّوة عام ١٨٩٥ نسبه إلى الشيخ حسن البصري، وكتابهم الثاني (مصحف رش) أي المصحف الأسود ينسبونه إلى الشيخ شمس الدين محمد بن موسى البعشيقي (المتوفى ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢) وفي هذا الكتاب كشف الشيخ شمس الدين عن اسم الكائن الأعلى وكان سراً لا يجهر به (الشيطان) ومنع أتباعه من التلفظ به، ويدعون أبناء طائفتهم بالأخوة وبقية المسلمين أكراداً وعرباً وفرساً بالأصحاب.

الاكراد وديانة أهل الحق:

المؤسس لهذا المذهب هو السلطان إسحق التركماني، ومرقده في الشطر الأيمن لنهر ديالي بمنطقة (هوراماني لوهوم) ومن رجالهم المقدسين (بابا يادكار) ولهم احتفالات ليلية على الشموع خصوصاً في ليلة النصف من شعبان لذا يسميهم الأكراد المسلمون (شمع كشان) أي حملة الشموع(٢٢).

ومن تقاليدهم المؤآخاة بين أتباعهم، واعتقادهم بتناسخ الأرواح لذا تراهم يقولون «إن الميت كالوزة التي تختفي بالماء لتذهب إلى مكان آخر ولتظهر مرة أخرى». ولهم كتاب مقدس يسمونه (سارانجام) مكتوب بلهجة الكوران الكردية.

وقد ذكرهم ابن العبري في تاريخه (مختصر تاريخ الدول) في حوادث سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) قال: ظهر رجل تركماني ادعى النبوة وسمى نفسه (بابا) فاستغوى جماعة من العامة، وكان يتزيا بزي المشايخ يدعى (إسحق) وافى بلدة سميساط على نهر الفرات وأظهر دعوة (النبي بابا) فاتبعه خلق كثير من التركمان والأكراد، وبلغ عدد فرسانه ستة آلاف فارس غير الرجالة المشاة فحاربوا من يخالفهم ولا يقول (لا إله إلا الله، بابا رسول الله) فقتلوا خلقاً من النصارى والمسلمين من أهل سميساط وبلد وملطيّة وحصن منصور، وكانوا يهزمون من لقيهم من العسكر فأنفذ إليهم السلطان غياث جيشاً فيه جماعة من الفرنجة فحاربوهم وكسروهم واسروا الشيخين بابا النبي والشيخ إسحق، فضربت أعناقهم، وكفوا الناس شرهم» تاريخ مختصر الدول (ص٢٥١).

وظل أتباعهم إلى اليوم وهم يؤمنون أن الملاك جبريل ظهر للرسول محمد (ص) في صورة دحية الكلبي وفي هذا إمكان لظهور الروحاني في ثوب الجسماني وعليه فقد ظهر الباري سبحانه في صورة الإمام علي تفضلاً منه على الإنسانية(٢٣) وقال مينورسكي «القضية المحورية في مذهبهم هو أن الألوهية تظهر سبع مرات في العالم وقد ظهرت مرة في علي بن أبي طالب، ويظهر مع كل إله أربع ملائكة لهم الصفات العامة للباري سبحانه»(٢٤). وهذا الاعتقاد انتقل إلى اليزيدية ولكن الظهور الإلهي كان في يزيد بن معاوية، من هنا كان العداء الشديد بين الطائفتين.

التركيب الاجتماعي للطبقات عند اليزيدية:

النظام هو الأساس الذي به تحافظ الديانات على وجودها، وقد ابتكر اليزيديون نظاماً اجتماعياً ثابتاً مغلقاً، به استمر وجودهم إلى الآن في الرتب التالية، الأمير والبير والشيوخ والقوالون والفقراء، وهذه الرتب وراثية مما لا يوجد له مثيل في المنطقة العربية أو الإسلامية وإنما تعود إلى الطبقات الموروثة من التراث المانوي وهي تعم الرجال والنساء، قال لايارد «كما تنحدر هذه الوراثة إلى النساء بحيث تنال نفس الاعتبار والاحترام الحاصل للرجال في نفس المرتبة»(٢٥).

طبقة الأمراء:

يعتقد الأمراء أنهم سليلو البيت الأموي، ومن نسل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وفي هذا الأمر اختلاف عند الباحثين، الذين لا يقرون لهم بهذا الادعاء، فهم من نسل الأمير محمد بن الشيخ حسن العدوي (الشهيد عام ٦٥٥هـ) الذي يسميه الأكراد (محمد الكردي الأربلي) ويعتقد اليزيديون أن الأمارة حق لأبناء الشيخ حسن، والأمارة وراثية، ولكن الأمير ينتخب من أبناء الأسرة، ولا يجوز خلعه أو عزله بعد مبايعته ولا يفقد سلطانه إلا بالموت الطبيعي.

ومقام الأمير في قرية باعدرى في قضاء الشيخان، وبها قصر الإمارة، والأمير أو المير خادم الدين وحامي الرسالة روحياً وزمنياً وهو المسؤول أمام الدولة عن أمور الطائفة. وللأمير حق الفتوى:

١ ـ الفتوى في إعلان الحرب أو الدعوة لإصلاح جذري عام.

٢ ـ الفتوى في تجريم القاتل أو العفو عنه.

٣ ـ الفتوى في أحكام الحلال والحرام، فالأمير سعيد بك بن علي بك وبناء على رغبة (ميان خاتون) والدته الوصية على إدارة شؤون الأمارة اجتمع في سنة ١٩٣١ وضع دستور للطائفة اليزيدية سمح فيه بفتح المدارس والمصارف الزراعية والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة (بناء الحمامات والمراحيض) والسماح بدخول المرافق العامة.

وهناك أبناء عم الأمير يطلق عليهم (البسمير) وتعني أحفاد الأمير وهم أبناء الشيخ منصور بن الشيخ أبي بكر العدوي، ويقيمون في عين سفني وباعدرى وسنجار، وهناك مقولة شائعة بين اليزيدية (الأمراء أحفاد الشيخ بركات و البسمير أحفاد الشيخ سوار) وهم لا يعرفون من هو الشيخ بركات أو الشيخ سوار.

وطبقة الأمراء وأبناء عمومتهم هم الملاكون العقاريون وأصحاب الثروة والمال. يقول الباحث اليزيدي هوشنك بروكا «للأمير حق مشروع في تسلم السلطتين الدينية والدنيوية، وهو الآمر والناهي في كل صغيرة وكبيرة، وهو الممثل الشرعي للشيخ عدي ولهم كل الأملاك في لالش، ومع مرور الزمن شكلّوا طبقة تقوم على الاستغلال الطبقي مما أثار سخط الأغلبية الساحقة من الإيزيديين وزاد من نقمّتهم المضمّرة على هذه الطبقة»(٢٦). لذا ترى الأمير يعتمد على حرس خاص له من أبناء الطائفة يسميهم الدراويش السبعة وهم من نسل (درويش آدم، ودرويش قاتان، ودرويش رضوان، ودرويش سعيد، ودرويش وحيد، ودرويش سمحين، ودرويش جلكين).

طبقة الشيوخ:

كل فرد من نسل الشيوخ يسمى شيخ أو شيخة، والبير والشيخ متساويان في الدرجة الروحية ولا يمكن أن يلقب أحدهما بكنية الآخر، وهم يمثلون الرموز المقدسة، وإليهم تجبى الصدقات، لأنهم المثلون لطاووس ملك أو الشيخ عدي.

والشيوخ في زمننا الحاضر ينقسمون إلى قسمين:

الشيوخ الشمسانية:

وهم (آل فخر الدين، وآل شمس الدين، وآل عماد الدين، وآل بابا دين، وآل سجادين، وآل ناصر الدين، وآل شيخ مند).

الشيوخ القاتانية:

وهم (آل شيخ حسن، وآل شرف الدين، وآل شيخ موسى، وآل إبراهيم ختمي، وآل شيخ يتيم).

وتترأس طبقة الشيوخ كلها (الشمسانية والقاتانية) سلالة الشيخ حسن أو الشيخ سن، وكل من ينتمي إليها يسمى (بيش إمام) أي الإمام الرئيس، وهذه العائلة مسموح لها بالقراءة والكتابة، وقراءة القرآن، ولديهم مخزون الصدر الرحماني.

ولليزيدية خرافة تقول: «عندما نزل يزيد بن معاوية من السماء وحارب الحسين بن علي وغلبه، واستقر قرابة ثلاثمائة عام في الشام متربعاً على عرش الحكم، جمع حينها كافة الكتب والمخطوطات، وأحرقها، ثم حصر تعلم الكتابة في أسرة الشيخ حسن وحدهم وحرّمها على

سواهم»(٢٧). من هذه الخرافة يعتبرون الشيخ حسن إلهاً للوح والقلم ومشافي مرض الريح الأبيض (الروماتيزم).

والبابا شيخ سليل أسرة الشيخ فخر الدين شيخ المشايخ، وهو المسؤول أمام الأمير عن الإدارة الدينية وهو المسؤول عن احتفالات عيد الجماعية في المرجة، (عين سفني). أما **البيش إمام** فهو قاضي الزواج والطلاق، والشيوخ على تعدد أسرهم لهم رتب روحانية وراثية، ولكل أسرة منهم مريدوها يقدّمون لهم الخدمات لقاء أجور خاصة، ويسمي الشيوخ جدهم الأعلى (أوجاغ) **فالآدانيون** هم أحفاد الشيخ عدي الأموي ومنهم الأمراء، والبسميرية، وآل بكر، وآل إسماعيل عنزلي.

والبيرانية يعودون إلى جدهم حسن الرحمان ومنهم آل قضيب البان، وآل محمد رشان، وآل بير جردان، وآل حاج علي، وآل عمران الحال، وآل حاج محمد، وآل بيره فات، وآل بيريبوال، وآل بيره اليا (علي).

طبقة البير:

البير كلمة كردية تعني المسن أو العجوز، ويسميه ليارد (القديس) وهو لدى المانويّة (الصدِّيق)، وهو الرئيس الديني للطائفة، والبير مسؤول أمام الأمير والبابا شيخ، والبيرة من أسر عدة ولكل أسرة مريدوها، ولكل بير مهام منها:

- تربية العوام وتثقيفهم.
- وغسل الميت.

وترتيل الأدعية الخاصة لشفاء المرضى.

ولكل بير شيخه الخاص ولكل شيخ بيره، ولكل يزيدي شيخه الخاص أيضاً وكذلك بيره وعائلات البيرة اليوم لا تزيد عن أربعين عائلة وهم ينحدرون من عائلات عربية معروفة مثل عائلة قضيب البان هو أبو عبد الله الحسين بن عيسى من أولاد الحسن بن علي بن أبي طالب، رافق الشيخ عدي والشيخ عبد القادر الكيلاني (توفي قضيب البان عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) ويسميه ابن الغوطي (أبو علي الحسين بن محمد الكردي الموصلي الزاهد)(٢٨) وله مقبرة في الموصل، ويعده اليزيدية إلهاً لآلام المغص وبعض الأمراض الداخلية.

ويعتقد البيرة أن (أوجاغهم) حسن سلمان ويقع مزاره في منطقة دست حرير، ومن أشهرهم (البير محمد ريشان العدوي)، وقبره في السفح الشرقي من جبل مقلوب شمال شرق الموصل، ويعده اليزيدية إله المطر، إذ كان يستقى به المطر، وحتى الأمير لا يتدخل في شؤون مرقده.

طبقة القوّالين:

القوّال هو المرتل للأناشيد الدينية، ولديه مخزون الصدر، ينشده بالعربي والكردي معاً.

والقوّال رتبة وراثيّة، روحيّة، وهو يحسن العزف على الناي والدف، وهم منتشرون في قضائي سنجار والشيخان (في قريتي بعشيقا وبحزاني) وهم يحتفظون بأنسابهم العربية لأنهم من قبائل عربية جاءت إلى الموصل وسنجار من بلاد الشام والجزيرة. ولأنه لا يحق في اليزيدية الزواج بين الطبقات فقد أصدر البابا شيخ فتوى سمح بها للقوالين بالزواج من طبقة المريدين أو الفقراء لكي لا ينقرضوا، لأن القوالين كانوا في الأصل شيوخاً أو بيرة.

ويكلّف القوّال بمصاحبة السنجق أثناء تجواله بين القرى (وهو تمثال طاووس ملك البرونزي) بعد ضمانها من بيت الإمارة لقاء مبلغ من المال وهم الذين يجمعون الصدقات لمرقد الشيخ عدي، ويبيعون (البراة) وهو كرات من التراب المقدس من ضريح الشيخ عدي!

ومن أناشيدهم:

آمين آمين، تبارك الدين، الله أحسن الخالقين، بهمة الشيوخ فخر الدين وناصر الدين وسجاد الدين، وبابادين والشيخ شمس قوة الدين، وسلطان المشايخ الشيخ عدي تاج الأولين والآخرين.

ومن دعائهم في الفجر:

يا رجل الصباح، صباح جديد، يا ملك شهيد، يا نفس السلطان يزيد، أنت الشيخ وأنا المريد، فقير للعالي، فقير للوحداني، يا رب تقبل دعانا بدعاء المؤمنين.

قال عنهم لايارد: «أما القوّالون فهم الوعاظ، وهم من أنشط مراتب الكهنة، يرسلهم الشيخ ناصر في مهمات من قرية إلى أخرى كمرشدين لمعتقدات الطائفة، وهم يحسنون العزف على الناي والطبل ويقبّلونها بعد الترتيل، وهم موسيقيون ماهرون قد تعلموا الرقص والغناء في سن مبكرة وثيابهم بيضاء وعمائمهم سوداء خلافاً لعمائم الشيوخ ويكون قبع الرأس أسود»(٢٩).

طبقة الفقراء:

تعني كلمة فقير الزاهد أو الناسك، والفقراء هجروا الدنيا، أو ساروا على درب الآخرة في أعمال دنياهم، بعد أن لبسوا الخرقة فهجروا الدنيا لأجلها، كي ينالوا أسرار دينهم، وتصبح لهم مفاتيح الأسرار مسخّرة.

وحين ارتداء الفقير لخرقته، ويشد عليها الحزام الأسود، ويضع على رأسه قبعة من الصوف الأسود، ويطلق شواربه ولحيته وشعر رأسه، يصبح الرجل فقيراً محترماً من كل اليزيديين لا يجوز إهانته، لأنه قد لبس الخرقة التي تذكرهم بخرقة الشيخ عدي بن مسافر التي لبسها قبل تسعين ألف سنة، حين لم تكن الأرض ولا السموات ولا الدنيا بكينونتها موجودة(٣١).

وامتحان الفقير الزاهد، صوم أربعين يوماً في عزلة تامة، وفي نهاية الامتحان يرتدي لباسه الأبيض، ويطوق عنقه بخيط صوف منسوج يسمى المفتول أو طوق يزيد، وهو رمز لطوق الحقيقة (يسمى كريفانة) وهو رمز للدائرة التي مركزها هو ماني متدارك الكون، وقد أخذ بها اليزيديون دون أن يعرفوا مغزاها وما هو مصدرها، وكان اليزيدي منذ مدة يسيرة إذا أحيط بدائرة من قبل شخص آخر، يصبح أسيرها ولا يخرج إلا إذا محيت هذه الدائرة.

وهذه الرتبة يتساوى بها الجنسان (فقير وفقيرة)، وكلاهما يلبس زي خاص بهم كالجنود ويسمون داخل الطائفة باسم (فرسان يزيد) ومن يموت منهم يدعى (برخي يزيد) كلمة آرامية تعني (فداء يزيد). وهم يمارسون الفلاحة والعمل بالأرض والرعي، ويدفعون صدقاتهم إلى الأمراء والشيوخ، وتقوم النسوة الفقيرات، بالطبخ وغسل الصحون، وجمع الحطب وإشعال النار عند مرقد الشيخ عدي بن مسافر، بينما يقوم الرجال الفقراء بتزويد السرج بالزيت وإشعال القناديل.

كان الفقراء أثناء الحروب يلبسون الخرق، وكذلك الأمراء والشيوخ وكانت خرقة الأمير علي بك الكبير يضرب بها المثل، وبها يحلف اليزيديون.

ومن الفقراء طبقة هم خدم الشيوخ و البيرة يدعون **بالمريدين**، يحق للشيوخ استبدالهم ولا يحق للمريد استبدال شيخه، علاقتهم علاقة السيد بالعبد والزواج محصور داخل الطبقة ولا يجوز لهم الزواج من الطبقات الأخرى.

ويمكن لأي يزيدي من الطبقات السابقة أن يترهب، وأن لا يتزوج، وهذه الجماعة رتبة شبه روحية يدعى الفرد منهم **بالكوجك** Koshak (كَو و جك) أي (قال ـ صح) أو الكاهن المنجم وهذه الرتبة تنال بالاجتهاد، وهي ذات رتبة أبناء الغيب عند المانويّة، ويجري تعيين الكوجك من قبل البابا شيخ وبموافقة الأمير.

ويمكن لأي يزيدي أن يصبح كوجكاً إذا قام بصيام أربعين يوماً في مربعانية الصيف، وأربعين يوماً في مربعانية الشتاء، ثم يزور مرقد الشيخ عدي في لالش مرتين ويطوف حوله وحول الأربعين سراجاً المقدسة، ثم يتقدم نحو البابا شيخ ليباركه ويدخله في الصومعة، وينقطع للعبادة، ويتميّز الكوجك بزهده المبالغ فيه، وتقشفه المفرط، وهو يلبس الثياب البيض، ويضع عمامة بيضاء، ويشد على وسطه حزاماً أسود وأحياناً قد يكون أحمر، ويلتحف بعباءة بيضاء، وينقطع عن الاتصال بالنساء، إلا ما قد سلف، فإن كانت له بنات لا يحق للعلمانيين الزواج منهن، وكل واحدة منهن تتزوج من جنسها ويصلي الكوجك نحو شروق الشمس وغروبها في مكان معزول لا يراه أحد، ويقف على رجل واحدة، ومن وظائفه الدينية أن يتنبّأ للحاضرين ما تراءى له في الرؤيا الصادقة. ويفسر الكوجك الأحلام، ويعلم أهل الميت بحال ميتهم إن كان في النعيم أو الجحيم.

ومن أناشيدهم في الأعياد قولهم: «في حضرة لالش، عادت إلى الأرض خضرتها، وازدان بها الكون كله، وباكتمال عناصر الكون، خلق قالب آدم من العناصر الأربعة، (التراب والماء والنار

والهواء)، ودشنّوه في يوم السبت، وأتموه في يـوم الجمعـة، وبعـد سـبعمائة سـنة، حلّقـت الأرواح السبعة حوله، وبعد سبعمائة سنة من الخليقة وقالب آدم لا حراك بـه، فسـئلت الـروح: لمـاذا لا تحيينه؟ قالت: العلم عند عشاق الروح، إن لم ينزل الوحي بحضرة الدف و الشبابة، فالهوة بيني وبين قالب آدم جد كبيرة، فحضرت الدف والشبابة، ونفخت الـروح في جسـد آدم النـبي وسـرى النور الإلهي فتحرك الرأس»(٣٠).

مراجع الفصل الثالث، الديانة اليزيدية والمانوية

١) اليزيدية ومنشأ نحلتهم ص٢٣، أحمد تيمور، المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٢ه).

٢) المصدر السابق ص٥٧.

٣) المصدر السابق ص٢٧.

٤) تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ص٧، عباس العزاوي، المكتبة التجارية ـ بغداد ١٩٣٦م.

٥) اليزيديون في حاضرهم وماضيهم ص١٤٨، عبد الرزاق الحسني، دار الكتاب الجديد ـ بغداد ١٩٤٧م.

٦) اليزيديون والديانة اليزيدية ص١٧، شاكر فتاح، ترجمة د. خليل شمو الحكيم ـ بيروت ١٩٧٧.

٧) دراسات في ميثولوجيا الديانة الإيزيدية ص١٠ هوشنك بروكا ـ ألمانيا ١٩٩٥.

٨) المصدر السابق ص٣١.

٩) اليزيديون والديانة اليزيدية ص١٩.

١٠) الإزداهيون اليزيديون ص١٥، درويش حسو ـ المانيا ١٩٩٢.

١١) اليزيديون والديانة اليزيدية ص٢٠.

١٢) الإزداهيون واليزيديون ص١٨.

١٣) اليزيدية و منشأ نحلتهم ص٢٨.

١٤) دراسات في ميثولوجيا الديانة الإيزيدية ص٢١.

١٥) الآثار الباقية للبيروني ص٢٠٩، تحقيق إدوار سخاور لايبزيغ ١٩٢٣.

١٦) المصدر السابق ص٢١١.

١٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٣٧، المقدسي، تحقيق غازي طليمات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٠.

١٨) الأنساب للسمعاني ص٦٠، نشر مرجليوت، أعادت نشره دار المثنى بغداد.

١٩) تاريخ الزمان ص١٠٦ ابن العبري ترجمة الأب اسحق أرملة دار المشرق، الموصل ١٩٨٦.

٢٠) الأكراد ص٦٣، مينورسكي، ترجمة معروف خزندار ـ بغداد ١٩٦٨.

٢١) شرف نامة جـ١ ص١١٠، شرف خان البدليسي، ترجمة محمد علي عوني ـ القاهرة ١٩٦٨.

٢٢) أورفا ـ سالنامه ص٩٨، مطبعة إلهامي ـ إستنبول ١٩٢٧.

٢٣) الأكراد ص٥٨، مينورسكي.

٢٤) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص٣٠٩، محمد أمين زكي، ترجمة محمد علي عوني، مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٣٩.

٢٥) الأكراد ص٥٧.

٢٦) أوستن لايارد بالإنكليزية، جـ١ ص٣٠٣، (مصدر سابق).

٢٧) دراسات في ميثولوجيا الديانة الإيزيدية ص١٠٠ ـ ١٠١.

٢٨) المصدر السابق ص١٠٤.

٢٩) اليزيدية أصولهم ومعتقداتهم جـ٢ ص١٥٧، د. سامي سعيد الأحمد.

٣٠) أوستن لايارد بالإنكليزية ج١ ص٣٠٥.

٣١) دراسات في ميثولوجيا الديانة الإيزيدية ص١٢١.

٣٢) المصدر السابق ص١١٨.

الباب الثالث

اليزيديّة (العقيدة والتاريخ)

الفصل الأول، البنى الأولية للمذهب اليزيدي وأهم أسراره.

الفصل الثاني، طقوس وأعياد اليزيدية.

الفصل الثالث، أهم الوقائع والشخصيات التاريخية.

الفصل الأول

أهم رموز وأسرار المذهب اليزيدي

- البنى الأولية للعقيدة اليزيدية.
- خلق العالم.
- ظهورات الآلهة السبعة:

١ - الظهور الأول - ملك عزازيل.
٢ - الظهور الثاني - ملك دردائيل.
٣ - الظهور الثالث - ملك إسرافيل.
٤ - الظهور الرابع - ملك ميكائيل.
٥ - الظهور الخامس - ملك جبرائيل.
٦ - الظهور السادس - ملك شمنائيل.
٧ - الظهور السابع - ملك نورائيل.

البنى الأوليّة للعقيدة اليزيديّة

لفهم أي مذهب ديني أو فلسفي لا بد من النفاذ إلى مكوناته الأولية، هذه النظرة التحليليّة تساعد في إزالة ما يكتنفه من غموض، ولكي نتوصل إلى البنى الأوليّة التي يتكوّن منها المذهب اليزيدي. قال المفكر الفرنسي لاشلييه: «إذا أردنا أن نفهم أي مذهب وأن نحكم عليه، فإن الشرط الأول، لذلك بلا ريب، أن ننفذ إلى بنائه الداخلي، ولكن الشرط الثاني هو أن نخرج منه بحكم يعلو على وجهة نظر أصحابه»(١). إذا عملنا بتلك الوصية فما هو حكمنا على هذا المذهب؟

الديانة اليزيديّة نشأت كمعظم الديانات، من رواسب عقائد قديمة موحدة ووثنية تؤمن بتعدد الآلهة، ومن بينهم يبرز إله تصبح له السيادة المطلقة، يتولى تدبير الآلهة وشؤون البشر والطبيعة معاً. نرى هذا واضحاً في الديانة اليزيدية التي حرّمت القراءة والكتابة، واعتمدت على الموروث الشفهي، فاختلطت فيها المفاهيم، وحرِّفت الأسماء، واكتنفها الغموض. جاء في مقدمة مصحف رش (المصحف الأسود): قبل مجيء المسيح إلى هذا العالم، كانت ديانتنا تسمى ثنوية، واليهود والنصارى والمسلمون ضادوا ديننا والعجم أيضاً، وكان من ملوكنا آحاب، الذي أمرنا أن نسميه باسم خاص به، فسميناه بلعزبوب ونسميه الآن (بيربوب)، وكان لنا في بابل ملك اسمه بختنصر وهو الذي يدعى عند العجم أحشويرش، وفي القسطنطينية إغريقالوس» أجرى كاتب النص تحريف للأسماء مقصود، فالإله آحاب هو آحاز، وهو اسم عبري معناه (الرب أمسك) وهو الملك الحادي عشر من ملوك يهوذا، خلف أباه يوثام على عرش أورشليم عام ٧٢٦ ق.م، وارتد إلى عبادة الأوثان والقول بتعدد الآلهة فقاومه شعبه، وطلب معونة الملك الآشوري تغلات فلاصر وأنجده بقدومه إلى دمشق، جاء الملك آحاز إلى دمشق، وأعجب بتكوين المذبح وبنى مثله في أورشليم، لتقديم القرابين للإله بعل، وأطفأ السرج في المعبد المقدس ولم يقدم بخوراً لإله إسرائيل، وقد وصفه الكتاب المقدس (وعمل الشر في عيني الرب) وأطلق عليه شعبه بعلزبول أي ملك الزبالة ودعوه رئيس الشياطين والأرواح النجسة، وعندما حاصره الفلسطينيون لم ينصره شعبه وقتل وهو في السادسة والثلاثين من عمره سنة ٧٢٠ ق.م(٢). وأما ملك بابل نبوخذ نصر فقد بنى هيكلاً وتمثالاً للإله بعل وعيّد له الشعب في يومي (٨ و٩) من نيسان. وإلى بعل كان يعزو نصر جيوشه التي لا تقهر والتي يملأ صدى سيوفهم صليل قلب الأعداء رعباً، وهو الذي سبى اليهود إلى بابل

أربع مرات بين سنوات ٦٠٥ ـ ٥٨٢ ق.م وأخذ معه من كافة شرائح الشعب وطوائفه ومنهم عُبّاد بعلزبوب.

قال عباس محمود العقاد: «لم يذكر الشيطان في التراث العبري المكتوب قبل عصر المنفى في بابل سنة ٥٨٢ ق.م، وكان شمائيل رئيس الملائكة يقوم بدور بلعزبول في كتابات العبرانيين القديمة في التلمود، وكان الشيطان يحضر بين يدي الله مع الملائكة الذين يهبطون إلى الأرض، ويعاشرون بنات الناس، وكان الإله نفسه يحب أن يمشي في ظل الأشجار متبرداً، ويأكل اللحم والخبز، ويحب ريح الشواء، ويحقد وينتقم كما يفعل كل مخلوق من مخلوقاته في الأرض أو في السماء»(٣).

وعندما سقطت بابل في يد كورش الفارسي عام ٥٣٩ ق.م سمح لمن يرغب من اليهود بالعودة إلى أورشليم، وظل عُبّاد الشيطان مكرمين يعيشون في منطقة حدياب (أربيل) ونال بعض رؤسائهم حظوة الملك أحشويرش (٤٨٦ ـ ٤٨٥ ق.م) الذي أخضع مصر وبلاد الكلدان وبنى القصور في مدينة بيرسيبولس، وهاجم أثينا ودمرها، ونقل بعض الفلاسفة والشعراء إلى بلاطه، وكان معجباً بشعر هوميروس الذي وصف العفاريت Diamons بالطيبة، وجعلهم كائنات تتوسط بين الآلهة والإنسان وهي التي تؤثر على مصير الناس وفي الأحداث الكونية، وكانوا يقولون لكل إنسان قرين من الجن يحميه»(٤) وهذا القرين كائن خيِّر يساعد الناس بالخير، ولكن الشعب الفارسي وضع أسطورة أخرى تقول بعبادة (أهرمن) إله الشر ومحدث الأمراض والجنون والكوارث الطبيعية، وللتخلص من تأثيره الضار كانوا يقدمون إليه الأضاحي، والقيام بطقوس من الرقص السحري، ومع مرور الأيام أصبح الشيطان إلهاً لا غنى للعالم عنه. جاء في مقدمة كتاب إبليس للعقاد ـ»يوم عرف الإنسان الشيطان كانت فاتحة خير، تلك هي الحقيقة في بساطتها الصادقة التي لا مجاز في لفظها، ولا في معناها، بل هي من قبيل الحقائق الرياضية التي تثبت بكل برهان، وتقوم الشواهد عليها في كل مكان، فتاريخ الإنسان في أخلاقه الحيّة لا ينفصل عن تاريخ الشيطان»(٥).

أصبح لإبليس Diabolos دوراً فعّالاً في ديانات الشرق الأوسط، لا ينفصل عن حكمة الوجود، فلولا غواية إبليس لآدم، لم تنتقل الخطيئة إلى ذريته، ولم يعد الناس بحاجة للخلاص الإنساني عن طريق المعرفة الإلهية أو بنعمة الفادي (يسوع المسيح) الذي قدّم دمه قرباناً على الصليب، وجرى صراع بين أتباع المسيح والمانويّة، عبدة النور أو الشمس الذين نفوا صلب السيد المسيح، وقالوا: إنما شبّه لهم، «ما من أحد يعبد المشنقة التي خنقت إلهه».

انتشرت الهرطقة المانويّة في كافة أقطار الشرق الأوسط وأوربا وقالوا: الوجود منذ الأزل وجودان منفصلان، عالم النور وعالم الظلمة، ولا فاصل بينهما، وعالم النور خال من الشر، وعالم الظلام السفلي مملوء بالشرور، وبواسطة القرين أو التوأم ينتصر الإنسان على الشرور في عالم الظلمة، ويزرع المحبة»(٦).

واتخذت المانويّة تسميّات مختلفة فهم المبيضّة في العراق وفارس، وعبدة الشمس في شمال العراق وسورية، وهم أحباء الله (البوجاميل) Bogamil في أوربا، وفي عام ١٣٣٥م قدّمت ماري جيورجيل إلى المحكمة في إسبانيا، فقالت «إن اللّه ملك السماء، والشيطان ملك الأرض، وهما ندان متساويان سرمديان، يتساجلان النصر والهزيمة، وينفرد الشيطان بالنصر المبين في الوقت الحاضر»(٧).

وفي آسيا كانت عبادة الشيطان منتشرة، روى الدكتور يوسف وولف صاحب الرحلة إلى بخارى بين أعوام (١٨٤٣ ـ ١٨٤٥) قال: إن شيخاً يهودياً يدعى ناثان ومعه درويش مسلم، من بلدة كشغر، سأله الدرويش ممتحناً: من هو خالق النار والماء؟ قال: هو الله! صاح الدرويش: صه لا شيء من ذلك لأن النار والماء عنصران مهلكان، ولا ينبغي للّه أن يخلق المهلكات، وعليك أن تعلم أن الكون يحكمه إلهان:

ـ أحدهما: إله العالم الأعلى، رب السماء عنده خلائق الخير الذي خلق نوراً لا يحرق وخلق الوردة والبلبل.

ـ والثاني: إله العالم الأسفل، رب الظلمة، سوف يصعد إلى السماء السابعة تحلق معه الألوف من جنده وتطير بينهما الحيات والثعابين فيدور القتال سجالاً حتى ينهزم الإله الأسفل ويلقي عصا الطاعة لإله السماء»(٨).

هذه صورة لعبادة تغلب عليها النزعة الزرادشتية، صراع إله الخير أهورامزدا وإله الشر أهرمان، وهذه تغاير العبادة المانويّة التي تقول بالتعاون بين اللّه وإبليس.

خلق العالم وتدبيّره:

يقول اليزيديون أن الإله واحد وكثير معاً، أما أنه واحد ففي الذات والقدم والأزل، وأما أنه كثير فلأنه صدرت عنه الآلهة السبعة، الذين خلقوا من نوره الأزلي، كما تضاء الشمعة من الشمعة، وقد خلق كل إله منهم في يوم من أيام الأسبوع، وكل يوم هو بألف سنة مما نعد، وكل إله ندبه الله لإبداعه جزء من العالم العلوي أو العالم السفلي.

هذه النظرة في تعدد الآلهة، عبر عنها الفيلسوف الأفلوطوني المحدث برقلس (٤١٢ ــ ٤٨٥م) الذي وصف الباري بالجوهر الفرد الذي يتكشف لعباده في الكثرة والتي تسعى لتحقيق الوحدة، وأن الباري أصل هذا العالم وأنه دائم المثول أمامنا من خلال ظهوراته، التي عبر عنها كتاب الجلْوة المنحول ف٨:٣ «تدبير العوالم وانقلاب الأجيال، وتغيير كل منظومة مني منذ القديم».

أما كتاب مصحف رش المنحول ففيه تفصيل عملي لخلق العالم «إنه قبل كون السماء والأرض، كان الله موجوداً على البخار، وكان قد صنع له مركباً، وكان يسير في بيوتات البحار متنزهاً، ثم خلق من ذاته درّة، وجلس عليها أربعين سنة، ثم غضب على الدرة ورفسها فيا للعجب، صار من ضجيجها الجبال، ومن عجاجها التلال، ومن دخانها السموات التي جمدها الله وثبتها من غير عواميد، ثم قفل راجعاً إلى الأرض، ثم أخذ قلماً بيده وكتب الخليقة كلها، ثم خلق ستة آلهة من ذاته ومن نوره خلقهم كما لو أوقدوا سراجاً من سراج».

نظرة اليزيدية في خلق العالم تمثال النظرة الهرمسية، القائلة: صدر العالم عن إله النور بالإرادة الخيرة، وترك لإله الظلمة تدبير العالم السفلي، وإله النور هو الذي خلق الهيولى الأولى، ولكن تدبير العالم موكول لإله الظلمة، من هنا انتابت العالم الشرور، ولكن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، ووجود الشر ضروري للعالم ومن تقابله والخير يظهر الحسن والقبيح، جاء في كتاب الجلّوة ف١: ٤ «قال الرب، أنا مشترك بجميع الوقائع التي يسميها الخارجون عن ملة يزيد شروراً لأنها ليست مصنوعة حسب مراميهم». وجاء في مقدمة مصحف رش عن خلق العالم_«في البدء خلق الله الدرة البيضاء، من سره العزيز، وخلق طائراً اسمه انغر، وجعل الدرة فوق ظهره، وسكن عليها أربعين ألف عام».

إن اسم انغر هو تصحيف لاسم ايفر الاسم اليوناني (إيفرودتس) ومعناه العبد الحسن المنظر، وعند اليزيدية هو طاووس الملك، وفي الكنيسة هو عبد المسيح.

من هو المدبر لهذا العالم؟

يرى اليزيديون أن الله خلق العالم وترك تدبيره لمدبرين حذّاق خلقهم من نوره وأعطاهم السلطة على هذا العالم، ويكلمهم بواسطة الوحي الإلهي المباشر بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة، جاء في كتاب الجلّوة ف٣: ١ وأرشد بلا كتاب وأهدي غيباً أحبائي وخواصي جميع تعاليمي بلا كلوفة، وقد أخذت هذه الفكرة من المتصوفة فهم يروون عن الله مباشرة حي عن حي يقول أبو يزيد البسطامي «حدثني قلبي عن ربي»(٩). وهؤلاء الآلهة السبعة أعطاهم الرب العظيم المعجزات لكي يطيعهم البشر، جاء في كتاب الجلّوة ف٣: ٦ «قال الرب: أظهر معجزاتي وعجائبي للذين يقبلونها ويطلبونها مني في حينها»، لأن المعجزة لا تظهر إلا لمن يؤمن بها حسب قول الشاعر الألماني غوته.

والرزق يعطيه لعباده والمخلصين منهم خاصة. جاء في كتاب الجلّوة ف٣: ٥و٧: «قال الرب: الخزائن والدفائن معلومة لدي، وأخلقها لمن أريد، أما المخالفون، والمضادون الأجانب فمخالفتهم ضرر عليهم، لأنهم لا يدرون الثروة والغنى الذي هو بيدي وأنا أختار لها من نسل آدم من أريد».

ظهورات الآلهة السبعة:

كل الديانات الثنوية تعتقد بإلهين: إله النور، خالق العالم ومدّبره بواسطة العقل الفعّال أو الكواكب المنيرة أو بواسطة القرين، وفي الديانة اليزيدية يحتل عزازيل مكانه القرين، وهو أول مخلوقات الله، وعنه صدرت بقية الآلهة، وهو نور روحاني خالص، وبه تقوم النفوس البشرية التي هي أيضاً جواهر روحانية بسيطة، ويتبع كل نور ظل تخلق منه النفوس الإنسانية الشريرة والتي تتطهر في نهاية الدور بالعمل الصالح، وبالعلم الإلهي، وينتهي الدور ويتوقف الصراع ويسود عالم النور.

هذه التعاليم وجدت في الفكر الغنوصي (العرفاني) الحراني، وعند أفلوطين المصري (٢٠٤ ـ ٢٧٠) الذي قال «بأن العالم كائن حي واحد، وأن الكواكب تعرف صلواتنا، لأنها تتصل بنا مباشرة على نحو ما (بالتعاطف) وتصدر أعمالنا نتيجة للتأثر الصادر عن الكواكب التي هي آلهة متعاطفة معنا حسب أعمالنا»(١٠) وبعد أن خلق الله السموات والأرض صدرت عن ذاته آلهة خلقهم من نوره، وهؤلاء الآلهة ستة في الديانة اليزيدية صدروا عن الإله الأول كما لو أوقد إنسان سراجاً من سراج آخر.

خلق في يوم الأحد، ملكاً اسمه (عزازيل) هو طاووس ملك رئيس جميع الملائكة والآلهة.

وخلق في يوم الاثنين ملك دردائيل وهو شيخ حسن.

وخلق في يوم الثلاثاء ملك إسرافيل وهو شيخ شمس

وخلق في يوم الأربعاء ملك ميكائيل وهو شيخ أبو بكر.

وخلق في يوم الخميس ملك جبرائيل وهو سجادين.

وخلق في يوم الجمعة ملك شمنائيل وهو ناصر الدين.

وخلق في يوم السبت ملك نورائيل وهو فخر الدين.

قال الإله الأول عزازيل للإله الثاني دردائيل، أنا خلقت السماء فاصعد أنت إليها واخلق شيئاً، فصعد وخلق الشمس، وقال الإله الثاني لإسرافيل، اصعد واخلق شيئاً فصعد وخلق قمراً، وقال الإله الثالث لميكائيل اصعد واخلق شيئاً فصعد وخلق الفلك وقال الإله الرابع لجبرائيل اصعد واخلق شيئاً فصعد وخلق نجمة الصبح (الزهرة) وقال الإله السادس لشمنائيل اصعد واخلق شيئاً فصعد وخلق الفراغ أو الجو المحيط بالأرض، وسأفصل في حياة كل إله وابيِّن ظهوراته البشرية، وتاريخه وأعماله.

الظهور الأول، ملك عزازيل الذي هو الشيخ عدي بن مسافر

ملك عزازيل هو رئيس جميع الملائكة بل هو طاووسهم، وهو أول مخلوقات الله أو الصدورات التي فاضت عنه، وهو جسم نوراني جعله الله رئيس الملائكة، وأوكل إليه تدبير الكون والسموات السبع، وإليه تنتسب ملة يزيد، يقول اليزيدية عنه «أرسله الله من أرض الشام إلى لالش».

فمن هو عزازيل في التراث البشري؟ وكيف وصلت عبادته إلى اليزيدية؟

عزازيل في التراث العبري:

كانت عبادة الشيطان شائعة في العالم القديم، عرفه المصريون بصورة الإله ست، ويمثلونه بصورة حيوان خرافي له جسد إنسان ورأس ثعلب، وكانت مركز عبادته لدى القبائل البدوية في صحراء سينا وحول ضفاف البحر الميت، وكان العبرانيون يطلقون عليه اسم عزازيل ومعناه (المنعزل أو الرجيم). وكان النبي هارون يجلب كل عام تيسين من ذكور الماعز ويربطهما أمام خيمة الاجتماع حيث (تابوت الإله يهوه) ويلقي عليهما قرعتين، إحداهما قرعة الرب، والأخرى قرعة عزازيل، وبعد أن يذبح تيس الرب ويقدم القربان، تلطخ بالدم قرون تيس عزازيل، وبذلك تطهّر نجاسات بني إسرائيل، بوضع الخطايا على رأس التيس، ثم يسلم التيس إلى رجل ليأخذه إلى البرية ويطلق سراحه، ليتلقاه عزازيل، وعندما يعود الرجل المرسل، يغتسل بالماء الجاري من نجاسة التيس، ويطهِّر ثيابه»(١١).

يطلق العبرانيون على عزازيل اسم الشيطان ومعناه (شطن) أي المبعد، ووظيفته غواية الإنسان، وهو ربُّ الغفار المهيمن على الصحراء، ويعمل جاسوساً لدى الإله يهوه ينقل له أخبار العباد، قال له الرب ذات يوم: من أين جئت؟ قال: من الجَوَلان في الأرض، قال الرب: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب؟ الرجل الكامل المتقي لله، المبتعد عن الشر، أجابه الشيطان: هل مجاناً يتقي أيوب الله؟ إنك أحطته بعنايتك هو وبنيه، وكل ما يملك وباركت أعمال يديه، فانتشرت مواشيه في الأرض، وطلب الشيطان من الله امتحانه، ونجح أيوب في الامتحان واندحر الشيطان مخذولاً»(١٢). وقد استمد الشاعر الألماني ولهلم جوته، مسرحية فاوست من هذه المحاورة: قال: مفستوفيلس (إبليس): أنا الروح التي تنكر دائماً، لأن كل ما ينشأ يستحق الفناء، وهكذا كل ما تسمونه خطيئة هو دمار بالجملة، شر هو العنصر الخاص بي.

هذه الروح المتمردة على الله والإنسان لا يعرفها عزازيل اليزيدي، لأنه روح نورانية صافية لا تعرف الخبث والغدر، بل هو الروح القلقة دائماً من أجل خلاص الإنسان.

عزازيل أو إبليس في التراث اليوناني:

كلمة إبليس Diabolos باليونانية تفيد معنى المتذمِّر أو كثير الشكوى، ويمثلونه في بروميثيوس إله النار وخالق الإنسان ومؤسس مدنيَّته، ولما أزمع الإله زيوس إهلاك البشر عارضه بروميثيوس،

فطرده إله السماء زيوس، فهبط بروميثيوس إلى الأرض وأصلح أحوال البشر، ووهبهم العقل والتفكير، وأعطاهم النار، فصلبه الإله زيوس على صخرة في جبال القوقاز ووكل به نسراً ينقَّض عليه كل يوم، يمزِّق أعضاءه، وينهش كبده، ويكرر النسر فعلته مع بروميثيوس كل يوم(١٣)، وظل يتجرَّع كؤوس العذاب حتى أطلق سراحه هرقل الجبار.

كانت قصص الجن والشياطين معروفة عند كل الأمم القديمة، قال أبو الريحان البيروني «قد أقرَّ بالجن والشياطين جُل الفلاسفة كأرسطوطاليس بوصفه إياها بالهوائية والنارية، وتسمية يحيى النحوي لهم بالأناس، وإنهم خبائث الأنفس المترددة من بعد انفصالها عن أجسادها، ولا أظن ماني في كتبه إلا مشيراً إليها وإن كانت إشارته بألفاظ وعبارات ركيكة»(١٤).

وصورة عزازيل عند اليزيدية تشبه إلى حد كبير صورة بروميثيوس عند الإغريق، فكيف وصلت إليهم تلك الصورة؟ أرى أنها وقد وصلتهم عن طريقين عن طريق التراث الإسلامي الصوفي والتراث المانوي، حيث البارقليطس المنقذ هو القرين الذي خلقه إله النور وأوكل إليه تدبير العالم. جاء في مصحف رش «عندما نزل الرب إلى الجبل الأسود، خلق ثلاثين ألف ملك وفرقهم ثلاث فرق، وبدأوا يعبدونه أربعين ألف سنة، ثم أرسلهم إلى طاووس ملك وصعد بهم إلى السماء، وفي السماء خلق آدم، وأوكل ملك عزازيل برعايته».

إبليس أو عزازيل في التراث المسيحي:

لولا غواية إبليس لم يسقط بني آدم في الخطيئة، ولم يصلب المسيح من أجل الخلاص البشري، فوجود إبليس لا ينفصل عن مشيئة الله، ومع ذلك نعت بأبشع الصفات، فهو رئيس الشياطين، وكبير الأرواح الساقطة، وهو إله الدهر (رسالة كورنثوس الثانية ٤ : ٤). وهو ملاك جسور مغامر سقط بسبب كبريائه، فطرده الله إلى عالم الظلمة، وهو لا يكف عن تجريب الناس، ويصدهم عن القداسة، لأن الله أعطاه بعض السلطان، وقد يتقلد صورة ملاك النور ليمنع الناس عن فعل الخير، وقد دعا المسيح يهوذا الأسخريوطي شيطاناً (يوحنا ٦ : ٧٠) وجاء في إنجيل يوحنا «اليوم ينبذ سيد هذا العالم» ـ يقصد إبليس ـ (يوحنا ١٢ : ٣١) وقال يسوع «كنت أرى الشيطان يهوي من السماء كالبرق» (لوقا : ١٠).

احتلت فكرة إبليس مكاناً هاماً في فكر علماء الكنيسة رداً على الصابئة الحرانية والمانوية، ومن أشهرهم:

أوريجين الإسكندري (١٨٥ ـ ٢٥٤م)

تصدى أوريجين لدعاة الحرانية وخاصة أتباع برديصان، قال عن غرور إله الحرانية الذي وصفه بالشيطان «توجد غواية الشيطان في طبيعة الإنسان، وهي شهوات الطعام ولذات الجسد،

وأما التواضع فهو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح المخلِّص. كيف يغوي الشيطان الإنسان؟ هناك طريقان للغواية:

أحدهما: أن يوسوس للإنسان من حيث لا يراه، فهو يجري من سريرة الإنسان مجرى النفس لا تراه العينان.

والآخر: أن يستولي عليه، ويتخبطه على هواه، ويبتليه بالأمراض والعاهات، وله جنود في كل مدينة وبين كل معشر يعبدون الأوثان التي يعتبرونها رباً من الأرباب»(١٥) لأن إبليس لم يخلق منحرفاً ولا ضالاً لكنه انحرف عندما دخله الكبر والحسد من آدم، فتمرد على الأمر الإلهي، وفي آخر الزمان تقوم حرب بين جنود إبليس، ومع رئيس الملائكة ميخائيل وجنوده، ونتيجة المعركة يحجز إبليس وجنوده فيما دون فلك القمر، ويرتدون عن السماء خوفاً من الرجم الإلهي، وقبل قيام القيامة يظهر السيد المسيح، فيذهب أهل النار إلى النار، ويرتفع أهل النعيم إلى النعيم، وتكون نهاية العالم عند نهاية الدورة الكونية التي قدرها الحرانية بـ ٣٦ ألف سنة، وفي نهاية الدور تتطهر الخلائق بالنار ويبطل الفناء والموت، والخطيئة والعقاب، ويشفع السيد المسيح بأتباعه ويدخلون ملكوت الرب منعمين، ويبقى أتباع عزازيل خالدين في نار جهنم.

القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م):

كان هذا القديس النابه الذكر من عائلة مانويّة تعيش في قرطاجة في تونس، وكان مثل والديه يعلي من شأن القرين (الشيطان) ثم ترك المانويّة، وانصرف لمهاجمة بدعتهم، وعاش في روما، قال عن إبليس «إن إبليس خلق للخير، ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه، وعدم سجود لآدم، فأنزله الله من سماء الأثير الصافي إلى الهواء أو الفراغ الكثيف المحيط بالأرض، ولا يمتنع أن يكون جسد إبليس ملائماً للتناسل مع الأجساد البشرية، هذه الأفكار، هي خليط من الاعتقادات الشرقية، والأساطير الإغريقية، وقصص الحب بين بني الإنسان وإناث الجن، والتراث المسيحي، وكان همه تفنيد تعاليم ماني وأتباعه.

القديس توما الإكويني (١٢٢٧ ـ ١٢٧٤)

كانت محور فلسفة هذا الفيلسوف، تدور حول حرية الإنسان، التي يمتلكها كل مخلوق عاقل وأولهم الشيطان (طاووس الملائكة) وصاحب المنزلة العليا بينهم، وكانت قدرته على النجاة والثبات أعظم من قدرة الآخرين، لكن أذهلته العظمة عن كل شيء سوى نفسه، وطمح إلى مساواة الله في عظمته، ومشاركته في وحدانيته فهوى من عليائه وتبعه تابعوه، من الملائكة ومعهم آدم وحواء، وصارت الشياطين كائنات عاقلة مسلطة على عقول البشر، ومستقرة في غرائز الإنسان، فإذا انقلب الشيطان على الإنسان صار الإنسان عدواً لنفسه، وكل ما نراه من معجزات وخوارق ليست من عمل الشيطان لأن عمله هو تبديل الأعراض في المادة، أما الجوهر فهو من عمل الله،

وكل ما يستطيع الشيطان عمله خداع حس الإنسان كي لا يرى الأشياء على غير صورها مما يلتبس على الناس بالمعجزات، ولا يستطيع الشيطان تبديل الأشياء بالنفاذ إلى صميمها.

إبليس في التراث الإسلامي:

الجن حقيقة أقرها الإسلام، قال تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (سورة الذاريات: ٥٦)، وكانت عبادة الشيطان شائعة في الجزيرة العربية، قال الجاحظ «ومن أساطير الجاهلية ومعارفها، بقايا أنباء غامضة تداولتها الأجيال، فاستقبلتها عقول خضعت للوثنية كلها خرافة وتدجيل»(١٦) وكانت قصص الجن والعفاريت شائعة بين الأعراب ومنها أسطورة خروج بني آدم من الجنة، قال تعالى «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان، كما أخرج أبويكم من الجنة» (سورة الأعراف: ٢٧). والفتنة كما صورها محمد بن كعب هي إغراؤهم بعبادة الأوثان، قال: كان قوم من الصالحين بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم، كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا. ثم نشأ قوم بعدهم، فقال إبليس: إن الذين كانوا من قبلكم يعبدون هذه الصور فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت»(١٧).

وكان الشيطان قد أغرى آدم بالخروج من الجنة، عندما حثه على أكل ثمرة الحنطة. قال ابن عطاء السكندري «ثم أنزله الله إلى الأرض، ويسَّر له أسباب المعيشة، فناداه يا لطيف، فساعده على أعباء تكاليف العبودية، ثم ناداه يا ظهير، فما أنزله إلى الأرض إلا ليكمل له وجود التصرّيف، ويقيمه بوظائف التكلِّف فتكمّلت في آدم العبوديتان:

عبودية التصرّيف، وعبودية التكليّف، فعظمت منّة الله عليه، وتوفر إحسانه إليه»(١٨).

وكان خروج آدم بمشيئة الله وتدبيّره، لا بإغراء إبليس له.

ما الفرق بين إبليس والجن والشيطان؟

جاء في كليات أبي البقاء «كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب فهو شيطان»، وقال الجاحظ «الجني إذا كفر وظلم وتعدى وأفسد فهو شيطان، وإن كان قادراً على استراق السمع فهو مارد، وإذا زاد على ذلك فهو عفريت، وإن ظهر ونظف وصار خيراً كله فهو ملك»(١٩) وكان إبليس طاووس الملائكة، وقيل الشيطان، إما من (شاط) بمعنى هلك، وإما من (شطن) بمعنى بعد وهو المحرق في الدنيا والآخرة وفي الحديث الشريف (الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)(٢٠) وهذه الفكرة مأخوذة عن أورجين الاسكندري.

إبليس وآدم وحواء:

أفضل من عرض لنا علاقة إبليس بآدم المؤرخ والرحالة علي بن الحسن المسعودي (المتوفى ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، روى عن عبد الله بن عباس (المتوفى ٦٨هـ/ ٦٨٨م) قوله «عندما شاء الله خلق

آدم قال للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، فقالوا: ربنا ما يكون ذلك الخليفة؟ قال: تكون له ذرية، قالوا: أتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء. ونحن نسبِّحك ونقدِّسك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون، وأرسل جبريل إلى الأرض وجلب من ترابها المختلف الألوان، وجبل التراب حتى صار طيناً لازباً يلزق بعضه ببعض وتركه أربعين سنة حتى أنتن وتغير لونه، ثم صوره على صورته وتركه بلا روح، وصار صلصال كالفخار، فكانت الملائكة تمر به فيفزعون منه، وكان أشدهم فزعاً إبليس، كان يدخل من فيه، ويخرج من دبره، ويقول: لأمر ما خلقت، وعندما نفخ الله فيه الروح، قال للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا لآدم إلا إبليس أبى واستكبر وقال: يا رب أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار أشرف من الطين، فقال له الرب: اخرج من الجنة فإنك رجيم، فسأل إبليس ربه أن يمهله إلى يوم يبعثون»(٢١)؟

ماذا كان يفعل إبليس قبل خلق آدم؟

قال عبد الله بن عباس «أسكن الله الأرض الجن قبل آدم فجعلهم من مارج من نار وإبليس فيهم، وكان أكثر الملائكة توحيداً لله، فجعله الله على سماء الدنيا خازناً وعلى الملائكة مشرفاً، فوقع في نفسه الحسد والكبر، وعصا ربه عندما أمره بالسجود لآدم، فطرده من الجنة. قال المسعودي: كان الفراغ من آدم يوم الجمعة ونفخ الروح في أنفه في السادس من نيسان من يوم الأحد، ثم خلقت حواء من ضلع آدم الأيسر وأسكن الجنة وأهبط منها بمكيدة من إبليس في جزيرة سيلان، وحواء في بلدة جدة على ساحل البحر الأحمر، وخرج آدم ومعه نبات الحنطة(٢٢).

ـ ما هي نظرة الفقهاء والصوفية إلى إبليس؟

لا يتصور الفقهاء إرادة في الوجود معاندة لإرادة الله، تشاركه في المشيئة وتضع في الكون أصلاً من أصول الشر، ومن ذلك قولهم إن الإنسان أفضل من الملائكة لسببين:

١ ـ وحدة الإرادة الإلهية في الكون.

٢ ـ وملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربه. ومنحت للإرادة الإنسانية حقها وتبعتها وهي التي سمحت للشيطان أن يظلمها، وآثرت الضلالة على الهدى، وخيِّرت بين دواعي التوبة والندم(٢٣) هذا ما قاله عباس محمود العقاد، ولكن للدكتور صادق جلال العظم رأي غير ذلك: قال: «يبدو لي أن دعوى العقاد القائلة بفضل آدم على الملائكة لأنه عرضة للخير والشر بينما هي بمنجاة من غوايته دعوى فاسدة لأنه:

١ ـ لا فضل لآدم على الملائكة، بما فيهم إبليس لا من حيث قدرته على صنع الخير والشر ولا من حيث علمه بالأسماء كلها.

٢ ـ إن جوهر إبليس أفضل وأسمى من جوهر آدم، لأن الطين لا يسمو سمو النار.

٣ ـ وإن دعوى العقاد القائلة بأنه كان على إبليس أن يسجد لآدم لأنه أفضل من الملائكة فاسدة ومردودة»(٢٤).

أقام الدكتور صادق دفاعه عن إبليس على أساس ما ذهب إليه المتصوِّفة من التمييز بين الأمر الإلهي، وبين المشيئة الإلهية، فالأمر بطبيعة الحال، إما أن يطاع وينفذ وإما أن يعصى وللمأمور الخيّار في ذلك! أما المشيئة الإلهية، فإنها بطبيعتها لا ترد، وكل ما تتعلق به المشيئة الإلهية واقع بالضرورة»(٢٥) كما استند على قول بشار بن برد والزنادقة معه:

إبليس أشرف من أبيكم آدم	فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة	والطين لا يسمو سمو النار
والآرض مظلمة والنار مشرقة	والنار معبودة مذ كانت النار

هذه هي نظرة المجوس وليست نظرة المانويّة، ومع ذلك فقد اتهمه أبو نواس عندما حكى عن أبي عيسى الوراق أنه كان معه ذات يوم بعد صلاة العصر، وقال عنه(٢٦)

فقلت: سبحان ربي	فقال: سبحان ماني
وقلت: عيسى رسول	فقال: من شيطان

أرجّح أنه ذكر اسم ماني لداعي القافية

هل أكل آدم من الشجرة المحرمة، نسياناً؟ نعم يجيبنا القرآن الكريم بذلك، قال تعالى «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل، فنسي ولم نجد له غرما» (سورة طه: ١١٥) ولكن لابن عطاء السكندري رأي آخر، أنه أكل منها بإرادته، لأنه عاين قرب الملكية من الله، فأحب أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التي هي أفضل»(٢٧) ولليزيدية رأي مغاير سأذكره لاحقاً.

آدم وإبليس في التراث الفارسي:

إن قصة خلق الإنسان الأول (كيومرث) كما وردت في كتاب الأبستاق لزرادشت تختلف عن قصة خلق آدم وإبليس في الديانات السماوية، فهي أقرب إلى الأساطير الهندية. ذكر لنا أبو الريحان البيروني، ما قالوه في ذلك من أقاويل عجيبة من **ولادة (أهرمن) ــ إبليس** ــ عن فكرة رديئة خطرت لله هي إعجابه بنفسه حين خلق العالم، وتحيَّر الباري سبحانه وتعالى، فعرقت جبهته ومسح ذلك العرق، ورمى به فصار منه الإنسان الأول (كيومرث) ولقبه (كل شاه) أي ملك الطين، وأرسله لمصارعة أهرمن فقهره، وركبه وجعل يطوف به العالم إلى أن سأله أهرمن: ما أبغض شيء إليه؟ فأخبره متى بلغ باب جهنم، فإنه يخاف منها خوفاً شديداً، فلما بلغ به ذلك الموضع، جمح به وأسقطه، واعتلاه أهرمن، وسأله: بأي أجزاء جسمه جسده يبدأ بأكله؟ فقال: من جهة رجلي حتى أكون ناظراً إلى حسن العالم مدة ما، وكان يعلم أنه سيخالفه فيما يقول،

فابتدأ أهرمن يأكله من جهة الرأس حتى إذا بلغ مواضع الخصى وأوعية المني من الصلب، تقطرت منه قطرتان على الأرض، ونبت منهما ذكر وأنثى (ميشي وميشانه) وهما بمنزلة آدم وحواء، ويسميهما مجوس خوارزم (مرد ومردانة) هذا ما سمعته من أبي الحسن إذرخوار المهندس بخوارزم وهو مجوسي(٢٨). أما ما سمعته في بلاط غزنة من الشاعر محمد بن أحمد البلخي (الفردوسي) زعم أنه وجد في كتاب سيرة الملوك لعبد الله بن المقفع (المناني) ثم قابل قوله بما **أورده بهرام الهروي** (المجوسي) قالا: إن كيومرث، مكث في الجنة ثلاثة آلاف سنة وهي آلاف (الحمل والثور والجوزاء) ثم هبط إلى الأرض، وعاش بها آمناً مطمئناً ثلاثة آلاف سنة أخرى، وهي آلاف (السرطان والأسد والسنبلة) إلى أن ظهرت الشرور بظهور أهرمن وكان كيومرث يقطن الجبال فسمي (كرشاه) أي ملك الجبال بالبهلوية، وقد رزق من الحسن، ما لم يقع عليه بصر حيوان إلا بهت وغشي عليه، وكان لأهرمن ولد يسمى (خزورة) وأنه تعرض لكيومرث فقتله فتظلم أهرمن إلى أهورامزدا (الله) وأراد أن يقاصص كيومرث حفظاً للمواثيق والشرائع) فأراه عواقب الدنيا والقيامة، فاشتاق كيومرث إلى الموت ثم قتله فتقطرت من صلبه قطرتان في جبل (دايداذ) ياصطخر، ونبت منهما شجرتا (ريباس) وظهرت عليهما الأعضاء البشرية في أول الشهر التاسع وتمت في آخره، (ميشي وميشانه) ومكثا خمسين سنة مستغنين عن الطعام إلى أن ظهر لهما أهرمن في صورة شيخ فحملهما على تناول فواكه الأشجار فأكلا ووقعا في البلايا، والشرور، وظهر منهما الحرص، ثم اجتمعا وولد لهما ولد، فأكلاه، حرصاً عليه، فألقى الله في قلبيهما الرأفة فولد لهما ست أبطن وأسماؤهم في كتاب الأبستاه معلومة»(٢٩) ثم يتابع البيروني قوله.. **وللفرس رواية ثالثة** عن الجنة ذكرها سعيد بن محمد الذهلي له قال «كان الناس يتهارشون، ويتنازعون، وكان بينهم أناس مظلومون، مقهورون من جهة بعض الأشرار في جبال فارس، فنقلهم الملك العادل (بيشداذ) إلى موضع الفردوس الأرضي بين عدن وجزيرة سرنديب (سريلنكا) حيث ينبت العود والقرنفل وأنواع الطيب وضروب النعيم، ومكثوا هناك مطمئنين إلى أن عثر عليهم العفريت (الراكشا) ملك الأشرار، وأخذ منازعتهم، ووجد الملك بيشداذ في ذلك الموضع غلاماً وجارية سماهما (ميشي وميشانه) وزوجهما، ومنهما جاءت ملوك الطوائف»(٣٠).

وأما الطوفان قال البيروني: فالفرس وعامة المجوس وأهل الهند ينكرونه ويقولون: كان الطوفان بالشام والعراق في زمن طمهورث، وأنه لم يغرق من الأمم إلا القليل، وإن الطوفان لم يجاوز عقبة حلوان، وإن طمهورث الملك لما بلغه إنذار الحكماء قبل حدوث الطوفان بـ٢٣١ سنة أمر باختيار موضع مشرف عال صحيح الهواء والتربة، فلم يجد أفضل من أصفهان، وقام بتجليد الكتب، ودفنها في أسلم موضع من التلال التي انشقت في زماننا عن بيوت مملوءة أعدالاً كثيرة من الكتب المكتوبة على لحاء شجر التوز، ولم يدر ما تلك الكتب وما نوع تلك الكتابة، وما تضمنته من معان»(٣١).

هذه هي قصة خلق آدم وإبليس والطوفان في التراث الفارسي كما يرويها لنا البيروني. وهي لا تشبه الموروث السامي في خلق العالم، ولا صلة للتراث اليزيدي بها كما سأبين ذلك.

إبليس وآدم وحواء في التراث اليزيدي:

إن قصة خلق العالم، وآدم وحواء وإبليس، مستمدة من التراث السامي ولا علاقة لها بالتراث الفارسي وها هي القصة من التراث اليزيدي «خاطب الرب العظيم الملائكة قائلاً: إني خالق آدم وحواء، وجاعلهما بشراً، ومنهم ملة عزازيل (ملة اليزيدية) ونزل الرب في أرض القدس، وأمر جبريل بجلب التراب من زوايا الدنيا الأربع، ثم جاء جبريل بتراب وهواء ونار وماء، وخلق من هذا التراب آدم الأول، وجعل فيه روحاً من قدرة الله، وأمر جبريل أن يدخل آدم إلى الفردوس، وأن يأكل من ثمر الشجر إلا من ثمر الحنطة فلا يأكل، وبعد مئة سنة من خلق آدم، سأل طاووس ملك الرب العظيم:

كيف يكثر بنو آدم؟ وأين يسكن نسله؟ فقاله له: الأمر والتدبير سلمتهما بيدك! فجاء طاووس ملك، وقال لآدم: أأكلت ثمرة الحنطة؟ قال: لا، لأن الله نهاني عنها! فقال له: كل منها يصير لك عقل أحسن! وبعد أن أكل آدم منها انتفخ بطنه في الحال، فأخرجه طاووس ملك من الجنة وأنزله إلى الأرض، وتركه وصعد إلى السماء، فتضايق آدم من بطنه لأنه ما كان له مخرج (شرج) فأرسل الله له طائراً نقره وفتح له دبراً فاستراح.

وغاب جبرائيل عن آدم مائة سنة، فحزن آدم وبكى، حينئذ أمر الله جبرائيل أن يخلق حواء من تحت إبط آدم الأيسر، وتخاصم آدم وحواء على تناسل الجنس البشري، وادعى كل منهما أن النسل له، ثم ألقى كل منهما شهوته بجرة، وسد فمها بختمه، وصبروا تسعة أشهر ثم فتحوها وإذا بجرة آدم زوجان من الصبيّة، ومنهما جاءت ملة اليزيدية، ولما فتحت حواء جرتها، وإذا فيها دود معفنة مكروهة الرائحة، ثم انبع الله لآدم ثديين وأرضع الصبيين (ذكر وأنثى) ثم تعارف آدم وحواء، فولدت حواء ولدين ذكراً وأنثى ومن نسلهم جاء اليهود و النصارى والمسلمون وغيرهم من الطوائف. وأما شيت ونوح وأنوش هم أناس أبرار، وهم آباؤنا الأولون والذين هم من نسل آدم دون حواء.

وبعد طوفان نوح كان هناك طوفان آخر، ومن هذا الطوفان الأخير جاءت الأمة اليزيدية من نعمي الذي يدعى عندنا (ملك ميران) أما بقية الطوائف والملل منهم من نسل حام الذي أهان أبيه نوح، ومن الطوفان إلى الآن سبعة آلاف سنة، وفي كل ألف سنة ينزل أحد الآلهة السبعة، يضع القوانين والشرائع ثم يصعد إلى مكانه، وجميع الأمكنة المقدّسة عندنا، وفي هذا الزمان، كان نزول الله عندنا أكثر من الزمان الماضي، وثبّت لنا الأولياء، وكان يكلمنا باللسان الكردي» (من كتاب مصحف رش).

من هذه القصة نلاحظ أن إبليس (طاووس ملك) لم يعص ربه، ولم يغدر بآدم، وكان الشيطان نوراً بسيطاً خالياً من الشر، مما يجعلنا نتذكر قول الجاحظ (إن الجني إذا طهر ونظف، صار خيراً كله فهو ملك). وكانت معاملة طاووس ملك لبني آدم تشبه معاملة بروميثيوس لبني البشر، ويجعلنا أن نخرج ملك عزازيل من زمرة الشياطين، ونجزم أنه القرين أو التوأم الملاك الطاهر، قال عباس محمود العقاد «إن الذين سمعوا أنهم يعبدون (طاووس ملك) الذي أخرج آدم من الجنة، قد وحدّوا بين هذا الملك وبين الشيطان، وحسبوهم من النحلة الشيطانية»(٣٢) ولجهل اليزيدية حكموا على أنفسهم أنهم عبدة الشيطان، جاء في كتاب مصحف رش «لا يجوز أن تلفظ كلمة شيطان لأنه اسم إلهنا». وعليه أقول: إن اليزيدية قوم موحدون لا يعبدون الشيطان وإنما هو ملاك، التبس عليهم اسمه، وتشابه مع إخراج إبليس لآدم من الجنة بإغرائه أكل الثمرة التي نهاه الله عنها. قال العقاد «وليس فيما رواه الثقاة عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ولعل القول بعبادتهم للشيطان لبس جاء من اعتقادهم أن الإله الذي يسمونه (طاووس ملك) نصح آدم بأكل الحنطة، فانتفخ بطنه وضاقت به الجنة، فأخرجه طاووس ملك إلى العراء، وصعد إلى السماء، إلى أن فرّج الله كربة آدم»(٣٣). سأدرس تكريم اليزيدية لطاووس ملك في مكان آخر من هذا الكتاب، لأثبت علاقة اليزيدية بالإسلام، ولأنفي علاقتهم بالديانة الزرادشتية.

الظهور الثاني، ملك دردائيل، وهو الشيخ حسن

معنى دردائيل «خلقه الله» والشيخ حسن بن عدي خلقه طاووس ملك يوم الاثنين لذا سمي عبطاووس أي عبد طاووس، أرسله إلى العالم السفلي، لكي يفهِّم ويُعلِّم شعبه الخاص (ملة يزيد) وينجيهم من الضلال والوهم، بواسطة تعاليم الجلْوة، الذي لا يجوز لأحد من الخارجين عن الملّة الاطلاع عليه، وبعد أن أنجز مهمته أمره طاووس ملك «أنا خلقت السماء فاصعد أنت إليها واخلق شيئاً، فصعد وصار شمساً» المصدر (مصحف رش).

والشيخ حسن شخصية تاريخية هو حسن بن الشيخ عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر الملّقب بتاج العارفين فخر الدين أبو محمد شيخ الأكراد العدوية ولد في لالش عام (١١٨٥م) وتعلم في الموصل وحلب ودمشق، وصنف وكتب كتاب الجلْوة لأرباب الخلْوة، وغيره من الرسائل وترك ديوان شعر، قتله حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ عام (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) ودفن في لالش، بالقرب من جده الشيخ عدي بن مسافر، وأطلق عليه لعلمه (الحسن البصري) ويطلق عليه اليزيدية حسن البواب ويقولون عن جهل، لما حضرت الوفاة الشيخ عدي، أمر الشيخ حسن البواب خادمه، أن يلصق ظهره بظهره، فلما فعل ذلك قال الشيخ عدي، الآن انتقل نسلي إلى صلبك، وصارت ذرية الشيخ حسن البواب هي ذرية الشيخ عدي، ويبالغ اليزيديون في إكرام تلك الذرية ويقولون عنهم

أنهم أبناء يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، واليزيدية يقدِّمون بناتهم ومحارمهم إلى من قدم عليهم من ذرية الشيخ حسن، فيخلو بهن، ويقضي وطره، ويرى أبوها وأمها أن ذلك قربة إلى الله تعالى(٣٤). هذا كذب وافتراء —

إن قول اليزيدية أن الشيخ حسن كان بواباً، هو قول محرّف، فالشيخ حسن هو الباب للشيخ عدي، كما هو الحال بالنسبة لسلمان الفارسي، الذي هو الباب للإمام علي (ع) عند أتباع نحلة علي إلهي وهم أكراد، ولديهم ثالوث مقدس مكون من (محمد وعلي وسلمان) ولدى اليزيدية ثالوث مقدس مؤلّف من (الشيخ عدي والشيخ حسن والشيخ محمد الأربلي)، وقد لعب الباب دوراً هاماً في الحركات والمذاهب الباطنية.

ومن شعر الشيخ حسن قوله:

أنا ذات الذوات وكل الذوات   أنا كاف الأكوان في الكائنات

أنا رب الأرباب والعرش جمعاً   والسموات جميعها من مبتدعاتي

الظهور الثالث ملك إسرافيل، الشيخ شمس الدين

ظهر هذا الملك السماوي، وتجسد بالشيخ شمس الدين أو (فخر الدين)، خلق يوم الثلاثاء، ثم قال له ملك دردائيل «اصعد إلى السماء، فصعد وخلق القمر»، وجاء في مصحف رش (هو أرطيموس) أي إله القمر عند اليونانيين، وله تمثال على شكل امرأة، كانت تماثيلها رائجة في أسواق سورية والعراق، وكان الناس يهتفون باسمها في المسارح أثناء الأعياد.

والشيخ شمس الدين محمد بن موسى بن محمد الأربلي العدوي، من أهل بعشيقة، كان واسع الاطلاع، لمعرفته باللغات الثلاثة (العربية والكردية والسريانية) وعنده جرى تحوّل المذهب العدوي إلى المذهب اليزيدي، وهو الذي حرّم القراءة والكتابة، واكتفى بالوعظ والإرشاد باللغة الكردية وظلت الطقوس تمارس بالعربية ومما نسب إليه صلاة الشروق.

اللهم أسألك توفيق أهل الهدى، وأعمال أهل اليقين، ومناصحة أهل التوبة، وعزم أهل الصبر، وتعبد أهل الورع، وعرفان أهل العلم.

اللهم، إني أسألك مخافة تحجزني عن معاصيك، حتى أعمل بطاعتك عملاً أستحق به رضاك، وحتى أخلصك لك النصيحة وأتوكل إليك في الأمور سبحانك، يا خالق النور، ثم تقرأ بعدها سورة الإخلاص، بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

الظهور الرابع، ملك ميكائيل، وهو شيخ أبو بكر

خلق يوم الأربعاء، وهو الذي صعد إلى السماء، وخلق فلك المجرة، ومقامه فيها، والشيخ أبو بكر شخصية تاريخية هو موسى بن محمد بن الشيخ حسن لقبه شرف الدين، وقد نال حظوة كبيرة عند الأمراء الأيوبية، ثم نال تلك الحظوة من بعده ولده الشيخ خضر بن أبي بكر الكردي العدوي، ولد في قرية باعذرى ودرس في الموصل، وكان محدثاً لبقاً ذا حظوة عند الحكام، وصار شيخ الملك الظاهر بيبرس الذي كان يكرمه ويصحبه في أسفاره، وقد سمى عليه ابنه خضر وتنسب إلى الشيخ خضر أحوال ومكاشفات صحيحة، بنى له الملك الظاهر زاوية في الحسينية، وبنى له جامعاً يخطب فيه الجمعة بدمشق، وكان الملك الظاهر يمازحه إذا جلس عنده، وبنى الشيخ خضر لنفسه زاوية على الجبل، غرب الربوة، وكان يحدِّث العامة عن كرامات والده الذي عرج إلى السماء هو والشيخ عدي بن مسافر، وكان يكتب إلى صاحب حماة وبقية الأمراء، ويوقع «الشيخ خضر نيّاك الحمارة»(٣٥). وكان محبوباً من النساء لوسامته، فتنت به بنت أحد الأمراء، وحقق معه الأمير قلاوون والفارس أوقطاي الأتابك، واعترف بفعله، وأراد الملك قتله، ولكن الشيخ خضر حذره بقوله «بين موتي وموتك أيام قليلة» فتراجع الملك عن أمره واكتفى بحبسه في القلعة سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م وكان يرسل إليه الأطعمة الفاخرة إلى أن توفي في السجن سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨ م ودفن في زاويته، وكان الأكراد العدوية يغالون فيه وبأبيه الشيخ أبي بكر العدوي.

الظهور الخامس، ملك جبرائيل، وهو شيخ سجاد الدين

خلقه طاووس ملك يوم الخميس، جاء وصفه في مصحف رش (وكان بصورة طائر وبيده زوايا الأرض الأربعة ثم خلق مركباً ونزل به ألف سنة ثم جاء وسكن لالش وصاح بالدنيا فجمدت وصارت أرضاً وجعل فيها شمساً وقمراً، ثم خلق النجوم من نثريات الدرة البيضاء، وعلّق في السماء زينة، وخلق أشجاراً مثمرة ونباتات، وجعل في الأرض الجبال لأجل زينتها ثم خلق العرش على الفرش، وهو الذي خلق حواء من تحت إبط آدم الأيسر، وأنزله إلى الأرض بأمر ملك طاووس.

والشيخ سجاد الدين شخصية تاريخية هو الشيخ يوسف بن محمد بن حسن العدوي، تولى إمارة العدوية، وصار ذا سطوة تهابه أمراء الموصل، فهاجر إلى البقاع ومنها إلى دمشق وكانت الأكراد العدوية تأتيه من كل الأقطار وهي تحمل صفايا الأموال، وكان على هيئة الملوك في بناء القصور الفخمة والجياد المطهمة، والأطعمة والأشربة الفاخرة، ترك ولده عز الدين في دمشق ودخل هو القاهرة واستقبل بالترحاب والإكرام وبنى الزاوية العدوية التي لا تزال في القرافة تحمل اسمه، وتوفي سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م ولا زال قبره هناك وقد كتب على جدران مدفنه:

ذنوبي غزار لا أطيق حصرها   وعفوك يا مولاي أوفى وأزيد
وما هي ذنوبي أن أخاف وأنت   إله ولي يوم الشفاعة أحمد

وقد وصفه شمس الدين السخاوي «بالشيخ الصالح العارف المحقق، شيخ مشايخ الإسلام زين الدين أبو المحاسن يوسف بن شرف الدين الأموي القرشي» وكان وصف بالساجد لكثرة صلواته.

الظهور السادس، ملك شمنائيل، الشيخ ناصر الدين أميران

خلقه الرب يوم الجمعة، وهو نسروخ إله النار عند الآشوريين، وكان له معبد في نينوى، بناه الملك سنحاريب، وكان كثير العبادة قتل أثناء الاحتفال في العيد يوم ٨ نيسان، (مصحف رش).

أما شخصيته التاريخية ناصر الدين أميران بن الشيخ زين الدين يوسف، ولد في لالش، وهاجر مع والده إلى البقاع، ثم سكن دمشق، وخاف نائب السلطان من سطوته وجبروته فقبض عليه وأودع السجن في سنة (٧٣١هـ/ ١٤٣١م) ومات فيه سنة (٧٣٣هـ/ ١٤٣٣) ومن بعده ضعف شأن الأكراد العدويّة.

الظهور السابع، ملك نورائيل، هو الشيخ فخر الدين أبو الفتح العدوي

خلقه الرب يوم السبت، وهو الذي خلق الإنسان والحيوان والطير والوحوش، ووضعهم في جيوب خرقته الصوفية، جاء في مصحف رش «وصاح صيحة عظيمة على الدرّة فانفصلت، وصارت أربع قطع، ومن بطنها خرج الماء وصار بحراً».

والشيخ فخر الدين شخصية تاريخية هو العبد الصالح العارف بالله أبو الفتح العدوي من أبناء الشيخ أبي بكر، توفي في ١٣ ربيع الأول سنة ٧٣٧هـ/ ١٤٣٧م) ودفن في لالش وقبره هناك يزار.

مراجع الفصل الأول: أهم رموز المذهب اليزيدي

١) برجسون ص٨، زكريا إبراهيم، نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف بمصر ١٩٥٦.

٢) كتاب العهد القديم (الملوك الأول، الإصحاح ٢٠ : ٤٢).

٣) إبليس ص١٠٢، عباد محمود العقاد، كتاب أخبار اليوم ـ القاهرة ١٩٥٤.

٤) فاوست جـ١ ص٨، الشاعر الألماني جوتيه، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، المسرح العالمي ـ الكويت ١٩٨٩.

٥) إبليس ص٣.

٦) المصدر السابق ص١٤٤.

٧) Rhodes, The Satanic mass, p53 – London 1894.

٨) إبليس ص٧٣.

٩) تلبيس إبليس ص٣٦٢، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق خير الدين علي، دار الوعي العربي ـ لبنان.

١٠) التساعية الرابعة لأفلوطين ص١٩٣، ترجمة د. فؤاد زكريا، وزارة الثقافة المصرية ١٩٧٠.

١١) الكتاب المقدس، أصحاح اللاويين: ٨ و١٠ و٢٦.

١٢) المصدر السابق، سفر أيوب (الأصحاح الأول).

١٣) الأدب اليوناني القديم ص١٦ ــ ١٧، د. علي عبد الواحد وافي، دار المعارف بمصر ١٩٦٠.

١٤) الآثار الباقية ص٢٣٠، البيروني، تحقيق إدوار سخاو ليبزيغ ١٩٢٣.

١٥) إبليس ص١١٦.

١٦) كتاب الحيوان جـ ص الجاحظ، نشر فوزي عطوي، مكتبة النوري ـ دمشق ١٩٦٨.

١٧) زبدة التفاسير من فتح القدير ص٧٩٦، الإمام الشوكاني، تحقيق محمد سليمان عبد الله الأشقر ـ دمشق ١٩٩٤.

١٨) التنوير في إسقاط التدبير ص١٠٠، ابن عطاء السكندري، تحقيق موسى محمد علي الموشي ـ القاهرة ١٩٧١.

١٩) الكليات لأبي البقاء جـ٣ ص٥٥، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٢.

٢٠) المصدر السابق جـ٣ ص٨٢.

٢١) مروج الذهب جـ١ ص٦١ ـ ٦٢، المسعودي، وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٢.

٢٢) المصدر السابق جـ١ ص٦٤ ـ ٦٥.

٢٣) إبليس ص١٣٨ ـ ١٣٩.

٢٤) نقد الفكر الديني ص٩٥ ـ ٩٦، د. جلال صادق العظم، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٩.

٢٥) المصدر السابق ص٨٩.

٢٦) الحياة الأدبية في البصرة ص٣٧٦، د. أحمد كمال زكي، دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٧١.

٢٧) التنوير في إسقاط التدبير ص٩٦.

٢٨) الآثار الباقية ص٩٩.

٢٩) المصدر السابق ص١١٢.

٣٠) المصدر السابق ص١١٢.

٣١) المصدر السابق ص٢٣.

٣٢) إبليس ص١٥٤.

٣٣) إبليس ص١٥٣.

٣٤) تاريخ العراق بين احتلالين جـ٣ ص٣٧، عباس العزاوي، الشركة التجارية ـ بغداد ١٩٣٩.

٣٥) تاريخ ابن الفرات، مجلد ٧ ص١٢٣، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكية ـ بيروت ١٩٤٢.

الفصل الثاني

أهم طقوس وأعيّاد اليزيديّة

- المدخل
- الدعاء والصلاة
- الصوم والأعياد
- الحج والزيارة
- الزكاة والصدقات
- الزواج والطلاق
- الحلال والحرام
- النفس والتناسخ
- الجنة والنار
- طقوس الموت والدفن
- اللباس وشعار الطاووس
- المراقد المقدسة
- من آداب السلوك

المدخل

معظم الأديان بحاجة إلى أساطير، تيسِّر للناس حياتهم، بخلق وهم كبير، واليزيدية لا يخرجون عن ذلك التصور، قال سيجموند فرويد «الدين وهم وهو شرط ضروري لتقدم الحضارة، وقد كان الدين إيجابياً بإسهامه في تأنيس الدوافع الغريزية اللاجتماعية، وهو وإن لم يستطع جعل البشر أكثر أخلاقية فهم بحاجة إليه أكثر من العلم، لأن للعلم جوانب ضعيفة، جعلت البشر أقل تحسساً لحقائقه، وهم بحاجة دائمة للدوافع العاطفية المتركزة في الدين»(١).

وكل دين يتمركز حول فكرة جوهرية هي الإيمان بإله، خالق ومعبود، وبينه وبين البشر لا بد من واسطة، هي نبي أو رسول، إلا المانوية قالوا: إله النور لا يوصف إلا بالكمال وهو عاجز عن خلق الشر، وليس كمثله شيء إلا قرينه إله الظلمة (الشيطان) القادر على فعل الخير والشر معاً وهو الذي يوسوس للناس دون واسطة، ولا حاجة لكتاب.

وفي القرن السادس عشر الميلادي ظهرت في أوربا طائفة منشقة عن المسيحية تدعى (الأبيسدارية Abecedarins)، قالوا: بمبدأ العرفان الذي يبثه إله النور أو الأب السماوي عن طريق روح القدس، لذا فالناس ليسوا بحاجة إلى الكتب المقدسة، أو للقراءة والكتابة، فالإلهام الإلهي كاف.

كان العرب القدماء يزعمون أن الشيطان هم الملهم للشعراء، وهو ليس ملك الجحيم كما هو الحال عند الإغريق، وليس هو الملاك الذي استكبر عن أمر الله، وغوى الإنسان وأخرجه من الجنة، بل هو الملاك عزازيل قبل الغواية والهبوط، وهو الذي رعى الإنسان بعد طرده من الجنة كما يقول اليزيدية، وفي مذاهب التصوف الإشراقي هو رمز لكمال التقديس والتنزيه، وعندما أطلع بني البشر على المعرفة سلبهم راحتهم، قال حافظ الشيرازي «فسلبوه جماله».

كان اليزيدية يعتبرون اسم الشيطان أحد أسماء الله العظمى، لذا يحذرون أتباعهم من التلفظ به احتراماً لمقامه، فهو الاسم السري الأعظم لله، ونتيجة لاحترامهم له أطلق عليهم زوراً وبهتاناً اسم عبدة الشيطان Devil worshipers وهم في حقيقة الأمر موحدون، تبعاً لتعاليمهم الأسطورية، وكان أحمد بن الفتح الخاقاني (المتوفى ٣٦٠هـ/ ٩٧١) إمام الجامع الأموي بدمشق قال: إن (آه) اسم من أسماء الله الحسنى فرد عليه ابن كثير بقوله: قلت لكن هذا الذي يقول لا يؤخذ عنه مسلماً بل

يحتاج إلى نقل صحيح عن المعصوم فأسماء الله توقيفيّة على الصحيح. ومن أهم تعاليم اليزيديّة مايلي:

الدعاء والصلاة:

الصلاّة هي الثناء الكامل، أو الدعاء والتبريك والتمجيد ويقال صلّيت عليه أي دعوت له، والصلاّة على نوعين:

- صلاّة لفظيّة محضةّ تتم بالقلب الخاشع، وهي الدعاء بمعنى النداء لله والعبادة والاستغاثة.

- وصلاّة تعبديّة بالحركات وهي ترافق بالقراءة والخضوع لمشيئة الله، قال العلامة التفتازاني «ورود الصلاة في كلام العرب بمعنى الدعاء قبل شرعية الصلاّة المشتملة على الركوع والسجود المشتملين على التخشع»(١).

والديانة اليزيدية ينطبق عليها تعريف شميدت في كتابه نشأة الديانة وتطورها، قال «الديانة من الوجهة النفسية، فكرة في المرء وعاطفة يشعر من جرائها، بأنه مقيد بكائن أعلى منه وأقوى. ومن الوجهة العملية عبادة وصلاة وذبيحة»(٢). واليزيدية لديهم أركان الدين الخمسة (بيج فروزتي حقيقة) وهي (الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة).

ومن مخزون صدورهم وصية الشيخ حسن «وليكن همكم مصروفاً إلى الله رب العالمين سبحانه وارفعوا إليه صلواتكم بصفاء ضمائركم، وعلى غير شوب من خواطركم، واجهدوا أن تناجوه بقلوب سليمة، واعتقادات مستقيمة، يسمع منكم ويستجيب لكم، ويعصمكم من أفكار السوء، ويحفظ أنفسكم من المكاره، ويرد عنكم المخاوف وينجيكم من فخاخ الآثام».

وبما أن اليزيدية يعبدونِ نور الأنوار والذي هو الله، فإنهم يتوجهون إلى قرص الشمس عند الصباح والغروب، وهم يجلّون السهروردي الشهيد المقتول(٥٩٨هـ ١١٩٤) ويرددون دعاءه للشمس (هورخش) «أهلاً بالحي الناطق الأنور، والشخص الأظهر، الكوكب الأزهر، السلام عليك، وتحيات الله وبركاته، أيها النيرٌ الأعظم والسيّار الأشرف الطالع، المبدع المتحرك في جلال باريه، أنت (هورخش) الشديد، قاهر الغسق، رئيس السماء، فاعل النهار بأمر الله تعالى، ملك الكواكب، سيد الأشخاص العلوية، مالك رقاب الأنوار المتجسدة، بحول الله تعالى وقوته المطاعة.

أيها الجرم المنير، الزاهر الحكيم الفاضل، أكبر أولاد القدوس منه الأضواء المتحجبين، خليفة نور النور في عالم الأجرام»(٣). وهذه هي عين صلاة الصدّيق المانوي، وهم عبّاد النور، وكانوا موجودين بكثرة في منطقة الموصل في تلك الحقبة من الزمن، وقد زعم المؤرخ المسيحي كريكور ماكستروس Grikor Makstros (المتوفي ١٠٥٨م) في رسالة أرسلها إلى بطريرك السريان جاء فيها

«هناك أناس يعبدون الشمس ويعرفون بالشمسية وهم كثيرون في هذه الربوع وهم يسمون أنفسهم نصارى وأعرف أنك لا تجهل سيرتهم الشريرة المفضوحة»(٤). وأكد وجود هذه النحلة كاتب آخر هو مختار أبارومسي قال «وعندنا عبدة الشمس وهم يتكلمون الأرمنية ويسمون (أريفورتي) وليس لديهم كتابة ولا علوم أدبية بل يعلم الآباء الأبناء بالتقليد ما تعلمه أجدادهم، ويسجدون للشمس حيثما تتجه ويحترمون شجرة الحور والسوسن والقطن، وهم يجتمعون في السنة مرتين أو أكثر رجالاً ونساء في مغارة مظلمة جداً»(٥).

وهكذا نرى ثلاثة أقوام مسلمون عرب وأكراد يدعون لإله الشمس، وسريان مانويون يعيِّدون لإله الشمس، وأرمن مانويون يعيِّدون لإله الشمس، وكذلك اليزيدية يتوجهون في دعائهم الصباحي لإله الشمس (الشيخ شمس) بقولهم «من الدار حتى الدار، الشيخ شمس هو النور، هو لا يفارق خيالنا، من الدرج حتى الدرج الشيخ شمس إله الفرج، نعبد الشيخ شمس بدلاً عن كعبة الله. يا فارس الشروق والغروب بحق الأم وابنتها، نجنا من شر البلية والقحط، أيها الشيخ شمس هلاّ أنعمتنا برحمتك وشفاعتك».(٦)

يقول الدكتور جاسم الخلف «واليزيدية صلاتهم عبارة عن أذكار وأوراد خاصة تتلى في مواقيت معينة»(٧).

وللذكر عند اليزيدية أنواع منها:

- ذكر اللسان وذكر الجوارح وهو ذكر العامة.
- وذكر القلب الأولياء (مقام الهيبة).
- وذكر الروح وفيه يسكت اللسان والقلب عن الذكر وهنا تحصل المشاهدة في مقام الألوهية.

وعند اليزيدية تقام صلاة منتصف شعبان وتسمى صلاة ليلة القدر (صلاتا شفا براتي) وهي خير من ألف شهر، وفي هذا اليوم المبارك تقام خمس صلوات من المساء إلى مطلع الفجر عوضاً عن صلاة سنة كاملة. وهذه النزعة الصوفية التي ترفع التكاليف معروفة عند بعض المذاهب الإسلامية الأخرى، وعندهم الدعاء أفضل من الصلاة لقوله تعالى «ولذكر الله أكبر» سورة العنكبوت: ٤٤.

الصوم والأعياد:

الصوم كل إمساك عن طعام أو كلام، قال تعالى «إني نذرت للرحمن صوماً» سورة مريم: ٢٦، أي صمتاً، والصوم عند اليزيدية هو الإمساك عن كل فعل شر، ويأخذون بقول أبي العلاء المعري:

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ... ولا صلاة ولا صوف على الجلد

وإنما هو تركك الشر مطّرحاً ... ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ومن صوم المانوية والصابئة الحرانية أيام معلومة في السنة، قال البيروني «صومهم الكبير يقع في التربيع الأول من هلال آذار والشمس والقمر في برجين ذوي جسدين، وفطرهم في التربيع الأول من هلال نيسان والنيران (الشمس والقمر) معاً في برجين منقلبين، مفروضين، وذلك يوجب أن تدور شهورهم في سنة الشمس دوران شهور اليهود»(٨).

وأكد ابن الجوزي صيام المنانية بقوله «عليهم صيام شهر أوله ثمان ليال يمضين من آذار ويفطرون في السابع من نيسان، وعليهم سبعة أيام أخرى أولها لتسع بقين من كانون أول (٢٢ ـ ٣١) وعليهم سبعة أيام أخرى من (٨ ـ ١٤) شباط ويختمون صيامهم بالصدقة والذبائح»(٩) وهذه الأعياد تتطابق وأعياد اليزيديّة.

يذكر الدكتور خلف الجراد، أن لليزيدية صومان: صوم العامة وصوم الخاصة، فصوم العامة هو صوم اليزيد وهو مفروض على كل يزيدي تجاوز الثالثة عشرة عاماً ويقع في أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس من الأسبوع الأول من شهر كانون الأول الشرقي من كل سنة ينقطع فيها اليزيدي عن الأكل والشرب والتدخين من الصباح حتى المساء.

أما صوم الخاصة (صيام المشايخ) فهو ثمانون يوماً في مربعانية الشتاء ومربعانية الصيف ويمنع عن الصائم الطعام والشراب ومضاجعة زوجته طيلة هذه المدة(١٠).

أعياد اليزيدية:

اقترنت أعيادهم بطقوس زراعية ورعوية، واختلطت بحركات طقسيّة للسيطرة على الطبيعة، ولهم أعياد تخص رجالهم المقدّسين، وهذه الأعياد منها ما هو شهري كالابتهاج بعيد الهلال أو الدعاء في ليلة البدر وتلك الأعياد مخصصّة بإله القمر، وهو سجاد الدين أوارطيموس.

وهناك أعياد سنوية، شمسية ترتبط بدورة الشمس وتقترن بزيارة أماكن مقدسة لديهم، ويطلق على هذه الأعياد اسم (عيد الجماعية). وهذه الأعياد تصادف المنقلبات الفصلية.

عيد الاعتدال الربيعي:

يصادف في اليوم السابع من نيسان شرقي، وفيه تنزل الشمس من برج الحمل ويستوي الليل والنهار، ويعتدل الزمان ويطيب الهواء، ويذوب الثلج وتسيل الأودية، وتنبع العيون وينبت العشب، وتورق الأشجار، وتنتشر المواشي ويطيب عيش أهل الجبال وأهل البراري، وفي هذا العيد كان المانوية يجمعون أولادهم بأحسن زينة وأطيب ظهور، وينصبون الموائد العامرة، بأطيب المأكولات ويعزفون ويرقصون، ويعظمون الأولياء والحكماء الصالحين، ويتلون الأدعية، وهو عند مجوس الفرس يعرف بعيد هرمز روز يأكلون فيه الخبز المعجون باللحم والتوابل، وعند صابئة حران يعيِّدون فيه لآلهة الحب (الزهرة) ويشربون فيه الخمرة، ويأكلون أطايب الطعام ويعزفون ويرقصون، وربما جرى في هذه الاحتفالات بعض المجون، وينحرون ثوراً أبيض، ويأكلونه في آخر

النهار. وذكر ابن النديم «تجري فيه حفلة جنائزية تمازجها قهقهات صاخبة وحركات تمثيلية تمثل قيام الأموات، وحفلة ذبيحة الثور هي رمز لانتقال عنصر الحياة من الضحية إلى الإنسان وتقام باسم الآلهة السبعة»(١٠). هذا العيد يسميه اليزيدية (سر صالي) أي عيد رأس السنة ويقع دائماً في أول أربعاء من شهر نيسان، وهو ذكرى هبوط طاووس ملك للأرض، وهذا العيد أيضاً هو عيد الإله نسروخ إله النور عند الآشوريين القدماء، وتشترك فيه طبقات الشعب كافة، يشاركهم الشعراء والكهنة والمغنّون الذين ينشدون أفضل أغاني الرعاة، وترقص الفتيات اللواتي يبحثن عن الأزواج. وفي منتصف النهار يجتمع الجميع، حول النبع المقدس، وتحت الأشجار الكبيرة ويقف الكاهن الأكبر، واعظاً، ثم يبارك ذبائحهم، وهي عادة من الثيران المسمّنة وهي على الأغلب بيضاء تسر الناظرين.

يذكر الدكتور خلف الجراد استمرار هذا العيد منذ مئات السنين، وهو عيد رأس السنة المبارك (سر صالي) «وفي هذا العيد يشترك الرجال والنساء في رقص جماعي، على شكل حلقات، ويتبادلون الغزل البريء على أصوات الطبول والزمور، ويتعاطون الشراب، ويولمون الولائم، ويقدمون الهبات الخيرية لخزينة الإمارة ويعتقدون أن الموتى يخرجون من قبورهم ويشاركون في هذه الاحتفالات»(١١).

لِمَ حصر اليزيديون عيدهم في يوم الأربعاء؟ يجيب الباحث اليزيدي هوشنك بروكا «لأنه يوم ولادة طاووس ملك»(١٢) وهذا يناقض ما جاء في كتابهم مصحف رش «إن أول يوم خلق الله فيه العالم يوم الأحد، وخلق فيه ملكاً اسمه عزازيل وهو طاووس ملك رئيس الجميع» وأظنه نال القدسية لأن يوم الأربعاء هو يوم عطارد إله العلم والكتابة والطبابة والتداوي، واليوم الذي خلق فيه ملك ميكائيل وهو يوم الشيخ أبو بكر الذي خلق الفلك الأعلى، وفيه يحرم اليزيديون عقد القران أو الزواج.

عيد المنقلب الصيفي: العيد الكبير:

يبدأ هذا العيد في اليوم الحادي عشر من تموز ويستمر حتى منتصف الشهر ويسبقه صيام الكوجك وهو أربعون يوماً بينما تصوم الطائفة ثلاثة أيام فقط، يسمي البيروني هذا العيد بعيد التبريك (عيد الكرموس) وهو عيد الإله تموز، عند الطائفة الحرانيّة، وعنه قال إخوان الصفا «كانت حكماء الصابئة الحرانية تجتمع فيه إلى الهياكل المبنيّة لذلك اليوم، وهم يلبسون زي خاص ذو ألوان تليق بطبيعة ذلك البرج، ويأكلون الثمار الرطبة واليابسة، فإذا قضوا ما عليهم من صدقات للمعبد انصرفوا»(١٣).

أما اليزيدية فإنهم يجتمعون من القرى المجاورة عند مرقد الشيخ عدي ويفطرون في احتفال مهيب، وقبل الدخول إلى المزار الشريف يستحمون في الجدول الصادر من الوادي، وهم يرتدون الثياب البيضاء الجديدة والنظيفة، ثم يبدأون بالدبك والرقص (الجوبي) ثم يبدأ القوالون ينشدون

الأناشيد الدينية باللغة العربية، وهي أذكار إسلامية، ومنها (مقام حضرة عيسى) وتتحول الأذكار إلى ترانيم حزينة باللغة الكردية، يقول العالم الأثري الإنكليزي هنري لايارد H. Layard الذي وصف هذا العيد في صيف سنة ١٨٣٩ بقوله «فأخذت أمعن النظر في هذا المنظر المهيب من حولي، ولم أعد أصدق القصص والإشاعات التي تروى عن هذه الاحتفالات وتصفها بالفحش والأسرار الداعرة التي أضافت إلى اليزيدية اسماً بغيضاً في الشرق، ورغم الهياج الذي انغمس فيه الجميع لم تبدر من أحدهم أية ممارسة شائنة قرب هذا المرقد المقدس»(١٤).

ومن الأمور التي أثارت انتباه العالم الأثري ليارد «أنه شاهد من شرفة قصر الأمير تحسين بن علي بك بعض النسوة يغتسلن عاريات في قرية باعذرى وهن يتهيّأن للاحتفال في اليوم التالي، وكن يذهبن ويجئن دون أن يعتريهن أي التفات، بينما كان الرجال يغتسلون في بقعة أخرى من الغدير»(١٥) ويتصافح الرجال، ويقبلون أيدي الشيوخ ويعودون سعداء إلى بيوتهم.

عيد الاعتدال الخريفي: (عيد جماعية الشيخ عدي):

يقع هذا العيد في حدود ٢٣ أيلول، وهذا العيد كان مشهوراً عند الحرانيّة كانوا يعيِّدون في قرية تل الفدان غرب حران، وموعده إذا نزلت الشمس في برج الميزان فيستوي الليل والنهار وهو عند اليزيدية عندما يدخل الخريف ويطيب الهواء، وتهب ريح الشمال ويتغير الزمان وتنقص مياه الينابيع إلا عين الشيخ عدي التي يدعونها زمزم (كانياسيبي) أي العين البيضاء وتحوم الغربان البقع في أكثر بلدان وقرى المنطقة، ويعتقد اليزيدية كما هو اعتقاد المانوية من قبل أن أرواح الموتى حية في الأشجار، وفيه يذبحون الخراف والديوك التي لا يأكلها سدنة الشيخ عدي، ويستمر العيد ستة أيام، ويحجون إلى كل المزارات المقدسة في لالش، ويقفون فوق جبل عرفات، ويقدمون ما عليهم من صدقات وتبرعات ويحرم فيه صيد الطيور، ويحرم فيه قطع الخشب ما عدا الكواجك الذين يجمعون الحطب لمطابخ الشيخ عدي التي تقدم الطعام للحجاج طيلة أيام العيد. وفي اليوم الخامس من العيد ينصرفون إلى لعبة (القباغ) وهي الصعود إلى قمة جبل عرفات والنزول منه بسرعة، والوصول إلى باب المرقد الرئيسي.

عيد المنقلب الشتوي (عيد ميلاد الشيخ عدي):

يتعين هذا العيد عندما تبلغ الشمس آخر القوس وأول برج الجدي، ويتناهى طول الليل، ويطول النهار، ويشتد البرد، ويتساقط ورق الشجر، ويموت النبات، وتحجر الحيوانات في أعماق الأرض، وكهوف الجبال من شدة البرد، وتكثر الأنداء وتهزل البهائم، وفي العاشر من كانون أول عيد ذكرى الموتى يصنعون الخبز على أرواحهم. قال إخوان الصفا «كان حكماء الصابئة تتخذ هذا اليوم يوم حزن وكآبة، وندم واستغفار، كانوا يصومونه ولا يفطرون»(١٦). وقال البيروني «وفيه يمتنعون عن شرب الماء بعد النوم، والحجامة إلا من هاج به الدم، وفيه ينهون عن أكل لحم البقر

ويوجبون التبخر صبيحته باللبان قبل الكلام، ويستحب استقبال المشرق مع طلوع الشمس، والسير اثني عشر خطوة متوالية»(١٧).

وهذا العيد عند اليزيدية هو عيد الشيخ عدي قال السيد عبد الرزاق الحسني «ويصادف هذا اليوم في ٢٥ كانون أول، وفيه يوقدون النار في الكانون في دورهم واصطبلاتهم مساءً، ويتخطى النار أفراد العائلة ويتباركون بها، ويمسحون جباههم بلهيبها، ثم يرمون فيها التمر اليابس والزبيب ثم يأكلونه مشوياً»(١٨)، ويتم هذا العيد في البيوت دون احتفال جماعي أو قربان، وفي هذا العيد يتلون الأدعية والأذكار ويترحمون على السيدة العذراء وأبو منصور الحلاج الشهيد (الذي قتل ٣٠٦هـ/ ٩٢٠م) ويزورون قبور موتاهم ويترحمون عليها.

عيد الأضحى المبارك (في العاشر من ذي الحجة)

في هذا العيد يشترك اليزيديون مع المسلمين، وهم يذكرون أنه فيه «أمر الرب إبراهيم الخليل أن يذبح ولده وعندما همّ بذبحه نبهه ملك نورائيل الذي هو (فخر الدين) وأنزل الله عليه كبشاً فداء له، وصورة ذلك الكبش محفوظة في خزينة الرحمن في (باعذرى) مقر الإمارة اليزيدية»(١٩).

وإبراهيم الخليل من ملة اليزيدية وينسبونه إلى درويش آدم وسلالته، وهو من أصل كردي ومن شيوخ اليزيدية من (سرحدة) وأنه هاجر من بلاد الإزدهيين إلى فلسطين»(٢٠) لا أعرف أمة على وجه الأرض أمية كاليزيديين الذين يحرّمون القراءة والكتابة، ويتكلمون لأتباعهم ما شاءوا، دون علم ولا هدى ولا كتاب منير، وهذه أقوال مؤرخيهم المحدثين وعند اليزيدية (عين زمزم) حفرها شيخ عدي عندما ضرب الصخرة بعصاه فتفجرت العين وبدأت تسيل، وقال للماء (زم زم) فسميت زمزم وتسمى عين الماء البيضاء. يجتمع اليزيدية في صبيحة العاشر من ذي الحجة في جبل عرفات في المرجة، ويتقدم الأمير المسيرة الدينية (الصماع) وخلفه ستة من الروحانيين على اليمين وستة من الروحانيين على اليسار، وخلفهم يسير البابا شاويش.

يبدأ الصماع بخروج الأمير من مرقد الشيخ عدي، والروحانيون واقفون في صحن المعبد (مرقد الشيخ عدي) ثم يتبعون الأمير كل اثنين سواء عدا البابا شاويش يسير لوحده في المؤخرة، ويبدأ الطواف ثلاث مرات حول الصحن بخطوات وئيدة، ثم يدخل الأمير إلى داخل المرقد، وينصرف الباقون من صحن المعبد.

ويبدأ القوالون، ينشدون التواشيح الدينية باللغة العربية مع العزف على الدف والناي، أثناء الصماع، ثم يخرج الأمير على الجموع المحتشدة مرتدياً بزة جده الشيخ عدي، (تاج وحلي) وقد ينوب عنه سادن المعبد (سردري) وهو ملتزم أوقاف الشيخ عدي ويرتدي بقية الشيوخ الروحانيين الثياب البيض مع العمامة البيضاء وهي ثياب الإحرام وتسمى هذه اللبسة (مرزو).

وتوزع الصدقات على الفقراء في هذا العيد، ويأكل الناس الحلوى، ويزورون بعضهم بعضاً.

عيد خضر الياس:

يصادف الخميس الأول من شهر شباط، وكان المانوية والحرانية يصومون فيه لإله الشمس الرب العظيم في اليوم التاسع من شباط، وفيه لا يأكلون اللحم ولا يشربون الخمر، وهو عيد جرجاس رئيس الشياطين، ويوزعون الحبوب المسلوقة مع الزبيب واللوز.

أما اليزيدية فإنهم يعيِّدون فيه ويصومون يوم الخميس فقط، ويطبخون بعض الحبوب ويوزعونها على الجيران والمعارف(٢١).

أما هذا العيد عند المسيحيين فهو مخصص للقديس جورجيس أو جورج الذي قهر الشيطان ويرسم بصورة فارس يصرع التنين، يقول جورج حبيب «تجد هذا الاسم (جورجيس) غير محبب لدى اليزيديين»(٢٢) وأرى العكس من ذلك إنه اسم مقدس لا يتجرأون على ذكره لأن (جرجاس) هو رئيس الشيطان عند صابئة حران والمانوية.

عيد المحياة في النصف من شعبان (ليلة القدر)

يصادف في ليلة الخامس عشر من شعبان ويسمونها ليلة القدر، ويجتمعون عند مرقد الشيخ عدي ويصلي الأمير والشيوخ خمس صلوات، ويتلون في كل صلاة سورة الإخلاص مئة مرة، ويعتقدون أن هذه الصلوات تعادل في الأجر عاماً كاملاً، ويقضي بقية القوم من أطفال ونساء الليلة في قص الحكايات الشعبية بينما ينشد القوالون الأناشيد الدينية، ويروون قصة الخليفة وفي الفجر يقدم (البيش إمام) الطعام، ويقدمون له بالمقابل أموال الصدقة.

الزواج والطلاق:

الجمود الفكري، ووحدة الأخلاق والعادات، جعلتا أفراد الطائفة اليزيدية متشابهين جداً، في سلوكهم وحركاتهم بحيث يصعب علينا التفريق بينهم، ويعتقد كل فرد من أفراد اليزيدية بعلاقة نسب بينه وبين أبناء عشيرته.

والزواج عند اليزيديّة محصور داخل الطائفة فقط، كما أنه محصور أيضاً بين طبقاتهم التراتبية الدينية فلا يجوز الزواج إلا ضمن الطبقات المتكافئة أو الطبقة الواحدة، فزواج طبقة الأمراء محصور بينهم وبين أولاد أعمامهم، ولكن لكل قاعدة شواذ، فقد تزوج الأمير حسين بك بن علي من أسرة الشيخ عبدال بن بسك من سلالة الشيخ شمس الدين. كذلك أصدر البابا شيخ فتوى سمح بها للقوالين بالزواج من طبقة المريدين لكي لا ينقرضوا، والمريدون هم الطبقة الدنيا وهم خدم الشيوخ والبيرة وعلاقتهم علاقة السيد بالعبد، وزواجهم محصور بينهم، بينما كان القوالون في

الأصل من الشيوخ العـرب، ولا زالـوا يتكلمـون وينشـدون باللغـة العربيـة الـتي لا يفهمهـا معظـم اليزيديين، ولديهم علم الصدر أي أي موروث اليزيدية الشفهي، حيث لا يوجد لديهم تدويـن ولا كتابة.

وحسب كتاب القس إسحق البرطلي (من قـرى الموصـل) قـال فيـه: يجـوز الـزواج في الطائفـة اليزيدية ما بين الثانية عشرة إلى الثمانين، ويتم الزواج بوجود الشيخ الروحاني الذي يأتي برغيف خبز ويقسمه بين العروسين وبه يتم عقد الزواج، ولا يجوز لأحد العامة أخذ إحدى بنات الشـيوخ الروحانيين وعلى كل فرد أن لا يتزوج إلا من طبقته ما عدا الأمير، فله الحق في الزواج كما يشـاء. ويتم الزواج بإشهار الزواج بحفلة العرس حيث تعقد حلقات الرقص والشـرب. والطـلاق يتـم عنـد اليزيدية في حالة الاختطاف أي اختطاف حتى المرأة المتزوجة(٢٣) لأن عادة الخطف ليست عـاراً لأن هذه المسألة تسوّي بعد ذلك بالمال على يد أحد الشيوخ الروحانيين.

لا يجوز لليزيدي أن يجمع بين امرأتين إلا إذا ماتت الأولى أو طلقت أو خطفـت، والأرملـة لا ترث زوجهـا، ومهر الفتاة لوليها وإذا لم يكن لها ولي فمهرها للأمير.

وتختلف عقوبة الزنى عند اليزيدية باختلاف ديانة الزاني، فقد يسمح لها مع اليزيدي وتقتل إذا زنت بأحد الغرباء عن الطائفة، وهذا يتبع لعادة تحريم الـزواج مـن الأجـانب، ومـن عـاداتهم الحميدة يحرم على اليزيدي النظر في وجه المرأة غير اليزيدية، أو معاشرتها لأنها تعد نجسة.

ولا يكون الطلاق إلا بشهود وبحضور الشيخ والكريف والأخ بالآخرة(٢٤). واليزيدي لا يشك في زوجته، وإن رأى ما يريبه منها، فعليه أن يحمل ذلك على محمل حسن.

الحج والزيارة:

الحج لغة القصد علـى جهـة التعظيم، وهـو عنـد المسلمين زيـارة بيـت الله الحـرام بمناسـك مخصوصة، وهو على قدر استطاعة المؤمن الجسدية والمالية ومرة في العمر.

وعند اليزيدية هو كذلك زيارة المراقد المقدسة، وأهمها مرقد الشيخ عدي في قرية (عين سـفني) وعلى بعد ١٢ كم من جبل لالش، والمرقد في واد مشجر كثير المياه والعيون، ويحج إليـه اليزيديـة (٣ ـ ١٣ تشرين الأول)، وتبدأ الوفود بالزيارة قبل عشرة أيام، والمقـام عبـارة عـن قبـة مـن القـرن الخامس عشر الميلادي خالية من الزخارف سوى صورة ثعبانين في المدخل لعلهما منقولان من بنـاء أقدم وبالقرب منه يوجد مزار الشيخ حسن وهو من أحفاد الشيخ عـدي، وفي هـذا الـوادي صوامـع كثيرة لإيواء الزوار والحجاج، وفي أحد الكهوف يوجد ماء جـار يدعـى (عـين زمـزم) وهـو مقـدس يتطهرون به(٢٥)، وقد زرت هذا المرقد الشريف في عام ١٩٧٩م.

وقد ذكر يوسف مالك أنه نقش على جدران المرقد صورة للشمس والقمر والنجوم وبجانب الباب الرئيسي صورة أفعوانان كبيران، وهم يمجدون النار وهذا يدل على صلتهم بالديانة الزرادشتية(٢٦).

ويعتبر المشايخ أن من لم يزر المرقد المقدس ولو مرة في العمر فهو كافر، ويمكن أن يزار في شهر نيسان وفي شهر تموز في أعيادهم الجماعية في المنقلبات الفصلية، وهذه الزيارة تشبه أعياد صابئة حران وعيد حمة سروج، و الصابئة المندائية في دست ميسان، وزيارة المانوية لمدينة طيسفون (المدائن) جنوب بغداد، ومهما حاول الباحثون اليزيديون الحديثون إزالة الأثر الإسلامي، فزيارة المراقد المقدسة هي من تأثير إسلامي ومانوي واضح، واليزيدية بين المسلمين يظهرون أنفسهم على أنهم فرقة إسلامية. إلا مثقفيهم اليوم الذين يتلقون الهبات من الدول الغربية فيدّعون أنه لا صلة لهم بالإسلام.

الزكاة والصدقات:

الزكاة هي المال ويراد بها الطهرة أو ما يخرج من المال للمساكين بإيجاب الشرع، ومثلها الصدقة ما أعطيته في ذات، وهي في الإسلام حق معلوم للسائل والمحروم وعند بعض الفرق الإسلامية هي الخمس تعطى للإمام أو ما ينوب عنه، وهي كذلك عند اليزيدية تفرض على النصاب، ولكن يغلب عليها اليوم طابع الصدقة الخيرية وتوزع من قبل الأمير للشيخ والبير والكوجك والفقير، وهي من رسوم الشريعة المفروضة، وأحياناً تكون مرهقة على اليزيدي الفقير الذي عليه أن يدفع ضرائباً للدولة أيضاً، وتجمع الصدقات في زيارة الطاووس للمناطق، في شهر تشرين الأول، وتوزع الأموال حصصاً للأمير حصة وللعاملين على جمع الصدقات وهي على الأغلب ضمان مقطوع يدفعه القوالون الذين يرافقون الطاووس والباقي يأخذه البابا شيخ، وحصة منه تدفع لصندوق المحتاجين.

اللباس وشعار الطاووس:

كل جماعة دينية مغلقة تختص بمجموعة من المعاني والقيم الباطنية يرافق ذلك بعض الشعائر والألبسة الخاصة بهم. وإذا كان التغيّر هو قانون الحياة الاجتماعية، فإن الطائفة اليزيدية حرمت القراءة والكتابة لتتجنب سنة التغير وتحافظ على موروثها الثقافي.

واللباس أحد الشعائر الثقافية، فهو من جهة يحافظ على صحة الإنسان من عوامل الطبيعة، ومن جهة أخرى يعبر عن ثقافة الجماعة، وهو ينتقل من جيل إلى آخر، فأنت تستطيع أن ترى اختلاف الناس الثقافي من ألبستهم، فاليهودي الأصولي تعرفه من لباسه، وكذلك المسلم، ورجل السيخ والكاهن المسيحي، فكلهم يحافظون على ثقافتهم في أكثر المجتمعات تطوراً وتغيراً وانفتاحاً، معتبرين أن زيهم هو هويتهم الثقافية، ويرافق اللباس أو الزي، إطالة الشعر، فاليزيدي لا يقص شاربه، والمتدين منهم يترك لحيته وشعر رأسه على حالهما(٢٧).

واللباس وإطالة الشعر موروث حضاري، فالمانوية كانوا يلبسون الكتان الأبيض فعرفوا في البلدان قبل الإسلام وبعده (بالمبيضة) مثلهم مثل اليزيديّة الذين يغلب على لباسهم اللون الأبيض للرجال والنساء معاً. ذكر هنري ليارد «أن الشيخ ناصر كان لابساً كتاناً أبيض في غاية النظافة ومثله يرتدي رؤساء الديانة اليزيدية» ولم تقع عيني على منظر أشد روعة من صفوف الحجاج الطويل، فيهم الرجل السنجاري الأسمر بخصلات شعره السوداء الطويلة، وعينيه النفاذة، وشاربيه المتسقة في أثواب بيضاء تداعبها الريح.. وترتدي نساؤهم الحرير الثمين الأبيض، وتكاد جباههن تختفي خلف نقود الذهب والفضة، وتتدلى من أعناقهن قلائد من الخرز والنقود والحجارة المحفورة»(٢٨).

والفقراء طبقة من اليزيدية من ميزاتهم ارتداء الخرقة المباركة وهي منسوجة من الوبر أو الصوف كمسوح الرهبان، يلبسها الفقير على الجسم مباشرة، وهي عادة سوداء مصبوغة بصبغة من ورق شجرة (الزركوس) ثم يلف فوق الخرقة حزاماً صوفياً أحمر اللون يدعى (المحك) فيه حلقة نحاسية صفراء، ويلف على عنقه خيطاً رفيعاً يسمى (طوق يزيد)، ويضع على رأسه طاقية تسمى (كوليك Kulik) وهي رمز إلى تاج الشيخ عدي.

ولكن الحياة الحديثة عصفت بتقاليد اليزيدية، فالشباب منهم دخلوا المدارس وتخرجوا من الجامعات وسافروا إلى البلاد الأجنبية، وتخلوا عن كثير من شعائرهم وألبستهم، وإن احتفظوا بمعتقداتهم. فلم يعد اليزيدي يهتم بالطوق اليزيدي وصار يلبس القميص ذا الفتحة المثلثة بدلاً من القميص ذي الفتحة المستديرة، كل هذا حدث نتيجة للتطور وإهمال الشباب اليزيدي لطقوسهم لضرورات الحياة العصريّة.

لم اختار اليزيدية الطاووس شعاراً لهم؟

في الديانة التوتمية، يعتقد كل فرد من أفراد القبيلة، بعلاقة نسب بينه وبين أحد الحيوانات يسميه توتمه (Totem) لا يقدم على قتله ويحترمه.

واليزيدية لا يحملون هذا الاعتقاد التوتمي، فهم أقرب إلى العبادة الفيتشية (Fitshism) وهي عبادة صنم على صورة حيوان، وهم يحرمون ذبحه، وتقديس اسمه ويتقربون إليه بالصدقات وهذا

الحيوان هو (الطاووس)، ويحملون تمثاله في احتفالاتهم الدينية، ويعللون تعظيمهم له بآراء مختلفة:

فالباحث الدكتور سامي سعيد الأحمد يقول: «الطاووس بنظر اليونانيين القدماء، كان يمثل طير الربة (هيرا) زوجة الإله (زيوس) رب الأرباب، ولأن الطاووس في نظرهم يمثل فكرة الكلية والتكامل، لاحتوائه على كثير من الألوان الزاهية في ريشه»(٢٨) اتخذوه رمزاً لهم.

في حين ذهب الباحث صديق الدملوجي إلى القول «إن كتب السير والتاريخ تدل على أن إبليس قبل أن يطرد من الجنة كان يسمى (طاووس الملائكة) للطافة شكله، وجمال صورته، وفي اللغة العربية تأتي كلمة (طاووس) بمعنى حسن الوجه، ونضارته، ومنه اشتق اسم الطاووس، ويطلق على الوجه الجميل من الرجال، ويستدل من هذا الاسم أنه أخذ من منبع إسلامي محض، وهو عربي صرف»(٢٩).

ولكن الباحث اليزيدي هوشنك بروكا، يفضِّل التعليل الأول، ويرى أن المقارنة بين طير الربة (هيرا) عند اليونانيين والطاووس عند اليزيدية، أكثر تجسيداً لقدسية الملاك الأكبر (طاووس ملك)(٣٠).

أما المستشرق الإيطالي فورلاني، فله رأي طريف وهو أن لفظة ثيوس Theos في اللغة اليونانية تعني رب الأرباب بمعنى (الله) وهي أكثر قرباً من الاشتقاق اللغوي طاووس، وإلى مثله يذهب المستشرق الفرنسي فرنسوا نو صاحب كتاب (النصوص والبراهين على الملة اليزيديّة) يقول «إن طاووس ملك هو الإله السامي الذي كان قبل كل الموجودات، ولا نهاية له، ويسود كل الخلائق، وهو موجود في كل مكان، ويرسل خدمه إلى العالم، لكي يفرقوا بين الضلالة والإيمان، وما هذا الإله إلا (ثيوس) نفسه، ولا يخفى أن هذه الكلمة أخذها مسيحيو هذه البلاد من اليونانيين واستعملوها في صلواتهم»(٣٠).

المسيحيون لا يقرون بعبادة زيوس، ولا يذكرونه في صلواتهم لا تمجيداً ولا لعناً، ويحدثنا عنه الرسول بولس في سفر الأعمال (١٤ : ٨ ـ ١٨) عن شفاء المقعد في لسترة واعتقاد ليكاؤنيه أن بولس وبرنابا إنما هما آلهة تشبهت بالناس ونزلت إليهم، وزعموا أن ظهور الرسولين، كان تكراراً لما جاء في خرافاتهم أن زيوس وهرمس افتقدا في مقاطعتهم في سالف الأيام دعوا برنابا زفس (زيوس) وبولس هرمس إذ كان هو المتقدم في الكلام، وخرج كاهن زيوس من هيكله بالثيران والأكاليل ليذبحهما أمام الرسولين ويسجد لهما، ولكن الرسولين طلبا منه أن يرجع عن هذه الأباطيل. ولا أرى تشابهاً بين اسم زيوس أو زفس واسم الطاووس الاسم العربي الصريح، ولكن الباحثين اليزيديين يحاولون عن قصد وتصميم ربط هذه الديانة بالديانة الزرادشتية أو الديانة الإغريقية القديمة، وحججهم واهية لا تصمد لأي نقد فكري أو تاريخي. ولكن اكتشفت البعثة الألمانية في تل البيعة في ظاهر الرقة، أرضية من الفسيفساء فيها صورة طاووسين جميلين في دير مارزكا.

في الأعياد الجماعية يخرج اليزيدية تمثالاً أقرب إلى شكل الديك ويسمونه (طاووس ملك) يطوف به القوالون في القرى اليزيدية، ويجمعون بواسطته الصدقات (الفيتو Fitu) ويبيعون البراتا (وهي كرات صغيرة من تراب الشيخ عدي) وماء عين زمزم (كاثيا سيبي)، ومعناها العين البيضاء، ويطوف مع القوالين وكيل الأمير لجباية الهبات والتبرعات التي تجبى ثلاث مرات في السنة في نيسان وتموز وتشرين أول.

يطلق على تمثال (طاووس ملك) اسم السنجق وهي سبعة سناجق بعدد آلهتهم السبعة، وفي عام ١٨٨٩ قام الفريق عمر وهبي باشا بحملة واستولى على أربعة سناجق وأرسلها إلى بغداد ثم أعيدت إلى مقرها في قرية الإمارة في (باعذرى) سنة ١٩٠٨.

وتطوف هذه السناجق في المدن والقرى التي فيها اليزيدية في الموصل وديار بكر وأورفا وعينتاب وحلب وأطراف العجم وسنجار. أما (طاووس عنزل) فيبقى في قرية باعذرى وأظن أن اسمه الحقيقي (طاووس عزازيل)، وله أناشيد ترتل على عزف الدفوف والمزامير ويحفظ مع السناجق المقدسة في (خزينة الرحمن) والتي يسميها العوام منهم (فاني طاووس) يقول الأستاذ درويش حسو «(ويجب أن يكون باب هذه الخزنة مفتوحاً بصورة دائمة لاستقبال الزائرين ولا يجوز تحريكها من مقرها»(٣١) إلا في الأعياد ويبقى طاووس عنزل في مكانه.

يمشي القوالون وهم يطوفون بالسنجق (طاووس ملك) حفاة، ويسير معهم المستقبلون لهم حفاة أيضاً تقديساً للزائر المقدس، ويطوفون حوله سبع مرات وأيديهم على صدورهم وهم ينصتون خاشعين لأناشيد القوالين التي هي مزيج من اللغتين العربية والكردية، ويضعون السنجق في منزل من يعطيهم أكثر من الصدقات وهذه الزيارة المباركة تحمي المنزل وأصحابه بل والقرية كلها من أي شر أو مكروه.

حاول الباحث اليزيدي هوشنك بروكا أن يؤرخ لطاووس ملك، ومما قاله «أن طائفة الدروز تعتقد بأن طير الطاووس كان الرسول الخادع لأبويهم (آدم وحواء) والكتّاب الدروز يطلقون اسم الطاووس على مبتدعي المذاهب المخالفة لمبادئهم، ويتطابق طاووس اليزيدية مع العجل المقدس عند الدروز»(٣٢). إن العجل لا يقدس عند الدروز بل هذا المصطلح يطلقه الدروز على كل مخالف لمعتقدهم ويطلقون عليه (الضد أو العجل)، وفي عام ١٩٩٦ زرت المرحوم زيد الأطرش في داره، وجرى بيننا حديث قال فيه «قال لي أحد الإخوان من طائفة السنة، أنتم تعبدون العجل، فقلت له: إنشاء الله نذبحه لك». فالعجل هو الضد في (ديانة التوحيد الدرزي) التي ترتفع عن مثل هذه الخرافات المانويّة. في زمن الجاثليق النسطوري طيمثاوس (٧٨٠ ــ ٨٢٢) ظهرت بدعة في أحد أديرة الموصل (دير الطواويس) وقد فرض عليهم مطرانهم شمعون الانقطاع عن اللحم وارتداء الثياب البيض، لميلهم إلى عبادة الشمس، وتربية الطواويس، وفي دير الشياطين قرب الموصل في فم

الوادي، كان رهبانة نصارى أيضاً ثم أغواهم الشيطان فورطهم في الغرور ودانوا إلى عبادته(٣٣) وكانوا يربون الطواويس أيضاً ويرون فيه أنه عبد للسيد المسيح.

وكان المانوي عندما يسافر يحمل معه ديكاً ليذكره بطلوع الشمس وغروبها، وديك العرش أحد الرموز التي كانت شائعة عندهم. وأظن أن اليزيدية استعاروها عن المانوية أو الإسلام.

الحلال والحرام:

يقول إميل دوركهايم «إن أظهر ما في الديانة، تقسيمها الأشياء والأمور إلى فئتين متناقضتين هما (الحلال والحرام) وجل ما يقال على الرجل الكافر، أنه لا يعرف الحلال والحرام»(٣٤).

الحلال هو المباح شرعاً وديناً، والحرام ما كان ممنوعاً بالقهر والقانون أو المحظور شرعاً كقوله تعالى «من يشرك بالله فقد حرّم عليه الجنة» المائدة: آية ٧٢. «وحرمت عليكم الميتة» المائدة: آية ٣. «وحرمت عليكم أمهاتكم» النساء: آية ٢٣. والديانة تعلم المؤمنين بها التمييز بن الحلال والحرام، والحلال ما كان غير مقدس وغير نجس ويستطيع المرء ملامسته دون أن يخشى عاقبة عمله. ولا يجوز للإنسان أن يمس الأشياء المقدسة إلا في حالة طهارة تامة، فالقرآن لا يمسه إلا المطهرّون، وكذلك الأشياء النجسة لا يجوز لمسها أو أكلها إن كانت طعاماً، كالميتة أو لحم الخنزير بالنسبة لبعض الديانات، وعليه فالحرام ما كان نجساً قذراً، وقد «حرّم الله الخبائث ما ظهر منها وما بطن». وفي الديانة اليزيدية رموز وتصورات تعبر عن طبيعة الأشياء المحرّمة، وعلاقتها بالأشياء المقدسة، جاء في كتاب مصحف رش «المحرمات على ملة عزازيل»:

- حُرِّم علينا الخس لأنه على اسم نبيتنا الخاسيّة، واللوبياء، والنيلة الزرقاء.
- ولا نأكل السمك لأجل احترامنا ليونان النبي، والغزال لأنه غنم أحد أنبيائنا.
- أما الشيخ عدي وتلامذته فهم لا يأكلون لحم الديك احتراماً لطاووس ملك، الذي صورته تمثال الديك، والشيخ وتلاميذه لا يأكلون القرع (لأن شجرة اليقطين أظلت نبي الله يونان).
- وحرام علينا البول وقوفاً، ولبس الثياب قعوداً، والاستخلاء في الأدب خانة (المرحاض) والغسل في الحمّام، لأن من عادة الصابئة (المغتسلة) الاستحمام بالماء الجاري وإلى هذا يذهب اليزيديّة.
- ولا يجوز أن نلفظ كلمة شيطان لأنه اسم إلهنا، ولا كل اسم يشابهه مثل قيطان وشط وشر، ولا لفظة ملعون، ولا لعنة ونعل وما أشبه ذلك جميعها احتراماً له، فما تعليل ذلك؟

في الديانات القديمة، كان اسم الله الأعظم يظل سراً لا يطلع عليه إلا الكهنة، الذين هم العارفون باسم الكائن الأعلى، ويحرم على العامة التلفظ به، وقد سمح الرب لموسى عليه السلام وهو على جبل حوريب أن يذكر اسمه أمام الشعب «هكذا تقول لبني إسرائيل، يهوه إله آبائكم أرسلني إليكم» (سفر الخروج ٦ : ٣) ومنذ عودة بني إسرائيل من السبي منعوا من تدنيس اسم (يهوه) بالنطق به وأصبح لا يستطيع التلفظ به إلا رئيس الكهنة عند تلاوة الصلاة وإعطاء البركة في الهيكل، واستعاضوا عن النطق به بأسماء أخرى أهمها (أدوني) أي الرب والسيد، كما هو الحال عند اليزيدية لا يجوز التلفظ باسم الإله الأعظم، الذي هو (الشيطان).

ذكر المسلمون (لله) سبحانه وتعالى تسعة وتسعين اسماً، وأما الاسم الأعظم فقد ظل سراً، لا يعرفه إلا العارفون الذاكرون، ومن عرفه ابتلي بالحياة الدنيا، كالحلاّج وأبي جعفر بن علي الشلمغاني الذي يقال له ابن العزّافة وقد ضرب عنقيهما في خلافة الراضي سنة (٣٠٦هـ/ ٩١٩م) ومن قبل حاول أبو يعقوب الرازي (المتوفي ٣٠٤هـ/ ٩١٧م) التعرف على اسم الله الأعظم، لأن من عرفه سخر الله له الكون وما فيه، وبلغه أن أبا الفيض ذا النون المصري (المتوفي ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) يحفظ الاسم الأعظم، فقصده ليعلمه ذلك السر، فخدمه سنة كاملة، ثم سأله أن يطلعه على الاسم الأعظم، فأجلّه ستة أشهر تالية، ثم أخرج له طبقاً عليه مكبّة، مستوراً بمنديل، وقال له «اذهب بهذا الطبق إلى صاحبنا (فلان). قال أبو يعقوب «فجعلت في الطريق أفكر! ما هذا الذي أرسلني به؟ فلما وصلت الجسر في بغداد، فتحته، فإذا فأرة قد فرت فاغتظت وقلت في نفسي «ذا النون قد سخر مني» ورجعت وأنا حانق فقال لي «ويحك إذا لم تكن أميناً على فأرة، فكيف تكون أميناً على اسم الله الأعظم»(٣٥). ويروي الصوفيّة عن الرسول (ص): «أنا اسم الله الأعظم ولا اسم أعظم مني»، وقال تعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه» (سورة الأعراف، آية: ١٨٠).

يذكر المسلمون لله الأسماء الحسنى، ولا يذكرون اسم الله الأعظم، الذي هو عند اليزيدية، اسم (الشيطان) الذي لا يجوز التلفظ به، ومما يروى أن الشيوخ من أسرة (الشيخ حسن) يقتنون القرآن الكريم ويقرؤونه ولكنهم يطمسون كلمات (التعوذ واللعنة والشيطان) زاعمين أن المسلمين زادوها كيداً للديانة اليزيدية، وأن حذفها لا يؤثر على سياق الآيات العام(٣٦).

نستخلص مما سبق، أن المحرمات عند اليزيدية لارتباطها بالمقدس، وليست نتيجة لما هو نجس وغير طاهر، ويرددون قول ذا النون المصري «من يذكر الله على الحقيقة، نسي في جنب ذكره كل شيء»، ويعتبرون أنفسهم هم المالكون لاسم الله على الحقيقة.

والديانة اليزيدية مجموعة متكاملة من العقائد والفرائض والأعمال المتعلقة بالأشياء المحرّمة، وهي محكمة الربط فيما بينها تضم مجتمع خلقي واحد، وكل الذين يتصلون بهذه الديانة، يسلمون لهم بنفس الأمور التي ذكرتها من قبل.

ولدى اليزيدية عادة (الحرم) وهي أن الرجل الذي يحرِّم الأمير الالتقاء به يصبح منبوذاً، وينظر إليه باحتقار، وتبتعد عنه زوجته وأطفاله، حتى يرضى عنه الأمير وتعود إليه كرامته.

ولدى اليزيديين عادة التآخي (الكريف) وتحدث عندما يختن أحدهم ابنه في حضن الآخر ويمكن أن يكون الآخر يزيدياً أو مسلماً، ويسمى هذا الرجل (كريف الدم) واليزيدي يحافظ على هذه الصداقة المقدّسة وهي كالأخوة في الرضاعة عند المسلمين.

ولدى اليزيدية عادة تشبه العماد في المسيحية وهي أن يغسل الطفل سبعة أيام من الماء الذي ينبع من مرقد الشيخ عدي. ولديهم بعض المراسم للتخلص من المحرّم بغية الوصول إلى المطهّر منها:

الغسل بالماء، فهي التي تطهِّر الجسد، والماء المقدس من نبع الشيخ عدي إن كل ما تمسه أيد مسلمة فإنه يغسل في الماء المقدَّس ويطهَّر(٣٧)، والماء يطهر الإنسان الجنب، والزوجة بعد الولادة والحائض. والنار هي مطهرِّة، للأشياء المحرَّمة، وهناك طقوس للنار.

ـ والدم في الختان رمز لتطهير الإنسان من الخطيئة الأولى، وهناك الذبيحة أو القربان يقدمها الإنسان لإرضاء أرواح الآلهة السبعة، لأن الأرواح بتقديم القرابين تصبح مضطرَّة للصفح والغفران، ربما أخذوا هذه الشعيرة عن الديانة المسيحية فالكاهن المسيحي يقول في القربان المقدس «خذوا واشربوا هذا هو دمي الذي يهرق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا».

طقوس الموت والدفن:

قال هوميروس (النوم صنو الموت) وقوله هذا يدل على إيمانه بالتناسخ الذي عرفته الديانات الشرقية، والتي ظلت تمارس طقوسها حتى بعد زوال تلك الديانات، وكانت الديانتان الصابئية والمانوية تؤمنان بالتناسخ، وأن نفس الميت عند خروجها من الجسد تظل تحوم حول البيت لمدة سبعة أسابيع وعلى أهل الميت تقديم الطعام (عشيات الموتى) ويسمى هذا الطعام بالصدقة (اللوفاني)، وهذا الاعتقاد نجده كذلك عند اليزيدية.

وحين الوفاة يحضر وفاة الميت اليزيدي رجل روحاني من طبقة (الكوجك) ليضع في فمه شيئاً من (البراتا) قبل دفنه(٣٨) لأن للدين كما يرى الباحث الفرنسي (ميريل) وظيفة هي أن يجعل للحياة معنى عند المؤمن به، والدين هو الذي يهيئه لمصيره باستخدام العزاء من القوى الغيبيّة(٣٩). ومن طقوس العزاء التي يمارسها اليزيديّة ما يلي:

من عاداتهم أن يتخذ كل يزيدي أخاً أو أختاً للآخرة فمن واجبهما أن يقفا عند رأسه حين احتضاره ويقوم الأخ بمساعدة الشيخ بغسله والإشراف على تكفينه، وتغلق كل فتحات جسده بالقطن وأن توضع (البراتا) على جبينه وعينيه ويدفن ووجهه إلى الشرق، وفي الأيام (الأول والثاني والثالث والسابع والأربعين) بعد الوفاة تعمل صدقات (طعام لروحه) وتوزع على الفقراء، وقد تقص النسوة جدائلهن وتعلق على شاهدة القبر. وإذا كان الميت من طبقة الأمراء يدفن بثيابه ويجهّز له سرير في قبره(٤٠) ويتلو القوالون الأدعية والأناشيد الدينية على القبر، بينما النساء تلطم وتنوح من خلفهم ويستمر ذلك ثلاثة أيام.

وحسب كتاب القس إسحق البرطلي «عندما يضعون الجنازة عند القبر يقف الإمام وينحني على التابوت ويقرأ عليه سورة من كتاب قرآن السلام. هذا ما كان يجري في الماضي (في القرن التاسع عشر) أما اليوم، فقد بطلت هذه العادة، واستعيض عنها بكشف رأس الميت وإدارة وجهه نحو الشرق ثم يدلك جسمه بتراب الشيخ عدي وبعد ذلك يدفن بكل وقار.(٤١).

ومن عاداتهم أن يلتمس من الكوجك أن يتعرفوا بواسطة الأحلام عن مصير روح الفقيد، وفي اليوم الثاني أو الثالث يخبرهم أنه رآه يولد في جسم فرد من ملته، إن كان صالحاً وإلا أخبر أنه دخلت روحه في جسد كلب أو حمار، أو دخلت في جسم رجل مريض.

روى القس إسحق عن أحد مشايخهم الكبار أنه «ذهب إلى بلدة (رضوان) ليجمع الصدقات من مريديه، واستقبل بترحاب كبير، وحين جلسوا إلى الطعام لمح الشيخ الروحاني الكبير، على باب الدار كلباً مصاباً بالجرب، واقفاً خارج الدار وعيناه مغمضتان تدمعان، فأمر الشيخ الخدم بوضع الطعام أمام الكلب، فتقدم رب الدار معتذراً عن عجزه عن تقديم طعام أفضل، ولكن الشيخ أجابه «كلا يا بني الأكل جيد ولذيذ ولا يعوزه شيء، والآن هاتوا ما يتيسر لديكم فآكله وأنا راض».

ولكن صاحب الدار سأله: ما الذي دعاك أن ترمي بالطعام إلى الكلب، فقال الشيخ: «أنتم تجهلون بواطن الأمور، ألا تعلمون أن روح هذا الكلب هي روح الشيخ (الفلاني) شيخ منطقة المرج؟ ذلك الشيخ الذي خاصمني مرة فوبخته وأرسلت روحه إلى هذه المنطقة التي لا يعرفه فيها أحد، ليصلي ويدعو له، وبذلك عذبته عذاباً هو في الحقيقة عذاب جهنم، ألم تروا أنه كان يبكي وينوح راجياً مني أن أخلصه وأعيده ثانية إلى جسم إنسان؟ لقد سمحت له الآن بالعودة إلى وطننا وطائفتنا وتركته ليولد في جسم إنسان من طائفتنا»(٤٢). وقد روي عن فيثاغورس مثل هذه الحادثة.

يذكر الدكتور خلف الجراد مقتطفات من صلاة الأموات:

«يا ابن آدم المسكين، يا ابن آدم الفقير، ما هذه الدنيا إلا دار للسكارى، إنها مثل حلم الليالي، مثل الفلك الدوار، مثل ظل الأشجار، أين سليمان الحكيم؟ أين بلقيس الذي ذاع اسمها؟ لك البقاء وحدك يا رب، إنهم تركوا الدنيا، أين الدرويش حامل المسبحة ذوالوقار؟ لك البقاء وحدك يا رب».

يا ابن آدم لا تكن طماعاً في هذه الدنيا، لا تجمع المال والذهب جمعاً لمّا، لم تدم الدنيا حتى لرسول الله، أين حمزة وأين علي وأين الأنبياء وأين الأولياء؟ إنهم يرقدون في قبورهم كالمومياء، ألوف الحسرات والويلات على عدم خلود ذوي الأخلاق الفاضلة، والشفاه المعسولة لكي يحدثونا، لتنهمر دموعنا بغزارة، فالألم والبكاء لا يفيدان، والقبر والكفن هما المفيدان المكتوبان لنا»(٤٣) هذا الدعاء يشير إلى أصولهم الإسلامية.

ويذكر لنا الأستاذ سعيد الديوه جي، صلاة الميت بصورة قريبة من الصورة السابقة:

«بسم الله (يزدان) العلي العظيم، الرحيم الكريم.

يا بني آدم، أيها المسكين الفقير، هذه الدنيا مخمر الناس والحياة مثل الرؤيا والفلك مثل ظل الشجر يستظل به كل يوم واحد من الناس، أين سليمان الحكيم؟ وأين بلقيس المشهورة، الله يرحمهم ذهبوا من الدنيا، تعيش أنت أصبح القبر مسكنهم. أين الخضر بن الياس؟ أين الدراويش أصحاب السبحة والمتكآت؟ تعيش أنت أصبح القبر قميصاً وكساء لهم(٤٤).

اللهم إنك القادر، أن تفرق المحب من الحبيب، تعالوا أيها الإخوان والأقارب لنبكي على هذا الحال، ولنتفكر في هذا الميت الذي كان بالأمس مثلنا يضحك ويتكلم والآن أصبح كالجماد لا يتحرك ولا يفهم ولا يشعر بشيء، لا تبكوا ولا تتأوهوا لأن هذه الدنيا لم تبق لنبي ولا لولي»(٤٥).

الجنة والنار:

لا ذكر للجنة والنار في كتابي اليزيدية (الجلوة ومصحف رش)، ويمكننا الاستنتاج من اعتقادهم بتناسخ الأرواح، أن الموت عندهم هو ترك النفس لاستعمال الجسد، والقيامة قيامتان، الصغرى، هي يقظة النفوس الجاهلة وإيمانها بربها، والقيامة الكبرى التي تتم بنهاية كل دور، والأدوار لا نهاية لها، ويحدث في كل دور ما حدث في الدور الأول، والثواب والعقاب ما تلاقيه النفوس من عذابات أو نعيم في هذه الدار، وفي القيامة الكبرى ترتفع الأرواح إلى باريها في عالم المجرة الذي هو غيب لا يدرك، وهناك تلتقي بربها وتنال السعادة الدائمة. قال الرب في كتاب الجلوة ف٤: ٧: «إن الذين يحتملون المصائب بسببي لا بد أن أكافيهم بأحد العوالم». أي بأحد الأدوار المتعددة، قال الرب في كتاب الجلوة ف٣: ٨: «تدبيِّر العوالم وانقلاب الأجيال، وتغيير كل مدبرّيهم منظومة مني منذ القديم»، لأن للأرض تاريخ قديم، وهذا الدور قد ابتدأ منذ سبعة آلاف سنة، وقد ابتدأ بسكنى آدم وحواء، وقد كان من قبل مسكوناً من قبل الملائكة قبل الإنسان، جاء في كتاب مصحف رش «ثم نزل الرب إلى الجبل الأسود، وخلق ثلاثين ألف ملك وفرقهم ثلاثة فرق، وقد عبدوا الله أربعين ألف سنة ثم أرسلهم إلى طاووس ملك وصعد بهم إلى السموات». وفي هذا الدور خلق الله آدم وحواء في الجنة وأنزلهم إلى الأرض وأوكل أمرهم إلى طاووس ملك لهدايتهم وتدبير أمور معائشهم، وعيّن لهم الملوك وهم نسروخ ناصر الدين، وكاموش

وهو الملك فخر الدين وأرطيموس وهو ملك شمس الدين، ثم صار لهم ملكان شابور الأول وشابور الثاني، ومن نسلهما قام أمراؤنا إلى الآن». وكان الرب «ينزل إلهاً من الآلهة السبعة، ليضعوا القوانين والشرائع ثم يصعدون إلى مكانهم، وفي هذا الزمان نزل الله عندنا (ملة عزازيل) أكثر من الزمان الماضي، وثبت لنا الأولياء وكان يكلمنا باللسان الكردي».

النفس والتناسخ:

الروح هي النفس، والروح الحيواني جسم لطيف، وجوهر لا يتجزأ، وهي مقدسة لصدروها عن الرب الأول، وهي لطيفة لا مادية، وهي باقية تنتقل من جسد إلى آخر بالتناسخ، وهي المدبِّرة للجسد، «قال الرب: لا أسمح بسكنى هذا العالم الأسفل، أكثر من الزمن الذي حددته، وإذا شئت لأحد أرسلته تكراراً إلى هذا العالم بتناسخ الأرواح».

ويسترضي اليزيدية أرواح الموتى والصالحين منهم خاصة بالأدعية والبخور والدخاخين، وقد صوّر الشاعر الألماني جوته تلك النفس التي تسكن جسد مفستوفيلس (إبليس) بقوله: «أما أنا فيسكن جسدي روحان مشاربهما متباينة وتحاول كل واحدة أن تبين عن الأخرى،

الروح الأولى «دنيئة» تلتصق بأديم الأرض، وتتعلق بأهداب هذا العالم.

والروح الأخرى «طمّاحة» تندفع محلقة في السماء، صاعدة إلى مسرى النجوم.

فيا ليت الأرواح السابحة في الهواء، تهبط إليَّ وتنتشلني من وهدة الشر وترمي بي إلى أقطار جديدة ذات ألوان». هذا الاعتقاد نجده عند اليزيديّة.

المراقد المقدّسة:

في جبل مقلوب الواقع شرق الموصل، كهوف مقدسة، ومغائر وقبور شيّدت حولها معابد، لأن القبر هيكل مقدس يضم رفاة أحد القديسين أو القديسات أو أحد أولياء الله الصالحين، والقبر والمرقد هو بمثابة البيت للأحياء، لأن أولياء الله أحياء عند ربهم، ومراقد أئمة اليزيدية هي مزارات ومحج للأتباع والمؤمنين. ويرى الفيلسوف الإنكليزي هربربت سبنسر «أن الديانة الوثنية نشأت عن احترام الأموات وعبادتهم ولاعتقادهم أن للجسد الميت حياة أخرى يحياها في ظلام القبر ما ظل الجسد سالماً». ويزعم بعض عرب الجاهلية أن روح الميت تصير (هامة) طائر بوم تلازم قبر الميت، قال ثوبة بن الحمير في حبيته ليلى الأخيلية:

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت   عليَّ وفوقي جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة، أو زقا   إليها صدى من جانب القبر صائح

ومن أهم هذه المراقد المقدسة عند اليزيدية:

١ ـ مرقد الشيخ عدي:

الذي تحول إلى معبد مقدس في جبل لالش، يقع في منطقة كثيرة العيون وتجري من تحته الأنهار وتظلله الأشجار، وفي هذا الوادي المقدّس، طريق محفوف بالأشجار وعلى اليزيدي الزائر عند دنوه من جسر الصراط خلع حذائه لأنه وصل إلى المكان المقدّس، وفيه يحرم الرفث والفسوق وشرب الخمر، وصيد الطيور والحيوانات فهي آمنة بحماه، وفي داخل المعبد تنار القناديل بالزيت (السيرج)، ويحرق البخور ومن داخل غرفة في المعبد تنبع مياه زمزم (العين البيضاء)، وإلى هذا المرقد يحج اليزيدية من أماكن بعيدة ولو مرة في العمر، وعنده تقام أعياد الجماعية الثلاثة.

٢ ـ مزار الشيخ محمود حنيفة:

الواقع في بعشيقة، يزار في يوم الجمعة الأول الذي يعقب عيد رأس السنة اليزيدية (سر صالي)، ويظل القوّالون ينشدون ويطوفون حول المزار إلى الفجر، ثم يجتمع القوم رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً ومعهم الأمير وكبار الشيوخ وتقوم حلقات الرقص (الجوبي) وتعطى أفضل جائزة للراقص الأول (Govend)، ويقدم الطعام للزوّار حيث تنحر الثيران البيضاء والخراف، ويحضر هذا العيد المسلمون والمسيحيون، ومما شاهده القس إسحق «لصق النقود على وجه أية فتاة أو امرأة في حلبة الرقص» وإذا سقطت قطعة نقود التقطها العازفون.

٣ ـ مزار الشيخ شرف الدين:

هذا المزار في سنجار، وتشترك فيه عشائر (جوان وخوركان) ويحضر كثير من المسلمين والمسيحيين، وعنده تفصل الخلافات العشائرية.

٤ ـ مرقد الشيخ محمد رشان:

يقع في السفح الشرقي من جبل مقلوب. ولهذا الشيخ كراماته الكثيرة، يستسقى به المطر فعده اليزيدية إلهاً للمطر، ولا يتدخل الأمير في شؤون هذا المرقد ولا في نذوره وخيراته، وإنما يتدخل فيه البابا شيخ. ذكر القس إسحق «شيخ محمد رشان الموجود في سفح جبل مار متى أكثر الرؤساء اقتداراً ولهذا لا يجرأ أحد أن يحلف باسمه كاذباً».

٥ ـ مزار الشيخ قضيب البان:

هو أبو عبد الله الحسين بن عيسى ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن عليٍ بن أبيٍ طالب، كان صديقاً للشيخين عدي بن مسافر والشيخ عبد القادر الكيلاني، وكان عابداً زاهداً توفي في سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م ويدعوه ابن الغوطي بأبي محمد علي بن محمد الكردي الموصلي الزاهد، له مزار

٦ ـ مزار الست نفيسة (في قرية بعشيقة):

عندها شجرة تين يذهب إليها المصاب بالحمى ويتضرع إليها فيشفى بإذن الله. والمزارات عندهم كثيرة، ذكر الدكتور خلف الجراد حوالي ستة وثلاثين مزاراً وحوالي أربعة عشر مرقداً مقدسة كلها تشفي من الأمراض وتلبي حاجات المتضرّعين إليها.

من آداب السلوك عند اليزيدية:

ـ إذا كان القلب طاهراً، فكل شيء يغدو طاهراً.

ـ على اليزيدي أن يحفظ لسانه من الشتائم والزلل.

ـ لا يجوز لليزيدي مدّ رجليه في وجه الجالس أمامه، ولا يجوز له أن يبصق على الأرض ولا على النار ولا في وجه أي إنسان أو كائن حي.

ـ ولا يجوز لليزيدي التبول في الماء أو النار، ولا يجوز له الدخول إلى المرافق الصحيّة، (كالمرحاض والحمام) ولا المدارس التي يدرّس فيها القرآن الكريم، (كان هذا سابقاً) قبل عام ١٩٣١.

ـ لا يجوز لليزيدي التحدث عن دينه أمام الأغراب، وأصبحوا اليوم يتحدثون عن دينهم أمام من يثقون به.

ـ لا يحق لليزيدي احتقار زوجته ما لم يبدر عنها عمل مشين وغير مقبول.

ـ ويحترم اليزيدي الدائرة وطوق الحقيقة (كريفان راستبي) وكان اليزيدي إذا حوّط عليه شخص آخر بدائرة يصبح أسيراً فيها إلى أن تمحى الدائرة عنه. فما تعليل ذلك؟

يرى بعض اليزيدية أن تلك الدائرة تعود إلى الشيخ عدي بن مسافر الذي كان من عادته أن لا يخرج إلا ومعه عكازته التي يخط بها دائرة لمريديه، وكان يدعوهم للجلوس فيها ليرشدهم وينوّرهم ويحثهم على تجنب النفاق والرياء.

أما تعليل الباحث اليزيدي هوشنك بروكا فهو التالي «بعد أن تزهد الشيخ عدي وقضائه أربعين يوماً وهو صائم اهتدى بالنور الإلهي الذي نزل عليه بصورة قرص مستدير محتضناً روحه، وما الطوق إلا رمز لقدسيّة ذلك النور»(٤٦).

والتعليل التاريخي السليم، هو أن الدائرة المقدسة كانت من شعائر الديانة المانوية، وكان المانوي إذا ارتكب جرماً (كالكذب أو الزنا) يحجره الكاهن ضمن دائرة يرسمها من حوله وكان هذا كافياً لعزله عن الوسط المحيط به، ويعلل أبو الريحان البيروني ذلك «أن الدائرة رمز للدائرة المنتظمة التي رسمها ماني بقطر أربعة أذرع دون أن يستخدم أي أداة»(٤٧).

والتعليل التاريخي السليم، هو أن الدائرة المقدسة كانت من شعائر الديانة المانوية، وكان المانوي إذا ارتكب جرماً (كالكذب أو الزنا) يحجره الكاهن ضمن دائرة يرسمها من حوله وكان هذا كافياً لعزله عن الوسط المحيط به، ويعلل أبو الريحان البيروني ذلك «أن الدائرة رمز للدائرة المنتظمة التي رسمها ماني بقطر أربعة أذرع دون أن يستخدم أي أداة»(٤٧).

مراجع الفصل الثاني: أهم طقوس وأعياد اليزيدية

١ ـ مذهب فرويد ص١٥٣، مانوي، ترجمة هنري عبودي، دار الحقيقة ـ بيروت ١٩٧٩.

٢ ـ علم الاجتماع الديني ص٢٣، يوسف باسيل شلحت، مكتبة الآمنية ـ حلب ١٩٤٦.

٣ ـ حكمة الإشراق ص٣٥٧، السهروردي، نشر هنري كوربان ـ باريس.

٤ ـ دراسات في المثيولوجيا الإيزيدية ص١٧، هوشنك بروكا، إصدار خاص ـ برلين ١٩٩٥.

٥ ـ المصدر السابق ص٢٤.

٦ ـ المصدر السابق ص٢٥.

٧ ـ محاضرات في جغرافية العراق ص٤٣٣، د. جاسم الخلف ـ بغداد ١٩٧٦.

٨ ـ الآثار الباقية ص٣٢٢، البيروني، تحقيق إدوار سخاو ليبزيج ١٩٢٣.

٩ ـ تلبيس إبليس ص٨٤، ابن الجوزي، تحقيق محمد خير علي، دار المعارف ـ لبنان.

١٠ ـ اليزيدية واليزيديون ص١١٧ و١١٨، د. خلف الجراد، دار الحوار ـ اللاذقية ١٩٩٥.

١١ ـ الفهرست ص٣٨٩، ابن النديم، نشر رضا تجدد ـ طهران ١٩٧١.

١٢ ـ اليزيدية واليزيديون ص١٧٠.

١٣ ـ دراسات في ميثولوجيا الديانة الإيزيدية ص١٥٢.

١٤ ـ رسائل إخوان الصفا جـ٤ ص٢٦٦، نشر بطرس البستاني، دار صادر ـ بيروت ١٩٥٧.

١٥) Layard. A. H. Nineva and its Remains, vol I p. 305 London 1849.

١٦ ـ إخوان الصفا جـ٤ ص٢٦٧.

١٧ ـ الآثار الباقية ص٢٤٩.

١٨ ـ اليزيديون في حاضرهم وماضيهم ص١٢٢، عبد الرزاق الحسني ـ بغداد ١٩٤٦.

١٩ ـ المصدر الساق ص١١٦.

٢٠ ـ الإزداهيون اليزيديون ص١١٤، درويش حسو ـ بون/ ألمانيا ١٩٩٢.

٢١ ـ اليزيديّة واليزيديون ص١٨١.

٢٢ ـ اليزيديّة بقايا دين قديم ص١٨٠، جورج حبيب، دار بترا ـ دمشق ١٩٩٦.

٢٣ ـ المصدر السابق ص١٢٨.

٢٤ ـ اليزيدية واليزيديون ص١٢٨.

٢٥ ـ المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة ص٤١، طه باقر وفؤاد سفر، وزارة الثقافة ـ بغداد ١٩٦٦.

٢٦) The British betrayal of the Assyrian, p. 129, Yusuf Malek, Chicago 1935.

٢٧ ـ اليزيديون والديانة اليزيدية ص٩١، شاكر فتاح، ترجمة دخيل شمو الحكيم ـ بيروت ١٩٩٧.

٢٨ ـ هنري ليارد جـ١ ص٢٨٣ بالإنكليزية.

٢٩ ـ اليزيدية ص٩، صديق الدملوجي ـ الموصل ١٩٤٩.

٣٠ ـ دراسات في ميثولوجيا الإيزيدية ص٦٠.

٣١ ـ الإزداهيون اليزيديون ص٦٨.

٣٢ ـ دراسات في ميثولوجيا الديانة اليزيدية ص٥٥.

٣٣ ـ ذخيرة الأذهان جـ١ ص٢٨٩، بطرس نصري الكلداني ـ الموصل ١٩٠٥.

٣٤ ـ علم الاجتماعي الديني ص٢٤.

٣٥ ـ البداية والنهارية جـ١١ ص١٢٧، ابن كثير، مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٧٧.

٣٦ ـ اليزيديون في حاضرهم وماضيهم ص٥٣.

٣٧ ـ اليزيديون والديانة اليزيدية ص٦٢.

٣٨ ـ رسائل إخوان الصفا جـ٣ ص٣٨٥.

٣٩ ـ اليزيدية ومنشأ نحلتهم ص٢٩، أحمد تيمور باشا، المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٢هـ.

٤٠ ـ علم الاجتماع ودراسة المجتمع ص٤٨٣، د. كمال دسوقي، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧١.

٤١ ـ اليزيديون والديانة اليزيدية ص٦٦.

٤٢ ـ اليزيدية بقايا دين قديم ص١٣١.

٤٣ ـ المصدر السابق ص١٣٥ ـ ١٣٦.

٤٤ ـ اليزيدية واليزيديون ص١١٦.

٤٥ ـ اليزيدية ص١٥٩، صديق الدملوجي ـ الموصل ١٩٤٩.

٤٦ ـ دراسات في ميثولوجيا الديانة اليزيدية ص١٣١.

٤٧ ـ الآثار الباقية ص١١٨.

الفصل الثالث

وقائع وشخصيات تاريخية

- المدخل للفصل
- شخصيات عدوية هامة.
- وقائع وأحداث يزيدية.

المدخل للفصل:

اليزيدية دين قبلي، لا يتجاوز حدود المنطقة التي يعيشون فيها، (جبال الهكارية وسنجار في العراق، وجبل الأكراد في سورية). وكل عشيرة من عشائرهم الكرديّة، لها وجهاؤها الذين يتمتعون بحقوق وراثية، انتقلت إليهم عبر اللغة والدين اللذين لعبا دوراً هاماً في تطور عاداتهم وتقاليدهم وبذلك ينطبق عليهم قول العالم الألماني جاكوب غريم «إن لغتنا هي هويتنا وتاريخنا في الوقت نفسه». وقد ساهمت الأحداث التاريخية في خلق رابطة ثابتة، نتيجة عيشهم المشترك لعدة أجيال، فهم (أثنوس) جماعة سلالية يتميزون عن غيرهم باللغة وبشعورهم أنهم من أصل واحد، لا يريدون الاختلاط بغيرهم فهم يحرِّمون الزواج إلا من داخل الأثنوس الخاص بهم، ويميزون أنفسهم بألبستهم الخاصة ذات اللون الأبيض، على الأغلب(١)، وشعور كافة قبائلهم أنهم يرتبطون برابطة الدم والأرض والعرض، وهم يطلقون على أنفسهم اسم (يزيدية) بينما يسميهم جيرانهم عبدة الشيطان، أو القره باشيّة، أو الداسنيّة ولكن الاسم الشائع والأعم هو (اليزيدية).

هل كل اليزيدية أكراد؟ أم أنهم من أصول مختلطة؟

الطائفة اليزيدية تتكوّن من أعراق مختلطة عربية وكردية، ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، عن قبيلة (جولرك الكردية) «يقال أنهم طائفة من العرب من بني أمية، اعتصموا في جبل مقلوب شرق الموصل، عند غلبة بني العباس عليهم عام (١٣٢هـ/ ٧٥١م) وأقاموا بين الأكراد وانخرطوا في مسلكهم، وهم الآن في عدد يزيد على ثلاثة آلاف»(٢)، وقال عنهم محمد بن الحسن الوهراني (المتوفي ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) «إنهم أكراد يحبون معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، ويسلمون عليه قائلين: السلام عليك يا إمام العدل، السلام عليك يا خليفة الله في أرضه، السلام عليك يا ابن عم رسول الله، السلام عليك يا أمير المؤمنين، نفعنا الله بطاعتك، وأدخلنا الجنة بشفاعتك، ورفع الله درجاتك في الجنة كما رفعها في الدنيا، فيرد عليهم روافض الموصل: يا بقر الشام، يا شيعة الطاغوت، يا عبيد الطلقاء، هذا الأنزع البطين، علي (ع) بين أيديكم، فإلى أين تذهبون؟»(٣).

ولم يكن الأكراد وحدهم يحبون آل سفيان، بل كان حبهم شائعاً عند الحنابلة، وكان أبو سفيان كما يقول المقريزي «قال لعثمان، إن الخلافة صارت إليك بعد تيم الله وعدي، فأدركها

كالكرة، واجعل أوتادها في بني أمية، فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار، فصاح به عثمان، قم فعل الله بك وفعل»(٤)، وعندما سئل أحمد بن حنبل (المتوفي ٢٤٣هـ/ ٨٥٨ م) أيهما أفضل، معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لغبار لحق بأنف جواد معاوية بين يدي رسول الله، خير من عمر بن عبد العزيز، وأماتنا الله على محبته»(٥). هذا ولا يعلم أن لمعاوية مغازياً بين يدي رسول الله (ص) وإنما قصد أحمد بن حنبل مقاتلته للإمام علي (ع) في صفين، وعندما جاء عدي بن مسافر إلى بغداد، درس في المدرسة النظاميّة على يد العلامة رضي الدين القزويني الحنبلي (٥١٢هـ/ ٥٩٠هـ) الذي جلس في يوم عاشوراء للوعظ، فقيل له العن يزيد بن معاوية، فقال: ذاك إمام مجتهد، فرماه الناس بالحجارة، فاختفى وهرب إلى قزوين»(٦) وكان عدي من أنصاره.

وفي بغداد اشترك عدي بن مسافر في الصراع حول إمامة يزيد، وكان ممن يتعصبون له في دمشق والبقاع الشيخ إبراهيم بن يعقوب بن إسحق السعدي الجوزجاني (المتوفي ٢٥٦هـ/٨٧٠) وكان عدي بن مسافر ممن يذكرونه بالخير ويروي عنه فضائل معاوية ويزيد.

قال الرحالة المقدسي البشاري، حنابلة العراق غاليّة مشبهة يفرطون في حب معاوية وابنه يزيد، ويروون عنه أخباراً منكرة، وهم من أتباع أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري شيخ حنابلة بغداد، وقد وصفه ابن الجوزي الحنبلي «بالرجل الجامع للعلم والزهد« مات في سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م)(٧)، وقال المقدسي أيضاً «كنت يوماً بجامع واسط، وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس، فدنوت منه فإذا هو يقول «حدثنا فلان عن النبي (ص) أن الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جانبه، ويلفه بيديه، ثم يجلوه عن الخلق كالعروس، فقلت له: بماذا؟ فقال: بمحاربته علياً، فقلت: كذبت أنت يا ضال، فقال: خذوا هذا الرافضي، فأقبل علي الناس فعرفني بعض الكتبة فكفهم عني»(٨).

جاء عدي بن مسافر إلى الموصل، عام (٥٢٥هـ/ ١١٣٢م)، وصار يدعو إلى الإسلام حسب طريقته الصوفية، فتبعه خلق كثير، وجرت له مع الروافض مناظرات، ثم ذهب إلى لالش، وبنى له زاوية بين الأكراد، الذين يحبون يزيد بن معاوية، ويغالون فيه ثم تحول التقديس إلى شخصية عدي بن مسافر الذي صاروا يغالون به ويعتقدون أنه هو الذي يرزقهم، ولا يقبلون رزقاً من سواه، ويحكون أن عدياً عرج إلى السماء في حياته وجلس مع الباري تعالى وأكل خبزاً وبصلاً(٩)، ويذكر القوالون على لسان الشيخ عدي قوله: «المال مالي، والبشر عيالي، وأنا أفقر وأغني، وأنا أحب الذي يدعوني سراً وعلانيّة، ويحبني من كل قلبه، أرضى عنه وأتجاوز عن سيئاته، واضع عنه الصوم والصلاة، وفي يوم القيامة أسامحه وأرجو من الرب أن يغفر له ويدخله الجنة»(١٠). ويروي الأمير اليزيدي إسماعيل جولو «أن الشيخ عدي، يحمل يوم القيامة، جميع اليزيديين على طبق ويدخل بهم إلى الجنة، دون حساب ولا عذاب»(١١).

وبعد وفاة الشيخ عدي بن مسافر، رحمه الله، صار أتباعه يشيعون أنه ارتفع إلى السماء، وهو حي بجوار ربه، هذه العقيدة لا زالت سارية بين اليزيدية، نقل برسي بادجر G. Percy Badger محاورة مع رجل يزيدي أمي، سأله بادجر:

من هو الشيخ عدي ومن أبواه؟ قال اليزيدي: ليس للشيخ عدي أب. وليس له أم! بادجر: معنى هذا أنه أفضل من عيسى بن مريم؟ اليزيدي: الشيخ عدي أكبر من عيسى لأنه من دون أبوين، بل هو من نور. بادجر: متى مات الشيخ عدي؟ اليزيدي: الشيخ عدي لم يمت ولن يموت. بادجر: ماذا يصبح بعد الموت؟ اليزيدي: لا أعلم!»(١٢).

اختلطت تعاليم الشيخ عدي الصوفية، بديانة بعقائد الأكراد التيراهية، الذين كانوا على دين المبيضة (المانوية) وكانوا يعرفون بالشمسية، وقد وصفهم ابن الأثير بالكفرة(١٣)، وقال عنهم المطران سليمان الصايغ «والمعروف أن التيراهية قوم من الأكراد، ربما كانوا على دين المانوية، ولم يكونوا على دين الزرادشتية واتبعوا طريقة الشيخ عدي بن مسافر وانضموا إلى لوائه»(١٤)، وهؤلاء الأكراد الشمسية ذكرهم القس الأرمني كريكور ماكستروس (المتوفي ١٠٥٨م) في جواب رسالة تسلمها من بطريرك السريان جاء فيها «هناك أناس يعبدون الشمس، ويعرفون بالشمسية وهم كثيرون في هذه الربوع (في جبال الموصل) وهم يسمون أنفسهم نصارى، ونعرف أنك لا تجهل سيرتهم الشريرة المفضوحة»(١٥).

وقد وصفهم ابن العبري بقوله في سنة (٦٠٢هـ ١٢٠٥) ظهر جنس من الأكراد التيرهانية انحدروا من جبال (ماداي) وأحدثوا خراباً عظيماً لم يدينوا بدين الإسلام بل استمروا في عبادتهم الثنوية القديمة، ومن عادتهم إذا ولدت لأحدهم بنتاً، صاح قائلاً: من يخطب هذه الفتاة؟ فإن خطبت عاشت وإلا قتلت. لهذا السبب نساؤهم قلائل وقد تكون المرأة لأكثر من رجل. وإذا غشيها الواحد منهم ترك حذاءه على الباب لئلا يدخل أحد غيره، أما الولد الذي يلد فيكون للجميع(١٦).

وجاء في نص سرياني، كتبه الراهب راميشوع النسطوري عام (١٤٥١م) عن جماعة يسميها اليزيدية ذات علاقة قربى بالشيخ عدي بن مسافر، يزورونه في أول تشرين الثاني من كل سنة ويقدمون له العطايا، وكانوا ينزلون عنده (في لالش) ويشربون الخمر، وهم من أقرباء الأكراد التيراهية المسلمين الذين وصفهم ابن الأثير بالكفر»(١٧). ويبدو أن الشمسية لم يكونوا أكراداً فقط بل كان بعضهم من الأرمن في ديار بكر ومناز كرد قال عنهم الجاثليق الأرمني ميختار Mikgtar «إنهم عبدة الشمس وهم أرمن واسمهم أريفورتي Arivorti، ليس لهم كتابة ولا علوم أدبية بل علمهم بالتقليد، ينقلون ما تعلموه من الأجداد، ويسجدون للشمس، وهم يجتمعون في السنة مرتين أو أكثر في مغائر مظلمة جداً»(١٨).

وفي زمن الشيخ حسن بن عدي (الثاني) قويت شوكة الدعوى العدوية، وانتشرت أساطير وقصص حول شخصية يزيد بن معاوية، ساهم فيها الشيخ حسن لما يكنّه من كره للروافض، وقد قبض عليه بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل وخنقه في القلعة (عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧) وصار المذهب العدوي ينزع نحو الحلولية والرموز الإشراقية.

وصار العدوية ينشدون للشيخ عدي بن مسافر، شعراً أظنه منحولاً:

أنا ذات الذوات، وكل الذوات	أنا كاف الأكوان في الكائنات
أنا رب الأرباب والعرش جميعاً	والسموات جميعها من مبتدعاتي

وينشد له القوالون في الضرب على الدف والعزف على الناي:

أنا خالق الأكوان بأسرها	واسمي طاووس الملائكة برضائي
وأنا كشفت سر الرجيم في العلا	وأنا عالم الأسرار والخفيات
وأنا الذي أسكنت آدم جنتي	وأسكنت نمرود ناري لضائي

وجاء في ديوان الشيخ حسن بن عدي، قوله:

تجلت لنا ليلى ونحن على الركب	وأول قلب هام في حبها قلبي
نظرت معانيها وحسن صفاتها	وقد علمت ما بي ولم يعلم صحبي
كم قلت لما شربت الراح مصطبحاً	لمن ألوم؟ وفرط السكر يلعب بي
إني لمشتاق إلى من أحبه	كما اشتاق يعقوب إلى ساكن الجب
وصرت فرداً بلا ثان أقوم به	وأصبح الكون والأكوان تفخر بي
فإن ظهرت فذات الخال ظاهرة	وإن خفيت فإني غير محتجب
وكل معناي معناها وصورتها	كصورتي وهي تدعى ابنتي وأبي
إن كان يا عوازل حبها	خذوا حسناتي واتركوني على ذنبي

وعندما تمادى العدوية في غلوهم، ونسبوا للشيخ عدي قصيدة جاء فيها:

أنا وحدي فلا إله سوائي	جل وصفي لكنهم وصفوني
ورجال التحقق خرّوا سجوداً	وأرباب الحضور قد شاهدوني
هذه حالة الجهالة حقاً	ما عليهم لوم إذا جهلوني

وعندما حاول بعضهم نفي أن يكون هذا الشعر من نظم الشيخ عدي، بل هو من نظم الشيخ حسن بن عدي (الثاني) قال الدكتور سامي سعيد الأحمد: «فلما جاء الشيخ حسن بن أبي

البركات (عدي الثاني) وثبّت دعائم الحلول والاعتقادات، وقال بتناسخ الأرواح ووضع أسسها ومعالمها وكتابها الرئيسي المقدس ونالت رضى الجماعات الأخرى في المنطقة، فالشيخ حسن لم يبدأ جهوده من لا شيء بل لا بد وأنه وجد أساساً ثابتاً رصيناً أعده الشيخ عدي بن مسافر من قبله مكّنه أن يبدأ هو ببنائه الشامخ عليه٤(١٩).

هذه الألفاظ الموهمة في الظاهر، التي تصدر عن أئمة القوم والتي يعبرون عنها في اصطلاحاتهم بالشطحات والتي تبدو للفقهاء منكرة، هي عند الصوفية لا تصدر إلا عن الأقطاب أو الأبدال، قال ابن خلدون: «وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور، فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل، ومن هذا ما وقع لأبي يزيد البسطامي»(٢٠). ولكن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء وشملوهم بالتنكير، ورفضوا تأويل المتصوفة. واستغل ذلك أعداؤهم من الروافض، فهاجموا في سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) قبر الشيخ عدي في لالش ونبشوه وحرقوا عظامه(٢١). ونسب إلى الشيخ حسن بن عدي الثاني، قوله: أنه لما نزل يزيد بن معاوية من السماء وحارب الحسين بن علي، وغلبه واستقر بالشام لمدة ٣٠٠ عام جمع كافة الكتب والمدونات وأحرقها وحرّم التعليم على أتباعه اليزيدية ما عدا ذرية الشيخ حسن(٢٢). وصار اليزيدية أمة جاهلة لا تقرأ ولا تكتب، وتحول شيوخهم الأوائل إلى آلهة وأمراؤهم إلى أنصاف آلهة DIMIGODS. ومن هؤلاء الأمراء ذوي التأثير في تاريخ اليزيدية الشخصيات العدوية التالية:

١ - الأمير شرف الدين محمد بن الشيخ حسن العدوي:

على أثر مقتل والده في سجن بدر الدين لؤلؤ، قام بعدة غارات على الموصل، وأعطاه السلطان السلجوقي عز الدين كيكاوس ولاية خرتبرت (خربوط)، وقام هو وأتباعه من الموصل للاتصال بالسلطان السلجوقي ولكن أنكورك نوين المغولي قبض عليه وقتله ومن معه من الأكراد في سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)(٢٢). وكان الأمير شرف الدين أول من أسس للعدوية وضعاً سياسياً معروفاً في بلاد الشام وديار بكر والموصل، وهو أول من تلقب (بأمير الأكراد العدويّة). وقد تولى من بعده.

٢ - الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي العدوي:

تولى إمارة الشام زمن الملك الظاهر بيبرس، ثم تولى شد الصحبة في الدولة المنصورية (المنصور قلاوون) ومما حكي عنه إعجابه بنفسه وجبروته وتعففه عن أموال الناس وبيت المال، وقد انتفع به العدوية، توفي سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م) وفي زمنه صار للعدوية في دمشق مكاناً مرموقاً.

٣ - الأمير زين الدين يوسف بن شرف الدين محمد بن شمس الدين حسن العدوي:

تولى الإمارة على إثر مقتل والده، وامتد نفوذه من الموصل إلى دمشق ثم القاهرة وكانت له مكانة الملوك والأمراء، يملك القصور والخيول الكريمة، وله الأتباع المسلمون، وقد اتهمه نائب السلطان تتكز بأنه يرغب في اغتصاب الملك، قال عنه شهاب الدين محمود الحلبي الكاتب: «بُعِثْتُ مع الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار، ليحلفه للإخلاص للدولة الأشرفية، فأتيناه وهو في قريته (بيت فار في البقاع) فإذا به مثل الملك في التجمل والحشمة الزائدة، والفرش والأُطلس، وآنية الذهب والفضة والغضار الصيني، والآشربة المختلفة الألوّان والأطعمة الشهيّة، فلما دخلنا عليه لم يحتفل بنا، وأتاه الأمير علم الدين، فقبّل يده وهو جالس لم يقم، فبقي الدودار قائماً يحدثه وزين الدين يسأله، ثم أمره بالجلوس فجلس بين ركبتيه متأدباً بين يديه، وعندما غادرناه أنعم علينا بخلعة طائلة تقارب خمسة عشر ألف درهم. ثم استدعاه السلطان إلى القاهرة وأكرمه وبنى زين الدين الزاوية العدويّة التي كتب على أحد جدرانها «هذا ضريح السيد الإمام العالم العارف الشيخ زين الدين يوسف بن السيد الشيخ شرف الدين محمد بن السيد الشيخ شمس الدين الحسن بن السيد الإمام الشيخ شرف الدين عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم الأموي قدس الله روحه ونوَّر ضريحه انتقل إلى رحمة الله يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول سنة ٦٩٧هـ ١٢٩٨». قال عنه المقريزي «وانغمس في النعم والملاذ وعاش عيشة الملوك، وحكي أن بعض نساء الطائفة القيمرية (من أعيان الأكراد) كانت مغراة به، مطنبة في تعظيمه، مغاليّة في الاعتقاد بصلاحه، وأنفقت عليه أموال جليلة، وكانت غير مصغية إلى من يعذلها فيه، فاحتال أخصاؤها عليها، بأن حملوها على قفة، وأشرفوا بها عليه، وهو عاكف على المنكرات فما زادها ذلك إلا ضلالاً وقالت: إنما يتدلل الشيخ على ربه وضاعفت له الإنفاق»(٢٣).

قبض عليه بدمشق في سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) في زمن سيف الدين قلاوون وقال يصف سجنه:

وسجن يَكلُّ الوصف عنه لأنه ... حصين منيع لم تنله البطارق

وقد جمعوا فيه جنوداً كثيرة ... وما فيهم من يدعي الصدق صادق

سوى قائل هذه القصيدة يوسف ... مقيم على عهد الحبيب مفارق

ومن سجنه في دمشق يخاطب أبناء عمومته قائلاً:

قف على لالش وحيِّ الطلولا ... وأخبرهم عني وسلم وقولا

أنتم سادتي وما لي سواكم ... حاشا لله أن أحيد عنكم بديلا

هـل تـرى مخـبراً لأولاد عمـى   عن غريب في السجن أضحى ذليلا

ثم عندما طال سجنه صار يناجي جده الشيخ حسن صاحب البرهان، قال:

طرقتـني طرائـق الحدثـان   ورمتـني بـالصدق والهجـران

كنت أرجو الوصال منهم دواماً   لا بلى الله مسلماً مـا بلانـي

يا إلهي بالمصطفى سـيد الرسـل   وبعدهـا صـاحب البرهـان

هـل عسـاك تجمـع شملـي   في حمى لالـش وعيشـي هـاني

وأفرج الله كربته وأخرج من سجنه، وذهب إلى مصر وأطال فيها المقام وظل يحن إلى لالش وأهلها، ومما قاله من جيد شعره(٢٤):

قد بقيت مضنى وجسمي نحيل   سـاهراً باكيـاً وليلـي طويـل

تائـه حـائر بمصـر كئيـب   أسأل الله وهـو نعـم الوكيـل

طـال شـوقي إلى عـدي وربعـي   في حمى لالـش ونحـن نـزول

شـتت البـين بيننـا فافترقنـا   بعدمـا كـان جمعنـا موصـول

هل أرى سـادتي بلالـش جمعاً   فلعـل الهمـوم مـني تـزول

وصورة الشيخ زين الدين مختلف فيها، فهو الشيخ العابد الزاهد السجاد عند السخاوي، وهو الشيخ الماجن الكافر عند المقريزي، ومن هذا الاختلاف تكونت صورته الأسطورية.

٤ـ الأمير عز الدين أميران بن الشيخ زين الدين يوسف العدوي:

ولد في لالش، وكان حسن الشكل، تام القد، صبيح الوجه، انتقل مع والده إلى (بيت فار) ودرس العربية والعلوم الشرعية، ثم أصبح أميراً على دمشق، وبعد انتقال والده إلى القاهرة انتقل إلى صفد، ثم عاد إلى دمشق وأقام في المزة، فكانت الأكراد تأتيه من كل قطر بصفايا أموالها تقرباً إليه. ويقال أنه أراد الخروج على السلطان وتبعته طوائف الأكراد من كل بلد، وباعوا أموالهم بالهوان واشتروا الخيل والسلاح وآلات الحرب، ونزل بأرض الجولان، ووصل الخبر إلى السلطان (الملك الناصر محمد بن قلاوون) فأمر نائبه في الشام تنكز وقبض عليه في سنة (٧٣١هـ/ ١٣٣١م)(٢٥). وقال ابن حجر العسقلاني: «الشيخ أميران عز الدين الكردي من بيت الشيخ عدي بن مسافر قدم دمشق فولي بها الإمرة ثم آثر الانقطاع بالمزة، وسمع السلطان أنه يريد الخروج عليه، فأمسك من كان منهم بالقرافة (في القاهرة وكتب إلى نائبه بالشام تنكز أن يكشف أحوالهم، فجاءه الجواب: أنهم يريدون أن ينفردوا بالمملكة، وهذا شيء تخيلوه في نفوسهم، وجاءه الأمر في

وضعهم بالقلعة، فتفرق الأكراد أتباعه وصاروا يأتون بعد ذلك إلى البرج الذي حبس فيه أميران عز الدين فيسجدون له وظل في حبسه حتى وفاته سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م).

كان الأمير عز الدين أميران آخر أمراء الأكراد العدوية كأبيه شاعراً، وقد اختلط شعره بشعر أبيه، ومما قاله في سجنه:

إذا جزت للهكار تلقى قبيلة — كراماً وهم بين الجبال نزول

فاقرئهم مني السلام وخص من — يكني عدياً وابتدره قؤول

ألا يا كريم الأصل جئتك قاصداً — من أرض بها سجن الغريب يطول

حملت من خل إليك رسالة — تصح وما يخفى الحديث رسول

ويشهد الله والأقوام كلهم — بأني محب والبيان يطول

وجرت بين الأكراد العدوية فتن حول تأليه الشيخ عدي، وحفيده الشيخ حسن، فلم يرضَ بذلك الأمير عز الدين أميران وهو المسلم المحافظ على عقيدته العدوية السنية، وطالب بالتأويل الحسن لأقوال الشيخين السابقين. قال:

أسأل ربي أن يحل بأرضكم — ولياً يسليكم عن الأهل والسجن

ويوضح ما قد غاب عن كل عارف — بحفظه ميراث جده حسن

ويشرح منها كل ما هو ظاهر — ويوضح من أسرارهم كل ما بطن

كفى ما جرى منكم ومنهم جهالة — فلا خير في الأحقاد والضرب والفتن

وأنتم بحمد الله في الدين أخوة — وشيخكم الشيخ الذي اسمه حسن

وبعضكم قد زاغ عنه جهالة — ومال إلى أقوال الأباطيل وافتتن

وصورة الشيخ عز الدين أميران، لم يختلف حولها، فهو رجل تقي وإمام موثوق به عند السنة لذا لم يطعن فيه كما هو الحال بالنسبة لأبيه وجده حسن.

بعض شيوخ العدوية السنة:

ترجم السخاوي في كتابه الضوء اللامع، لبعض شيوخ العدوية الذين تولوا القضاء والإفتاء والخطابة، وكانوا على المذهب الشافعي والطريقة العدوية المعتدلة، ولم يكونوا يزيدية، أذكر منهم:

ـ الشيخ أحمد بن رجب بن محمد بن عثمان بن جميل بن محمد بن أحمد بن عثمان بن سعادة بن عيسى بن موسى بن أبي البركات بن عدي بن صخر بن مسافر، كان قاضياً في البقاع ثم انتقل إلى دمشق ومات في فتنة التتار في حصار تيمورلنك لدمشق سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م).

ـ الشيخ إبراهيم بن أحمد بن رجب العدوي، كان لعلمه وتقاه يعرف بالزهري، ولد سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٧م) ولي قضاء صيدا، وكتابة سر صفد، وكان جيد العقل والكتابة والترسل توفي سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٤٢م.

ـ الشيخ أحمد بن إبراهيم العدوي ولد سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٨ على أثر وفاة جده، ولد في البقاع ونشأ وتعلم في دمشق ثم سافر إلى القاهرة للتعلم في الأزهر الشريف ثم انتقل منها إلى بلاد الشام، زار لالش فلم ترضه عبادة القوم وعاد إلى حلب وحماه وطرابلس، متولياً القضاء، ثم مات في حلب ودفن بها سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٨٠م.

ـ الشيخ أحمد بن محمود بن عبد السلام بن محمود خطيب صرفند العدوي، ولد في سنة (٧٨٢هـ/ ١٣٨٢م) كان شيخاً صالحاً وخطيباً مفوهاً فيه جرأة، مات في دمشق سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٧٠م.

ـ الشيخ محمد بن أحمد العدوي، خلف والده في الخطابة، وكان شاعراً من أعيان الناس ولي النظر في أمور قلعة دمشق، ثم أعرض عنها وعرض عليه غيرها من المناصب فأبى ومات في دمشق سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٧٦م.

ـ الشيخ شمس الدين محمد بن موسى بن محمد العدوي، من علماء القرن العاشر الهجري، ترجم له ابن طولون في كتابه ذخائر القصر وقال عنه «أنه كان من الشيوخ العدول القاطنين في الجسر الأبيض من صالحية دمشق، لبس الخرقة العدوية وكان من فضلاء عصره ونبهاء دهره»(٢٧).

وقائع وأحداث يزيدية:

الطائفة اليزيدية مجموعة من الناس يتميزون باللباس ولغتهم الكردية وديانتهم الخاصة، والشائع عنهم أنهم أكراد، ولكن شرف خان البدليسي كتب عنهم منذ عام (١٠٠٥هـ/ ١٥٩٤) قال: «إن أمراء عشيرة دنبلي يرجع أصلهم إلى رجل من أعراب الشام يدعى عيسى وكانت هذه العشيرة على نحلة اليزيدية المكروهة ثم عاد أمراء الدنبلي (عيسى بكي) وبعض العشائر الأخرى إلى مذهب أهل السنة والجماعة»(٢٨) وذكر أيضاً أن سكان نواحي (طنزي) أو قلعة كلهوك هم من العرب الذين يتكلمون الكردية ومن عشائرهم (دنبلي ونوكي ومحمودي وشيخ بزني وماسكي ورشكي وبيكان وبلان وشيروان ودونوران) والقول الصحيح إن عشيرتي دنبلي ومحمودي قد نزحتا من ولاية الجزيرة(٢٩) والموصل وماردين، وذكر مينورسكي أن عشيرة سيبكي من اليزيدية الذين أسلموا(٣٠). إذن الطائفة اليزيدية خليط من عشائر عربية وكردية، وكانت عادة العرب والأكراد

الرحل، أن يضموا إليهم أفراداً من قبائل أخرى ومع مرور الأيام يرتبطون معهم برابطة الدين والدم وهذا ما حصل للطائفة العدوية التي ضمت إليها قبائل عربية أموية وعباسية وأكراد وبقايا شعوب آرامية (عبدة الشمس) وشكلّ الجميع مركباً جديداً، هو الطائفة اليزيدية الذين صارت لغة المخاطبة والمحادثة هي اللغة الكردية واقتصرت اللغة العربية على الطقوس الدينية (الصلاة والإنشاد). ومع مرور الأيام تشكلت الخصائص الثقافية السلالية للمذهب اليزيدي، وبقيت فيه الرواسب الإسلامية والمانوية واضحة المعالم. يقول شرف خان البدليسي «إن اليزيدية هم من مريدي الشيخ عدي بن مسافر من الخلفاء المروانية ينتسبون إليه ولهم فيه اعتقاد زائغ(٣١) ويسمون كل المسلمين حسينية ويسمون أنفسهم يزيدية»(٣٢).

كيف كانت علاقة اليزيديين بالمسلمين الأكراد؟

ظهرت النحلة اليزيدية في وسط إسلامي كردي، وفي سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م دعا الشيخ محمد بن يوسف الحلواني الشافعي الأمير عز الدين البختي صاحب جزيرة ابن عمر لحرب اليزيدية، وقام معه الأمير توكل الكردي صاحب ثرانس فجمعوا جمعاً من الأكراد من ديار بكر وماردين وساروا حتى أتوا لالش وهدموا ضريح الشيخ عدي وقالوا لأصحابه (الصحبتية): انظروا.. كيف حرقنا من ادعيتم فيه الألوهية لم يقدر أن يدفعنا، ومن بعدها صار اليزيدية يقتلون كل فقيه قدروا على قتله(٣٣).

وفي مطلع العهد العثماني كانت الثقافة الدينية السائدة هي الثقافة الإسلامية السنية في مجتمع ما قبل الرأسمالي، وكانت سمة تلك الثقافة إرادة الهيمنة بالقوة والويل لمن يبدي أية مقاومة فإن مصيره القتل، وهذا ما حدث بالنسبة للمذهب اليزيدي الذي ابتعد عن حظيرة الإسلام، والذي خلق فيهم وضعاً اجتماعياً موحداً، وأبرز قادة محاربين شجعاناً، منهم:

ـ الأمير عز الدين بن يوسف العدوي الكردي (المتوفى ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م).

تولى إمارة حلب أيام السلطان سليمان القانوني، وصار له نفوذ كبير في البلاد، لهذا قصده اليزيدية من منطقة الشيخان وسنجار، والتفوا حوله، وكان الكردي إذا سئل: من أي الأكراد أنت؟ من أكراد ربنا أم من أكراد عز الدين؟ فإن قال: من أكراد عز الدين فهو يزيدي، وكان الأمير عز الدين من سلالة الشيخ مند الذي يبرئ الملدوغ. وكانت له صراعات ومواقع مع أكراد عائلة جانبولاد من أمراء كلس وهم أجداد عائلة جنبلاط الدرزيّة في لبنان. قال شرف خان البدليسي «إن أمراء كلس أكراد من سلالة العباس بن عبد المطلب، لهذا كان عز الدين العدوي (اليزيدي) يناصبهم العداء، وقد نكّل بزعيمهم نجيب بك وبأخيه قاسم بك. ولكن جانبولاد بن قاسم بك ثار لأهله وفتك باليزيدية وأسر عز الدين واستولى على دوره في كلس وأخذ زوجته وفرق أصحابه»(٣٤).

وفي منطقة الهكارّية قامت إمارة العمادية، وكانت أقرب منها إلى البداوة، وفي زمن الأمير **حسين بك بن حسن الأموي** قصد القزلباش في بغداد فقاتلهم أمير العمادية سنة (٩٦١هـ/ ١٥٥٣م)

وانتصر عليهم، وعندما وصل الخبر إلى السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) أكرم المير حسين بك الداسني (نسبة إلى جبل داسن شمال الموصل) وزاد في إيالته وأضيفت إليه إمارة أربيل ولقب بلقب باشا، وقام الأكراد الصورانيين بقيادة **الأمير عز الدين شير** وقاتلوا الداسينيين حتى تغلبوا عليهم، وأصدر شيخ الإسلام أبو السعود العمادي فتوى أحل فيها قتل اليزيدية، ولكن السلطان سليمان القانوني أعاد إمارة العمادية إلى حسين بك واستمر في الإمارة حوالي ثلاثين سنة(٣٥).

ولكن لم تكن لإمارتهم لا طبل ولا علم خاص بهم، مع أنهم أعطوا تيمار الزعامة العسكرية وراتباً مدى الحياة ينتقل إلى أولادهم بالوراثة. ثم قام **الأمير سيف الدين الصوراني** وقاتل حسين بك الداسني ودحر قواته اليزيدية، وأصابهم بخسائر فادحة في الأرواح قتل منهم حوالي خمسمائة نفر فيهم من وجهاء الداسنية وهكذا انتصرت القوات الحسينية(٣٦) أي المسلمة. وظل اليزيدية يذكرون هذه الواقعة بألم دون أن يعرفوا متى حصلت، ذكر ذلك العالم الأثرث أوستن هـ لايارد قال «إن اليزيدية يذكرون أنه حدث لديهم حدث هام عصف بحياتهم ولكنهم لا يعرفونه وإن كانوا يحددونه بحدود عام ١٥٥٠م(٣٧) أظنهم يقصدون هذه الواقعة المؤلمة لهم.

وعندما جاء السلطان مراد الرابع (١٦٣٨م) لتحرير بغداد من يد الفرس، لم يشترك أمير العمادية **يوسف خان بن سيدي بك**، في القتال، كما أنه لم يكن بين المهنئين مما أغضب السلطان فأصدر أمراً بالقبض عليه وحبسه في ديار بكر، وعلى عكسه قام الأمير الداسني ميرزا بك بتقديم قواته الخاصة وقتل هو ورجاله مئات من القزلباش (الفرس) فمنحه السلطان مراد لقب (ميرزا باشا) ومنحه إيالة الموصل وظل فيها حتى سنة (١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م)، ولكن السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧) قبض عليه لعدم دفعه ما عليه من ضرائب للدولة وسجن في إستنبول مدة ثم أفرج عنه هو وجماعته، فعبر البوسفور إلى الأناضول وعاث بالأمن، وقبض عليه ثانية وحكم عليه بالموت (سنة ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤م) بناء على فتوى أصدرها شيخ الإسلام جاء فيها (قتل اليزيدية حلال على المذاهب الإسلامية الأربعة، وجهادهم أصوب وأثوب من العبادات الدينية، وتشتيت شملهم وتفريق جموعهم، وقتل رؤسائهم من الواجبات الدينية، وحكام الوقت والولاة الذين يرخصون في قتلهم، شكر الله سعيهم، وأعانهم وساعدهم على مقاصدهم، ولهم أن يقتلوا رجال اليزيدية، ويستأسروا ذريتهم ونساءهم ويبيعونهم في أسواق المسلمين كأسارى مثل سائر الكفّار، ويحل لهم أيضاً التصرف في أبكارهم وزوجاتهم بعد الاستيلاء عليهم بملك اليمين. لأن هذه الطائفة الطاغيّة ليست من الاثنين والسبعين فرقة من الفرق الإسلامية بل هم مرتدون عن الإسلام، خارجون عن الملل كلها، لأنهم مرتكبون على الدوام الفسوق والفجور، مبيحون الأعمال القبيحة والخمور، معتادون قطع السبيل، وسفك الدماء، وغصب أموالهم ومجموعهم من قبيل أولاد الزنا، حتى أن مولانا عبد الرحمن الجامي أفتى في الإباحة المذكورة لأن يزيد بن معاوية ملعون وعمله

باطل وأعوانه ضالون، وأنصاره باغون يدخلون النار معه بأشياعهم. وإن قلع فسادات هذه الطائفة الضارة عن وجه الأرض من الواجبات الشرعية. فلأجل ذلك الدافع حررت هذه الفتوى، وسلمت لأهل الجهاد والتقوى حتى تصل إليهم الغيرة على كتاب الله المبين) التوقيع شيخ الإسلام أبو السعود العمادي(٣٨).

ماذا كان تأثير هذه الفتوى على الرأي العام؟

ينقل لنا الرحالة أوليا شلبي صورة الرأي العام عندما زار سنجار سنة ١٦٥٤م قال عن اليزيدية «إنهم وسخون، وفي رؤوسهم القمل والصواب، وأكثرهم قصيروا القامة، وليس لهم رقاب واضحة، فكأن رؤوسهم خرجت من أكتافهم. والأكراد يسمونهم بذي الشوارب الثمانية، وأسنانهم كأسنان الخيل، وإن نساءهم لا تلد قبل مرور سنة كاملة، وإذا وضعت المرأة، أرضعت وليدها بحليب كلبة سوداء، لأنهم يقدسون الكلاب، يقدمون لها الأكل أولاً ثم يأكلون فضلاتها، ويقيمون له مأتماً، ويطعمون على روحه لحماً مشوياً، يوزعونه على الكلاب الباقية، وكل ميت من اليزيديّة، يضعون في كفه شعر كلب»(٣٩). هذه الصورة الهزلية، مبنية على الكره الشديد لليزيديّية، وهي تعبر عن كره شديد يكنه لهم جيرانهم من الأكراد المسلمين، وكذلك الأتراك منهم يطلقون على اليزيدية (هالته) Halta أي أصحاب ياقة الكلب، نسبة إلى طوق يزيد(٤٠)

وكانت الدولة في القرن الثامن عشر تصور اليزيدية على أنهم عصاة، قاطعو السبل، منهم آفاعي الجبال، وكانت الدولة تستعدي عليهم العرب الرحل، فعندما هاجمهم وزير بغداد حسن باشا في منطقة الخاتونية غرب سنجار بعد أن قتل منهم ثلاثة أمراء (ديللو ومندو وعباس) وهم من مشاهيرهم، فوّض الوزير إلى **أمير طيء محمد الذياب** محاربتهم.

وبعد عامين (١٧١٨) قام والي الموصل **حسين باشا الجليلي** بغزو عشيرة الصاجلية فقتل بعض رجالهم وأسر العيال واغتنم الاموال، ثم جاء الطاعون فأكمل عليهم ومنذ ذلك الوقت تفرقت هذه العشيرة واتخذوا لهم اسماً آخر»(٤١).

لم يرضخ اليزيدية للدولة العثمانية، ولم يدفعوا ما عليهم من ضرائب مما دفع والي الموصل سنة ١١٤٦هـ/١٧٣٣م إلى مهاجمة قراهم على الزاب، ونهبوهم وعادوا إلى الموصل، ولكن اليزيدية أخذوا بثأرهم وهاجموا جنود الباشا في الموصل في سنة ١١٦٦هـ/١٧٥٢م واتخذوا سنجار معقلاً، وصاروا يقطعون السبل ويمتنعون عن دفع الضرائب مما أعجز ولاة بغداد لذا عزم **الوزير سليمان باشا** (١٧٦١ ـ ١٨٠٢) على استئصال شرهم وسار إليهم من بغداد إلى كركوك فجاءه بعض رؤوس اليزيدية، يطلبون الآمان، فقبل ذلك منهم وأسكنهم ماردين، ومن أصرّ منهم على عناده من أهل سنجار حاصرهم وقضى عليهم، وقتل أكثر رجالهم، وأسر نساءهم، واتخذ منارات من رؤرسهم المقطوعة، ثم قبل أمان من أذعن منهم، وعاد إلى بغداد منتصراً، فجاءه الفرمان من السلطان محمود الأول (١٧٥٤ ـ ١٧٥٧) مع الخلع السنيّة له ولمن معه من كرد وعرب طيء(٤٢).

انتشر اليزيدية في ديار بكر وماردين وولاية أورفا، وقد شكلّ تيمور باشا الملّي عام (١٧٩٠) قواته المسماة (هزارملة) أي ألف ملة، وكانت خليط من الأكراد ومن اليزيدية والعرب، قويت شوكة المليّة مما دفع بالوزير سليمان باشا في سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩٢ إلى غزوهم وأطلق عليهم (عبدة الشيطان) وكان يقصد بذلك عشيرة الشرجيان والموسان، فهاجمتهم عساكر الوزير وقتلوا منهم خلقاً، وأرسل رؤوسهم المقطوعة إلى الباب العالي في استنبول، وعُدّ ذلك من مقتضيات المصلحة العامة(٤٣).

أما في منطقة الشيخان فقد كان الأمير يهيمن على السلطتين الدينية والدنيويّة، ولم يكن للسلطات العثمانية أية سلطة عليهم، وعندما هاجمهم **الحاج عبد الباقي الجليلي** باشا الموصل على رأس قوة قوامها ألف مسلح على أربعين بيتاً يزيدياً من عشيرة (الدنانية) سنة ١٢٠٠هـ/١٧٩٥م، فيما كان جند الدولة منشغلين بالنهب والسلب باغتهم **(نمر آغا اليزيدي)** مع خمسة من فرسانهم، وغنم اليزيدية أسلحتهم ومؤنتهم وكانت تلك السنة سنة محل وجوع ومات كثير من العباد بالطاعون.

وفي سنة ١٢٠٥/١٧٨٩ جرت حادثة غدر بين أمراء اليزيديّة، وعندما قتل **جولو بك أمير** الشيخان غدراً في بيت نمر آغا ونصب خنجر بك من بعده أميراً على الشيخان ولكن بعد عام واحد أعيد تنصيب **حسن بك بن جولو** أميراً على الشيخان بدلاً من والده القتيل. وفي سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩ تحرك والي الموصل نحو قرى الشيخان على رأس قوة كبيرة يريد الانتقام والثأر، ولكن الأمير حسن بك هرب مع عائلته إلى الجبال، ونهبت القرى وبيع الأطفال في سوق النخاسة وذبح الوالي **نعمان باشا الجليلي** خمسة وأربعين شخصاً وأرسل رؤوسهم إلى بغداد(٤٤)، وخرج عبدي بك على القانون وصار يقطع الطرق وقد آواه أمير العمادية زبير باشا وذلك بغرض إزعاج والي الموصل، على أثر وفاة وزير بغداد سليمان باشا عام ١٨٠٢م، أراد خليفته الوزير علي باشا الكتخدا أن يدشن عهده بعمل بطولي فقام بحملة على جبل سنجار ونكلّ بالقرى اليزيدية هناك وأعاد الكره في السنة التالية، وعيّن قباذ باشا حاكماً على العمادية، وسكن تلعفر فأذعن له اليزيديّة، وانضموا إلى عساكره وحاربوا عشائر العبيد(٤٥).

وفي عام ١٨٠٣ تجمعت عشائر عنزة والظفير بقيادة الدريعي بن شعلان في منطقة أورفا (الرُها)، وعند منابع البليخ (عين عروس) حرّك عليهم الوزير علي باشا الكتخدا عشائر اليزيدية والمليّة وشمر بقيادة فارس الجربا، قال صاحب كتاب غرائب الأثر «عزم والي بغداد على السفر إلى جهة ماردين، وأمر العساكر بالمسير أمامه، وقدّم عساكر كركوك وزعماءها ثم عسكر أربيل وعسكر مندلي ثم عسكر زهاو ودهوك وتوجهوا إلى ماردين، فتوجه الدريعي وقبائل عنزة والظفير نحو جبل سنجار ونهبوا القرى اليزيديّة وقرى المهركان ومدينة بلد وقرى سنجار»(٤٦) وعلى أثر ذلك عادت اليزيدية ونقضت تحالفها مع الدولة العثمانية وطبقاً لرواية المؤرخ التركي أحمد لطفي «عاشت

عشائر الداسنية مع عشائر ماردين بالأمن فأرسل إليهم وزير بغداد قوة عسكريّة سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥ ومعهم عشائر بابان الكردية وجرى بينهم وبين اليزيدية قتال شرس انتصرت عساكر الدولة وعشيرة البابان على اليزيدية وفرقت جموعهم(٤٧).

كورباشا الراوندوزي واليزيدية سنة ١٨٣٢:

كان كور باشا الراوندوزي من أمراء الصورانيين، ولأنه أعور عرف (بمير كوره) واسمه الحقيقي محمد باشا الراوندوزي من عشيرة البابان (العدوة اللدود لليزيديّة).

في خريف عام ١٢٤٨ هـ/١٨٣٢. دعا **علي بك أمير الشيخان علي آغا البالطي** زعيم عشيرة الألكوشية الكردية، ليختن ابنه في حضنه، فلما حضر إلى قرية باعذرى، لم يكن معه سوى حرسه المؤلف من خمسة أفراد، دخل عليه الأمير علي بك ومعه جمع من اليزيدية، وقتلوا الضيف ومعه ثلاثة من حرسه وهرب اثنان، وقام ابن عمه **الملا يحيى المروزي** واستنجد بأمير العمادية اسماعيل بك بن مراد باشا فلم يلق منه أذناً صاغية، وذهب إلى بغداد واشتكى إلى الوالي داود باشا الذي زوّده بكتاب إلى **محمد باشا أمير الراوندوز** (كورباشا) وطلب منه انصاف المسلمين من اليزيديّة، وسأل كورباشا الملا محمد الختي بجواز قتالهم، فأفتاه بوجوب قتالهم لأنه كفرة، وقام بجيشه وجموعه المكوّن من أربعين ألفاً بغزو القرى اليزيدية، وأخذ الجيش يهاجم ويعتدي على كل من يصادفه وهرب أمير اليزيدية علي بك إلى الموصل وقبض عليه والي الموصل اينجه بيرقدار محمد باشا وقطع رأسه ورماه في نهر الكومل»(٤٨).

أبدى كورباشا شجاعة نادرة في محاربة اليزيديّة، قاتل اليزيدية عبر الزاب الأعلى من جهة ياسين كلك وتعقبهم حتى قطعٍ عليهم الجسر، واعتصم اليزيدية بقبر النبي يونس فدمره كورباشا على رؤوسهم تدميراً كاملاً. ولأعطيك فكرة عن جسامة التدمير أصف لك المقام كما قال عنه ابن جبير (سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥) تل التوبة الذي وقف عليه النبي يونس عليه السلام، بناء عظيم وهو رباط يشتمل على بيوت كثيرة، ومعاهد ومطاهر وسقايات، ويضم الجميع باب واحد، وفي وسط ذلك البناء الموضع الذي وقف فيه النبي يونس، ودعا أهل نينوى للتوبة»(٤٩) وهذا ما فعله كورباشا عندما دعا اليزيدية للاستسلام والتوبة فلم يستجيبوا له فدمر الحصن عليهم.

عاد اليزيدية إلى قطع الطرق فهاجم الوزيران محمد رشيد باشا وحافظ باشا جبل سنجار عام ١٨٣٥ وأبادوا حسبما قيل ثلاثة أرباع سكانه، ولم يستسلم اليزيدية للدولة فهاجمهم والي الموصل الاينجه بيرقدار في منطقة سنجار وكانت تقطع الرؤوس وترسل إلى الموصل(٥٠) لكن اليزيدية لم يتركوا ثأرهم عند كورباشا وظلوا يحاربونه حتى قتلوه في مدينة سيواس سنة ١٢٥٢ هـ/١٨٣٦ ودفن فيها وبموته قضي على إمارته.

على أثر أخذ اليزيدية بثأرهم من كورباشا قويت شوكتهم في الشيخان وسنجار، وعندما تولى شريف باشا ولاية الموصل سنة (١٢٦٠هـ/١٨٤٤م) برتبة وزير، هاجم سنجار وجرت مذابح دموية قاسية مات فيها خلق كثير. وقبض محمد باشا الكريدي على الشيخ ناصر وأراد قتله فتدخل العالم الأثري لايارد وأخرجه من السجن.

الوزير المصلح مدحت باشا واليزيدية:

ذكرت جريدة الزوراء سنة ١٨٦٩م، أن اليزيدية عصوا الدولة مدة ست سنوات وعزموا أن لا يدخل إنسان غريب بلدهم، وعاشوا على محاصيلهم الجبلية، وجاء بعض القصابين يريدون عشائر شمر وعنزة لشراء الأغنام، فأخبرهم اليزيدية أن لديهم أغنام رخيصة واطمعوهم بالربح الزائد، ثم قتلوهم وسلبوا ما عندهم من نقود، وعلم الوالي مدحت باشا (١٨٦٩ ــ ١٨٧٢) بالأمر، وطلب من اليزيدية أسماء الجناة وتسليمهم، فلم يستجيبوا للأمر، فجمع الوالي العساكر الموجودة في الموصل وماردين وشهرزور، فبلغوا مقدار ثلاثة أفواج وسريتين من الخيالة، وأربع قطع مدافع، ومقدار من الجند الراجلة، ووضعوا تحت إمرة الزعيم **أحمد بك الشاوي** (من فخذ الحمد الظاهر ـ شيخ العبيد ـ توفي عام ١٨٩٦) وأرسل معه حنا باشا متصرف لواء الموصل، وتوجهوا إلى سنجار، فارتد اليزيدية إلى شعاب الجبل الوعرة لخوفهم ولكنهم تأكدوا أن الجيش لا يبغي إلا الجناة، فجاءوا بهم وألقي القبض عليهم وحُصّلت الأموال الأميرية التي عليهم منذ خمس سنوات، وفرضت الخدمة العسكرية على الشباب، وأحدثت في تلعفر قائمقامية»(٥١).

كيف استقبل اليزيدية أمر الخدمة العسكرية؟

تذمّر أمراء اليزيدية من الخدمة العسكرية، وقدّموا عريضة إلى الأستانة بواسطة المشير رؤوف باشا والي بغداد، مؤرخة في ٢٨ شباط ١٨٧٢م، طالبين فيها إعفاء أبناءهم من الخدمة العسكرية معللين أسباب طلب الإعفاء بمايلي:

١) من واجب كل يزيدي، زيارة ضريح الشيخ عدي في لالش مرة كل سنة من ١٢ ـ ٢٠ أيلول شرقي ومن لم يقم بهذه الزيادة منهم فهو كافر وخارج عن الملة.

٢) يجب على كل يزيدي أن يقف عند طلوع كل شمس في موضع شروقها ويسجد لها شريطة أن لايراه مسلم، ومن لا يفعل ذلك فهو كافر وخارج عن الملة.

٣) على كل يزيدي أن لا يسمع صلاة المسلم لأن فيها ما يتعارض والعقيدة اليزيدية التي تنفر من الاستعاذة من الشيطان، وعلى اليزيدي منع المسلم من ذلك فإن لم يستطع فعليه قتل نفسه.

٤) على كل يزيدي أن لا يصوم إلا أن يعلن أمام شيخه أنه صائم، وعليه أن يفطر على الخمرة المقدّسة، وإذا أهمل هذا فلا يقبل صيّامه ويعتبر كافراً خارج الملة.

٥) إذا سافر اليزيدي خارج بلده، وكان متزوجاً وأمضى أكثر من سنة فإن امرأته تحرّم عليه، ولا يمكنه الزواج عن غيرها.

٦) على كل يزيدي إذا اشترى ثوباً جديداً أن يغسله بماء زمزم المباركة في لالش وإذا لم يفعل فقد كفر وخرج من الملة.

٧) غير مرخص لليزيدي أن يلبس ثوباً كحلياً أو أزرق، ولا أن يسرح شعره بمشط مسلم أو يهودي أو مسيحي، ولا أن يحلق رأسه بموس هؤلاء، وإذا اضطر للحلاقة بهذا الموس فعليه أن يغسله بماء زمزم المباركة في لالش وأن لم يفعل ذلك فهو كافر وخارج عن الملة.

٨) إذا مات اليزيدي فعلى ذويه أن يضعوا في فمه (البراة) من تراب الشيخ عدي.

٩) إذا مات اليزيدي، وجب أن يحضر أخو الآخرة وشيخه وبيره وأحد القوالين لكي يلقنوه ويذكروه بدين عبطاووس ملكِ ـ جلّ شأنه ـ كي لا يموت على دين الإسلام أو النصارى أو اليهود، وإلا مات كافراً، ودفن خارج مقابر الملة اليزيدية.

١٠) إذا خاط اليزيدي ثوباً جديداً فعلى أخت الآخرة أن تفتح زيقه بيدها، وإذا لم تفتحه ولبسه فهو كافر وخارج عن الملة.

١١) على كل يزيدي أن لا يدخل إلى الطهّارة (المرحاض) أو الحمام، ولا يأكل في ملعقة المسلم، ولا يشرب في مشربه أو غير المسلم من الملل الأخرى.

١٢) يحرم على اليزيدي أكل السمك والقرع والباميا والفاصولية والخس واللهانة بل أنه لا يسكنون في مكان يزرع فيه الخس.

لأجل هذه الأسباب لا يمكن لليزيدي الخدمة العسكرية»(٥٢).

الفريق الركن عمر وهبي باشا واليزيدية:

وصل الفريق الركن عمر وهبي باشا إلى الموصل عام ١٨٩١ فأصلح الجيش وأخضع العشائر وأرسل في طلب أمراء اليزيدية فحضروا إليه جميعهم يتقدمهم أمير الشيخان **ميرزا بك** وأخوه **بديع بك** واستقبلوا بالموسيقى والإكرام، وطلب الفريق منهم الإسلام ولعن الشيطان، فسكتوا وكرر الأمر، فأمر الفريق الجند بضربهم فمات منهم ثلاثة، وأسلم الأمير ميرزا وأخوه بديع وأعلن إسلامهم حوالي خمسة عشر ألفا من اليزيدية(٥٣) فقربهم إليه لعلهم يهتدون ثم أبرق إلى استنبول بأن عشرين ألفاً من اليزيدية اهتدوا بهمة الفريق، وطلب أوسمة للأمير ميرزا وأخوته»(٥٤) ولكن ميرزا بك عاد إلى ديانته بعد خمسة عشر يوماً وتوفي سنة ١٨٩٦م، وأرسل الفريق الركن معلمين إلى القرى اليزيدية لكي يعلموهم القراءة والكتابة وأصول الدين، ولكن اليزيدية منعوهم وهددوا المعلمين بالقتل، ولما بلغ ذلك مسامع الفريق عمر باشا أنفذ كتيبة من الجند بقيادة ابنه الملازم عاصم إلى الشيخان ونهبوا القرى، واستاقوا المواشي وسبوا النساء، وقتلوا من قاومهم، وأضرمت النار في

أربعة قرى الدنانية غربي باعذرى، فاحترقت فوق رؤوس أهلها، ثم سار الفريق الركن بنفسه إلى سنجار وأقام فترة يحاول فتحها، فلم يستطع وفي هذه الفترة أخبر القناصيل سفراءهم في استنبول بمظالم الفريق، واطلع الباب العالي على المظالم، فأرسلت لجنة لتقصي الحقائق بزي اناس جبليين، فوقفوا على صحة الشكوى فجاءت الأوامر بنقل الفريق، وظل اليزيدية يذكرون هذه الواقعة بألم»(٥٥).

وجاء بعد الفريق الركن عمر وهبي باشا، نوري باشا لقيادة القوة الاصلاحية، في الموصل وأرسل إلى الشيخان ضابطاً كبيراً ومعه شيخان يحملون رسالة إلى اليزيدية ويعتذرون عن مسلك الفريق الركن السابق، ويطلبون منهم الاعتراف بأنهم مسلمون، لم ينحرفوا. فرفض الأمير ميرزا وبقية الشيوخ هذا الكلام قائلين: كيف نكون مسلمين وديننا يسبق دينكم بآلاف السنين؟ ألم يكن نبوخذ نصر يزيدياً؟ أنكم أنتم الذين افترقتم عنا، وبعد أن أرسل جواب اليزيدية إلى استنبول، سيقوا إلى الجندية ومعهم أميرهم ميرزا بك وأكرهوا في ثكنات ديار بكر على لبس الثياب العسكرية الزرقاء»(٥٦). وفي هذه الفترة كتب لهم الشماس إرميا شامير الكتابين المنحولين (كتاب الجلوة وكتاب مصحف رش).

على أثر وفاة ميرزا بك نصب أخوه **علي بك أميراً** على الشيخان (١٨٩٦ ـ ١٩١٠) وكان عهده مليئاً بالمضايقات والمتاعب، وقد قتل وهو نائم في سريره وهو بجانب زوجته (**ميان خاتون**) ونصب ابنه (سعيد بك) أميراً وهو ابن اثنتا عشر عاماً، وتولت ميان خاتون إدارة الشيخان، وصار سعيد بك ميالاً إلى الملذات والمسرّات وإقامة الولائم فقام أبناء عمومته من الأمراء (اسماعيل بك جولو وحسين بك) يريدون الإطاحة به يناصرهم **حمو شيرو رئيس عشيرة فقيران**، إلا أنهم لم يفلحوا وظل في منصبه حتى وفاته عام ١٩٤٤ وعين ابنه **تحسين بك أميراً** وعمره ثلاثة عشرة سنة وجدته ميان خاتون تشرف على أمور الشيخان.

في عام ١٩١٨ جرت آخر حملة على اليزيدية قام بها القائمقام الحاج إبراهيم بك لاسترداد الأرمن الذين لاذوا باليزيدية هرباً من المذابح العثمانية، وقد وصلت الحملة في ١٠ أيلول وخيّمت بالصولاغ وطلب من أهالي بلد (سنجار) تسليم الأرمن ولكنهم أبوا فضرب قرية (التبّة) بالمدافع ونهبها، فقاتلت عشيرة (الفقراء) بزعامة حمو شيرو بشجاعة وردّوا الحملة خاسرة ولم يسلموا الأرمن، وعندما دخل الانكليز إلى العراق نال حمو شيرو حظوة لديهم»(٥٧). وعندما وضع دستور للطائفة اليزيدية عام ١٩٣١ وأصبح لمجلس العموم المنتخب من أبناء الطائفة صلاحيات أمير الشيخان القديمة فلم يعد للأمير القدرة على الحكم بالموت على أي شخص يزيدي دون اعتراض، وعندما أصدرت الحكومة العراقية قانون التجنيد الاجباري بتاريخ ١٢ حزيران ١٩٣٥ امتنعت عشائر الشيخان وسنجار والأميرة ميان خاتون من قبوله، ولكن حمو شيرو ومعه اسماعيل بك جولو على قبوله، وهدأت الأحوال وصدر عفو عام بحقهم»(٥٨).

وأدخل الأمير اسماعيل بك جولو أولاده إلى المدارس مخالفاً بذلك التقاليد اليزيدية العتيقة البالية وصار ابنه كريم بك أحد معلمي أبناء الطائفة في مدرسة عين سفني عام ١٩٤٨م.(٥٩)

وفي عام ١٩٣٦ فتح **الأمير بايزيد بن اسماعيل** مكتباً في بغداد، أطلق عليه اسم المكتب الأموي وأعلن أن غايته من المكتب (الدعوة لإظهار عروبة الأمويين) في شتى المجالات الرسمية والشعبية وختم بيانه بقوله: «إننا قمنا بدعوة عربية لإحياء عروبتنا وإعادة قبائلنا إلى سيرة أجدادنا، وأن هذه الدعوة قد توسعت واستيقظت فيها الروح العربية بين قومنا داخل العراق وخارجه»(٦٠). ودعوته هذه تناقض كل الدراسات اليزيديّة الحديثة التي تحاول التمويّه والتعمية وطمس ملة اليزيديّة من أجل منافع دينوية ينالونها من بعض الدول الغربية.

وختاماً أقول: حاولت جهدي إظهار الحقيقة فإن أصبت فلي أجران وإن أخطأت فلي أجر والله من وراء القصد.

مراجع الفصل الثالث: اهم احداث التاريخ اليزيدي

١) الأثنوس والتاريخ ص١٠٦ بروميله وبودوني ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو ١٩٨٨.

٢) صبح الأعشى جـ٧ ص٣٧٨ القلقشندي، القاهرة ١٣٤٦ هـ.

٣) اليزيدية ص١٢٩ سعيد الديوه جي بغداد ١٩٧٣.

٤) النزاع والتخاصم بين أمية وهاشم ص١٨ أحمد بن علي المقريزي، طبعة مصر ١٩٠٨.

٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ١ ص٦٥ ابن العماد الحنبلي طبعة مصر ١٣٥١هـ.

٦) البداية والنهاية جـ١٣ ص٩ ابن كثير طبعة مصر ١٣٤٨هـ.

٧) كتاب المنتظم جـ٦ ص٣٢٣ ابن الجوزي حيدر آباد الدكن ١٣٥٧هـ.

٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٢٦ المقدسي البشاري طبعة بريل ١٩٠٦.

٩) تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ص٧٢ عباس العزاوي بغداد ١٩٣٥.

١٠) اليزيدية ص١٩٩ سعيد الديوه جي.

١١) اليزيدية قديماً وحديثاً ص٩٥ اسماعيل بك جولو بيروت المطبعة الامريكية ١٩٣٤.

١٢) اليزيدية ص٣٦٢ صديق الدملوجي، الموصل ١٩٤٩.

١٣) الكامل في التاريخ مج١٢ ص٨٢ ابن الأثير القاهرة ١٢٠٥هـ.

١٤) تاريخ الموصل جـ١ ص٢٩٩ المطران سليمان الصايغ القاهرة ١٩٢٣.

١٥) الشمسية في التاريخ مجلة لغة العرب مجلد٩ ص١٦١ بغداد ١٩٣١.

١٦) تاريخ الزمان ص٢٤٥ ابن العبري ترجمة الأب اسحق ارملة، دار المشرق الموصل ١٩٨٦.

١٧) مباحث عراقية ص٢١٨ يعقوب نعوم سركيس بغداد ١٩٤٧.

١٨) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص٣٠ د. سامي سعيد الأحمد جامعة بغداد ١٩٧١.

١٩) المصدر السابق جـ١ ص١٥٢.

٢٠) مقدمة ابن خلدون ص٤٠٤ كتاب التحرير (١٧٧) القاهرة، ١٩٦٦م).

٢١) فوات الوفيات جـ١ ص٢٧١.

٢٢) اليزيدية ص٤٧ سعيد الديوه جي.

٢٣) مختصر تاريخ الدول ص٢٨٣ ابن العبري، تحقيق الأب انطوان صالحاني دار المسرة بيروت ١٩٨٦.

٢٤) كتاب السلوك جـ١ ص٧٠٩ المقريزي.

٢٥) اليزيدية ص٩٨ صديق الدملوجي.

٢٦) كتاب السلوك جـ٤ ص٣٠٥ ـ ٣٠٦ المقريزي.

٢٧) الدرر الكانة في أعيان المئة الثامنة جـ٢ ص٤٢٤ ابن حجر العسقلاني ـ حيدر آباد الدكن ١٣٤٨هـ.

٢٨) اليزيدية أصل نحلتهم ومنشأ معتقدهم (ص٥٦) أحمد تيمور باشا.

٢٩) شرفنامة جـ١ ص٣٠٥ شرف خان البدليسي ترجمة محمد علي عوني، القاهرة ١٩٥٨.

٣٠) المصدر السابق جـ١ ص١١٣.

٣١) الاكراد ص٥٦ فلادمير مينورسكي ترجمة معروف خزندار بغداد ١٩٦٨.

٣٢) الشرفنامة ص٢٣ ترجمة ملا جميل بندي روزبياني بغداد ١٩٥٣.

٣٣) المصدر السابق ص٢٨٩.

٣٤) العراق بين احتلالين جـ٢ ص٣٨ عباس العزاوي شركة التجارة والطباعة المحددة بغداد ١٩٣٩.

٣٥) خلاصة الأثر جـ٢ ص٨٤.

٣٦) العراق بين احتلالين جـ٢ ص٢٤٦.

٣٧) الشرفنامة جـ١ ص٣٥٣ ـ ٣٥٤.

٣٨) Nineva and it Remains Vol I p. 305 .London 1849

٣٩) العراق بين احتلالين جـ٤ ص٢٤٩ ـ ٢٥٠ عباس العزاوي شركة التجارة والطباعة المحددة بغداد ١٩٤٩.

٤٠) سياحة نامة مجلد ٤ ص٦١ أوليا شبلي، طباعة القسطنطينية عام ١٩٠٠م.

٤١) اليزدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص٤١ د. سامي سعيد الأحمد، جامعة بغداد ١٩٧١.

٤١) العراق بين احتلالين جـ٥ ص١٩٦ عباس العزاوي، بغداد ١٩٥٣.

٤٢) تاريخ لطفي جـ١ ص١١٢ أحمد لطفي، طبع بولاق القاهرة ١٢٤٦ هـ.

٤٣) كتاب دوحة الوزراء ص٢١٠ الشيخ عبد الرحمن السويدي تحقيق صفاء خلوصي بغداد ١٩٦٣.

٤٤) اليزيدية والديانة اليزيدية ص١١٢ شاكر فتاح ترجمة دخيل شمو الحكيم بيروت ١٩٩٧.

٤٥) دوحة الوزراء ص٢٢٥. الشيخ عبد الرحمن السويدي تحقيق: د. صفاء خلوصي بغداد ١٩٦٣.

٤٦) العراق بين احتلالين جـ٦ ص١٨٩.

٤٧) تاريخ لطفي جـ١ ص٩٢.

٤٨) اليزيدية ص٤٦٣ ـ ٤٦٤ صديق الدملوخي الموصل ١٩٤٩.

٥٠) رحلة ابن جبير ص١٨٩ ـ ١٩٠ دار التراث بيروت ١٩٦٨.

٥١) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص٩٢.

٥٢) جريدة الزوراء عدد/٢ في ربيع الأول ١٢٨٦هـ/١٨٦٩ بغداد.

٥٣) دوحة الوزراء ص١٢١ الشيخ عبد الرحمن السويدي.

٥٤) تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ص١٢٩ عباس العزاوي بغداد ١٩٣٥.

٥٥) جريدة الزوراء عدد ١٥٢٢ في ٣٠ صفر ١٣١٠ هـ ١٨٩٢ بغداد.

٥٦) تاريخ الموصل جـ١ ص٣٢٠ المطران سليمان صايغ القاهرة ١٩٢٣.

٥٧) اليزيدية واقعهم وتاريخهم ومعتقداتهم ص١٠٦ د. محمد التونجي المكتبة الثقافية بيروت ١٩٩٩م

٥٨) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص٩٦ د. سامي سعيد الأحمد، جامعة بغداد ١٩٧١.

٥٩) اليزيدية في حاضرهم وماضيهم ص١٦٤ عبد الرزاق الحسيني صيدا لبنان ١٩٦٨.

٦٠) اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم جـ١ ص٩٦.

الفهرس